نَجوَى بَرَكات

غَيْبَة مَيّ

رواية

دار الآداب

مكتبة ياسمين

في شِقّتِها في الطابقِ التاسع، تعيشُ السّت مَيْ وحيدة. ومن على شرفةِ سنواتِها التي تعدو الثمانين، تطلُّ على بيروت تتفقَّدُ أحوالها وتحولاتها.

ولداها مُسافِران وقد أوكلا أمرَ الاعتناءِ بها إلى ناطورِ العمارة يوسف، وطبيبِ العائلةِ داود...

ذاتَ يوم، تُفاجأ مي بصوت يُناديها. مَنْ يكون الزائرُ، وكيف تُراهُ تمكّنَ مِن الدُّخولِ والوقت فجر، والشقة مغلقة لا ببوابة واحدة، بل باثنتين؟!

رواية عن فخاخ الذاكرةِ ورضوضِ القلب، وامتناعِ الرغبةِ بالتورّط، حتى مع قطّة.

نجوى بركات: روائية لبنانية. صدرت لها عن دار الآداب «حياة و آلام حمد بن سيلانة» و «باص الأوادم» و «يا سلام» و «لغة السّر» و «مستر نون». رُشِّحت أعمالها لجوائز عالميّة و تُرجمت إلى لغات عدّة.

مكتبة ياسمين

ISBN: 978-9953-89-776-9
9 789953 897769

دار الآداب

نجوى بركات

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

غَيْبَةُ مَيْ

رواية

دار الآداب

غَيْبَةُ مَيْ
نجوى بركات / روائيَّة لبنانيَّة
الطبعة الأولى عام 2025
ISBN 978-9953-89-776-9

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة
موقعنا www.daraladab.net
يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكترونيّ:
info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

telegram @
yasmeenbook

«والهجْرُ أَقْتَلُ لي ممَّا أراقبه

«أنا الغريقُ فما خوفي من البَلَل»...

المتنبِّي

I

مَــيْ

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

ـ مَيْ!

سقط الصوت عليَّ مثل غِلالةٍ شفَّافةٍ أوقفت شعر بدني وهزَّت قلبي فطنَّ في أذنيَّ طبلًا أجوف قويًّا. تسمَّرتُ في مكاني وقطعتُ نفَسي، فساد صمتٌ رحيم. لكن، ما إن حرَّكت قدمي أنوي التقدُّم، حتى كرَّر الصوت اسمي بنبرةٍ عاتبة. فكَّرت أنَّ العتب ولا بدَّ وليد معرفةٍ سابقةٍ والمعرفة، مهما كانت عابرة، تفترض أنَّ الناطق ليس غريبًا تمامًا. أغمضتُ عينيَّ وانكمشت أعضائي وتضرَّعتُ: يا إلٰهي، اجعلْه حلمًا أو حتى كابوسًا، لا يهمّ، إنَّما أتوسَّل إليك، أعِنِّي على الاستيقاظ.

وما استيقظتُ برغم صحوي، بل شعرتُ بحضورٍ ما في ظهري وبنَفَسٍ يصعد ويهبط لا مستعجلًا ولا على مهلٍ. ماذا أفعل، أركض خارج الشقَّة أو ناحية الشرفة، وأطلق صراخي؟ أنا على مسافةٍ وسطى ما بين الاثنَيْن، والوقت فجر، ماذا لو هبَّ إليَّ

بعض الجيران ليُنْجِدوني وما وجدوا أحدًا. سبق أن حصل هذا. سمعتُ حركةً في الشقَّة، فأقفلتُ باب غرفتي عليَّ واتَّصلتُ همسًا بيوسف الناطور. أنا لست خوَّافةً في العادة، لكنِّي كنت متيقِّنةً من وجودٍ غريبٍ في البيت. صعد يوسف إليَّ كالصاروخ وفتح بنسخة المفتاح التي يحتفظ بها، ثم أعطاني صوتَه بعد أن جال في أنحاء البيت.

ـ لا أحد هنا، ستّ مَي!

لم أرتَح. سألتُه أن يتأكَّد مرَّةً أخرى، وألححتُ أن يزور كلَّ الغرف، غرفة المؤونة الخلفيَّة في المطبخ، والحمَّامَيْن وحتى الحجرتَيْن اللتين تعلوهما، فربَّما اختبأ الدخيلُ فيهما. فعل ما أمرته به، ثم عاد إليّ.

ـ لا يوجد أحد!

فتحتُ الباب ولم أنظر في عينَيْه، وقلت:

ـ ربَّما هو جرذ؟

ـ معاذ الله! من أين سيدخل؟

ـ بعضها يتسلَّق الجدران الخشنة، أنا أراها تفعل.

استبعد يوسف الأمر بحزم، ثم دعَّم حجَّته بتعاقد العمارة مع شركةٍ خاصَّةٍ مكلَّفةٍ برشِّ المبيدات وتوزيعها بسخاءٍ ضدَّ القوارض والصراصير والحشرات، مرَّتَيْن في العام! وكان على حقّ. أنا أيضًا كنت على حقٍّ وقد سمعتُ ما سمعت وشعرتُ ما شعرت. والآن؟ لن أعرِّض نفسي ثانيةً للموقف المخجل إيَّاه. المرَّة الأولى مرَّت، الثانية ستدمغني وتُسجَّل عليّ، وفي الحالتَيْن

أستجلب لنفسي شُبهة الخرف أو الجنون. إلَّا هذا! أن يظنَّ الناس أنِّي أفقد عقلي وأصير غير صالحةٍ للعيش وحيدةً في شقَّتي. الموت أهون عليّ!

لا أعرف كيف استجمعتُ قواي، أخذت نَفَسًا عميقًا، واستدرتُ بسرعةٍ على ذاتي. مستحيل! أنا لا أهذي، ثمَّة امرأةٌ جالسةٌ في صالوني، على كنبتي، ناظرةً إليَّ وكأنَّني أنا الكائن الدخيل الغريب الذي لا يُفهم سبب وجوده هنا. التفتُّ مصعوقةً إلى باب المدخل، ثم إلى باب الشرفة، وأعدتُ الكرَّة، مقفلان، من أين دخلتْ؟ أُغمض عينيَّ بقوَّةٍ وأُخفي وجهي بيديّ، فتختفي! بلى، أنا نائمةٌ وسوف أكتشف بعد لحظةٍ أنِّي ما زلتُ في سريري. امتثلتُ لفكرةٍ ما وجدتُ أمامي سواها، ثم فتحتُ عينيّ. لستُ في سريري! ابتسامتها الخفيفة عالقةٌ عند عتبة فمها وهي ترمقني بملامةٍ وحزن. لا بدَّ وأنَّها من كائنات الماضي التي لا يؤمَن لها، تظهر ثقبًا أسود فاغر الفاه يشدُّ ويسحب بقوَّة المغناطيس حتى ابتلاعك. لكن، من أيِّ ماضٍ هي؟ فكَّرتُ وأنا أتوجَّه صوب الشرفة بعد أن قرَّرت إغفال وجودها والتصرُّف بشكلٍ طبيعيّ. ليست هنا. لا شيء يحدث. هذا فجرٌ اعتياديّ!

شرفتي الجميلة، مضيافةٌ ومحايدةٌ في آن، يضمن لي ارتفاعُها تسعة طوابقٍ في عمارةٍ يبلغ علوُّها عشرةَ طوابق وسطحًا، إطلالةً بانوراميَّة على عالم انقطعتُ عنه، وفضاءً للسهر والترويح عن ذاتي حين يستبدُّ بي أرقٌ عصيّ. عندما شارفتُ على السبعين، خاصمني النوم فكنتُ أبقى مفتوحة العينَيْن، إلى أن يغافلني الإعياءُ والنعاسُ بضربةٍ على الرأس أهوي من بعدها على السرير. بعد أزيد من

عشر سنوات، تأقلمتُ مع الأرق ووجدت له فوائد خصوصًا لجهة التعارض الصارخ بين سنواتٍ تبقَّت ورقادٍ يستهلك الساعات في غير موضعها. تقنين النوم، تمامًا مثل تقنين العيش والانفعالات والكهرباء. ليس أكثر من 4 ساعاتٍ في الأربع وعشرين ساعة. هكذا أغفو بعد أن يتملَّكني تعبُ مَن حرث أرضًا طوال النهار، أو كسَّر صخرًا، أو أفرغ بحرًا. غريبٌ أن تأتيني هذه الصور عن نشاطٍ يوميٍّ لا يعدو الانتقال من غرفةٍ إلى أخرى، محادثة بعض النباتات وسقايتها، ومضغ أكثر ممَّا يكفي لبقائي على قيد الحياة.

أغفو صحيح، لكنِّي أصحو لأقلَّ حركة، لأدنى خلجة، أنتفضُ مثل مَهْرٍ كبا سهوًا ثم انتصب مستعدًّا للعدو. أنا أيضًا أكون مستعدَّة، لكن لأيِّ أمرٍ، لست أدري. أستيقظ فأخلع سريعًا منامتي وأذهب إلى المطبخ مباشرةً لأضع الركوة على النار. وبانتظار بلوغ الماء درجة الغليان الضروريَّة لصنع قهوتي، أذهب إلى الشرفة لأخبرَ العالمَ، بل لأُفاجئه، أنِّي ما زلتُ هنا، لم أمتْ بعد. أجول بنظري على الشرفات القريبة والبعيدة، على الشارع الممتدِّ طويلًا والأزقَّة المتفرِّعة منه، ويسيئني أن أكتشف أنَّ ثمَّة من سبقني فقضم قبلي تفَّاحةَ النهار.

باستثناء الغادين إلى أعمالهم فجرًا، لا أرى أحدًا من سكَّان العمارات. لا ضوء، لا حركة، فقط أسرابٌ من عُمَّالٍ معظمهم من الأجانب يتوجَّهون بشكلٍ آليٍّ نحو أماكن عملهم، ليطعموا أفواه تلك المطاحن العملاقة التي لا تني تهرس عظامَهم منذ دهور. ينهضون تحت جُنح العتمة ليقصدوا أحياء «المدينة الصناعيَّة» تُخفيها عن ناظريَّ البناياتُ المقابلة، ثم الأتوستراد، ثم

الأبنية الأخرى على الجانب الآخر. يسمُّونها «المدينة الصناعيَّة» وهي عبارةٌ عن بضعة أحياءٍ متقاطعةٍ تمتلئ بالضجيج والشحوم السوداء وهياكل السيَّارت المهشَّمة وقطع الغيار على أنواعها، مستعمَلة وجديدة. قصدتها مع يوسف ذات مرَّة، حين اقتنعتُ أنَّه لا بدَّ من بابٍ حديديٍّ يُضاف إلى الباب الخشبيّ، خاصَّةً وأنِّي أعيش وحيدةً على ما قال لي الناطور. في عُمقي، أنا لا أعتقد أنَّ سارقًا ماهرًا قد يصدُّه خشبٌ أو حديد، إذ يبقى الحلُّ لخلع أقوى الأبواب، في قفلٍ يُكسَر أو مفاصل تُفكَّك. لكن، هذا ما درج عليه سكَّان العمارة، وما عادت تطمئنهم بوَّابةٌ حديديَّةٌ ضخمةٌ تمنع ولوج البناية إلَّا بمفتاح. هكذا فعل أيضًا سكَّان العمارات المجاورة، لا بل سكَّان المدينة بأسرها، وذلك أيًّا تكن طبقتهم الاجتماعيَّة، ومهما كانت معدمة، إذ هناك دومًا ما يستحقُّ السرقة. جملةٌ تستحقُّ أن تذهب مثلًا في بلادٍ كهذه انعدمت فيها كلُّ مستويات الأمن والأمان، فكان لا بدَّ من أقفالٍ تحمي أقفالًا، وبوَّاباتٍ تحمي أبوابًا. أقفالٌ ومغاليق لحماية السطوح، لغرف المياه والخزَّانات والأعيرة، لغرف الكهرباء حيث العدَّادات الكهربائيَّة وعدَّادات الاشتراك، لأغطية البلديَّة الفولاذيَّة في الطرقات التي تحمي الحفرَ المودية إلى المجارير، لأسلاك الكهرباء في الشوارع لأنَّها من نحاس، لكلِّ ما هو معدنيٌّ ومن النحاس لأنَّه ذو قيمةٍ ويُباع. حتى في سنوات الحرب العنيفة المرعبة، لم نكن نخشى استباحة فضاءات عيشنا بهذا القدْر.

أتأمَّل أسراب العمَّال العابرين من تحتي بصمت، ولا أستوعب ما الذي يُبقيهم هنا. أعينٌ مفتوحةٌ وكأنَّها مغلقة، لا

يتلفَّتون ولا يتحايُون ولا يتبادلون النظرات. فقط يتقدَّمون في قلب نفقٍ حفروه لتنقُّلاتهم وحفظوه. ثمَّة صبيّ، بالكاد عشر سنوات، يلوِّح بكيسٍ بلاستيكيٍّ أزرق وضع فيه زاده، أو ربَّما عدَّة الشغل. شعره المبلول المسرَّح بعنايةٍ يتنافى وزيَّه الملوَّث بشتَّى أنواع بقع الشحم. صبيٌّ ميكانيكيٌّ حتمًا أرسله أهله للعمل في أحد كاراجات التصليح المتكاثرة هناك. أتساءل ما الذي يُبقيهم وهل يُعقل أن تكون بلدانُهم أسوأ حالًا من بلادٍ لا تني تتخلَّع وتتفكَّك وتتهاوى منذ عقود. لا بدَّ أنَّه الاعتياد على نوعٍ من الشقاء وعدم الرغبة في التمرُّن على سواه. فالبؤس يبقى هو البؤس في النهاية، هنا أو هناك.

رفعت نظري عن الشارع عندما تحرَّكت القطَّة وأخرجت رأسَها من الصندوق البلاستيكيِّ حيث تنام، في الزاوية الأبعد من الشرفة. تمطَّت وتثاءبت ثم نظرت إليَّ بلؤم. تعرف أنِّي لا أحبُّها. ليس أنِّي لا أحبُّها، لكنَّها ليست قطَّتي بالفعل. أنا لم أخترها ولم أتقصَّد اقتناءها، فلست من عشَّاق الحيوانات ولا أستسيغ البتَّة فكرة عيشها في البيوت. وهذه القطَّة بالذات، لا أحبُّ مزاجيَّتها واتِّكالها عليَّ لفعل أمورٍ وجب أن يأتي تدبيرُها تلقائيًّا وطبيعيًّا ومن فِعلها هي. ليس على الحيوانات أن تتَّكل علينا لإطعامها وغسلها وقصِّ أظافرها، أخذها إلى طبيبٍ أو اصطحابها إلى حلَّاق! القطَّة، وإن لم تكن قطَّتي بشكلٍ طوعيّ، أُوفِّر لها بدوافع أخلاقيَّةٍ إنَّما غير عاطفيَّة، ما تحتاجه، وقد وقع الضررُ وتمَّ إفسادُها من قِبَل سواي. وإذا كنتُ في أحيانٍ أنحني لأملِّس على وبرها الذي يعلق في كفِّي أو يتطاير ليبلغ أنفي،

فلأنَّها تستنفد صبري بدورانها حولي وتمسُّحِها بي ومحاصرتي بموائها وحركاتها البهلوانيَّة التي لا تتوقَّف، ما لم أمسِّد على رأسها وظهرها للحظات. وأنا، إذ أفعل، أفعل آليًّا وبانفصالٍ تامٍّ كأنِّي أمسح سطحًا من جماد، فلستُ أفرح ولستُ أغضب، بل آتي أمرًا يُنهي إنجازُه مصدرَ انزعاجي. والحقيقة أنِّي أهتمُّ بها في حدٍّ أدنى لأنَّني لا أحبُّ نفسي إذ لا أحبُّها ولا أوليها بعضَ ما تستجديه من اهتمام. ففي الآخرين تختبئ صورتُنا عن أنفسنا، وفي نظراتهم تلوح أعينُنا تنظر إلينا في الخفاء.

ماءت بطريقةٍ غريبة ونظرت إليّ. ما هذا، وعاء أكلك ما زال ملآنًا وكذا وعاء الماء، فماذا تريدين؟ لا تبدو على عادتها. يبدو أنَّ القطط تكتئب أيضًا، فكَّرت، ثم خطر لي أنَّ الغاز ما زال مشتعلًا في المطبخ. لِمَ لا أتركها تتبعني وأعبر معها الصالون. يُقال إنَّ القطط تستشعر وجود الكائنات الدخيلة، وربَّما هجمتْ عليها وطردتها من المكان. انحنيتُ ورفعتُها وضممتها بقوَّةٍ إلى صدري، فاستغربتْ سلوكي وفتحت عينَيْها على اتِّساعهما. ليس من عادتي الاقتراب منها كثيرًا، فكيف بحملها وضمِّها؟ أزحتُ على مهلٍ الباب الشبكيَّ الذي يمنع دخول الحشرات، ثم مددتُ ساعديَّ بها أقصى ما استطعت، فصارت القطَّة في الصالون وبقيت أنا على الشرفة. أدرتُها يمينًا ويسارًا، فلم تأتِ أيَّ ردِّ فعل. أأُلقيها أرضًا وأدفعها إلى الداخل؟ مططتُ رقبتي لأُدخل رأسي ونظرت مباشرةً ناحية الكنبة. لا أحد! أففف... تنفَّستُ الصعداء. أتراني بدأتُ أسمع أصواتًا وأرى أطيافًا مثل مرضى الـ...؟ نهرتُ الفكرة، أعدتُ القطَّة إلى زاويتها، وعبرت

الصالون مسرعةً نحو المطبخ حيث أطفأت الغاز.

من الخزانة التي فوق المجلى، تناولتُ كوبًا وضعت فيه ملعقة نسكافيه غولد وملعقتي مبيِّضٍ حلَّتا مكان الحليب الذي تخلَّيتُ عنه لأنَّ بطني لم يعد يحتمله وقد تسبَّب لي بكمٍّ من الغازات ما عدت قادرةً على التحكُّم بها. أمشي، فأشعر أنَّ بوالين صغيرةً متسلسلةً مربوطةً بخَيْطٍ إلى مؤخِّرتي، تفقع مع كلِّ خطوة، وأحمد القدَرَ أنَّ لا أحد يراني أو يعيش معي ليُشعرني بأيِّ إرباك. متعةُ الضراط بحرِّيَّة! وقت ما كان وأينما كان! كان يُضحكني تلميحُ أبي إلى ضراط عمَّاتي وضجيجهنَّ الذي يعلو من حوله نفيًا واعتراضًا، عندما نجتمع أيَّام الآحاد، أو حين يقصُّ عليَّ قبل النوم حكاية تاج الدُّجى وأخته بدر الدُّجى التي كانت تُكثر من أكل الفاصولياء كي تحشو قصبتَه الطويلة بريح بطنها، فتساعده على ركوبها والطيران نحو مغامراته العديدة. تُخفي عمَّتي الكبيرة وجهها بيدَيْها لإدراكها أنَّها المقصودة، ثم تنقلب على ظهرها مقهقهة، فتبدو مثل كرةٍ مستديرةٍ بقدمَيْن صغيرتَيْن تتحرَّكان بإيقاعٍ يتواءم وضربات مدافع أحشائها، فيما تحتقن الوجوهُ ضحكًا وسعالًا.

دلقتُ مياه الركوة في الكوب الأبيض السميك، فَعَلا البخارُ وفاحت معه الرائحةُ المُدوِّخة. هذا هو التوازن المثاليّ، ماءٌ غاليةٌ تفقفق ليذوب المكوِّنان ويتداخلا بأريحيَّة، وأيضًا لأنِّي من الذين يتأنُّون في شرب قهوتهم، فلا تبرد ولا تأسن. لا بأس بها فاترةً أيضًا، لأنَّ فُرَصًا قادمةً لتناولها ساخنةً ستتكرَّر لحين انتصاف النهار، عندما أهجر القهوةَ إلى الشاي الأخضر، تعويضًا عمَّا

يمكن أن تكون قد ألحقته كثرةُ الكافيين بي من أذًى، برغم ما يشيع عن مقدراتها على محاربة الخرف وتنبيه الذاكرة، وهما السببان اللذان زادا منسوبَ احترامي لها وتعلُّقي بها. وعلى عكس تقاليد شرب الشاي في بلاد الإنجليز، فإنَّ الخامسة عصرًا هي ساعة توقُّفي عن احتساء كافَّة المنبِّهات والانكفاء إلى ما يهدِّئ الأعصاب: بابونج، يانسون، قصعين، نعناع، قرفة، زنجبيل، وزهورات متنوِّعة. هكذا أعوِّض عن كرهي شرب المياه، وأُعيد إلى أعصابي بعضَ هدوءٍ سلبتُها إيَّاه.

حملتُ كوب القهوة ووعاء الريِّ بعد ملئه، اقتربت على مهلٍ لأتأكَّد مجدَّدًا من فراغ الصالون، ثم خرجتُ إلى الشرفة. كانت أشعَّةُ الشمس قد بدأت تزحف ببطءٍ صوب أصص النبات، تتبَّعتها القطَّة بحثًا عن الموضع الأفضل للتمدُّد والاستمتاع. مددتُ قدمي محاولةً إزاحتها من دربي، فانقلبت على ظهرها رافعةً قوائمها الأربع. تظنُّ أنِّي أقوم بملاعبتها، أو أنَّها تُقنع نفسها بالأمر، مثابِرةً على سياسة المداهنة على أمل استمالتي عاطفيًّا علِّي أفتح لها باب قلبي، أو خاصَّةً باب الشقَّة. منذ قدومها وهي تحاول وتسترضي وتتذلَّل وتسعى. وما ملَّت، وما تعبت، وما يئست. أو أنَّها على عكس ما يُعرف عن القطط، لا تتمتَّع بأيِّ دهاء. لا أنسى كيف بقيت تموء أمام بابي لأيَّام. اختارت شقَّتي بالذات، وليس الشقَّة المقابلة التي يسافر أصحابُها عشرة أشهرٍ في العام. خرجتُ وكششتُها بعصا الممسحة، فهربت، لكنَّها ما لبثت أن عادت ورفعت من سقف موائها الذي كاد أن يقودني إلى الصرع. ثم خطر لي أنَّها جائعة، فقلتُ أُطعمها حتى تشبع فترحل.

وضعتُ لها قطع مورتديلَّلا وبعضًا من الماء، وكان هذا الخطأ الفادح الذي ارتكبتُ وأودى بي إلى ما أنا فيه. أطعمتُها كي أتخلَّص من موائها، فاعتبرتها المحتالةُ خطَّةً ناجعةً وبقيت رابضةً أمام الباب، تغفو، ثم حين يستبدُّ بها الجوع، تُطلق نفيرها، وتُصعِّد وتخربش بأظافرها على الباب. إلى أن رفعتُ الإنترفون وناديتُ وأنا أصرخ أكثر ممَّا أتكلَّم:

ـ يوسف! هناك قطَّةٌ لعينةٌ أمام بابي، تعال فورًا وخلِّصني منها قبل أن أرميها من البلكون!

دقائق وكان يوسف أمام باب المصعد يتفحَّص عنقها ليرى إنْ كانت تحمل طوقًا. وحين لم يجد ما يدلُّ على أصحابها، قال إنَّ نظافة وبرها وسمنة بطنها الذي يكاد يلامس الأرض، تؤكِّدان أنَّها ربيبة بيت. ثم انحنى مادًّا ساعده نحوها يريد أن يربت على ظهرها، لكنَّها تراجعت حذرة، قبل أن يحشرها في الزاوية فتُسلِّم نفسَها له. رفعها يوسف وضمَّها إليه وهو يملِّس وبرها الكثيف ويقول إنَّه سيفتِّش على أصحابها إذ لا بدَّ وأنَّهم من أهل الحيّ، فلم تقاوم وانتظرت بهدوءٍ معه قدومَ المصعد.

أُففففف...

عدتُ إلى رتابة أيَّامي وقد ارتحتُ من عبءٍ ثقيل، ففي سنِّي وحالتي، يُمثِّل أدنى ما يُقلق سيَلانَ أوقاتي الرتيبَ حدثًا جللًا. لكنَّ اللئيمة اسْتهدتْ إليَّ من جديد، وعادت بعد يومَيْن بمواءٍ متدافعٍ متصاعدٍ أشبه بجرس إنذار، وبخربشاتٍ بأظافرها أكثر شراسةً من قبل على أسفل الباب، كأنَّما قد بات لها، وقد أطعمتها مرَّة، حقٌّ عليّ.

رفعتُ الإنترفون وهتفتُ ليوسف منذرةً:

ـ القطّة عادت!

فأجاب يوسف متلعثمًا بصوته الخفيض بأنَّه صاعدٌ توًّا إليّ. لستُ أدري من أين يأتي بأطنان الصبر التي يُجبره سكَّانُ العمارة على استهلاكها، يوميًّا، وكيف يبقى متبسِّمًا لطيفًا لا يستنفد جَلَدَه شيء. يوسف وحدانيٌّ وغريب، وهو من فئةٍ من الناس تتزوَّج في العادة خلال المراهقة، أو على عتبة عشرينيَّاتها كأقصى حدّ. لكنَّ يوسف المُقيم في غرفته الصغيرة المدهشة بنظافتها وترتيبها، إلى يمين المدخل أسفل العمارة، لم يتزوَّج برغم بلوغه منتصف الثلاثين. ربَّما لأنَّ عروسه المحتملة ما زالت خبيئة قريته التي غادرها منذ ثلاثة عشر عامًا، عند اشتعال الحرب في بلاده المجاورة. لا أَنِي أستغرب كيف يبقى غرباءٌ في بلادٍ ضاقت بها الحالُ حدَّ الاختناق، بعد انهيار عملتها وإفلاس أهلها وانحلال مؤسَّساتها التامّ. صحيح أنَّه بات يقبض معاشه بالعملة الخضراء ـ وقد اتَّفق سكَّانُ العمارة مجتمعين على نِعَمِ وجوده الكثيرة عليهم، وأهمُّها شعورهم بالأمان لتواجدٍ يردع ولو شكليًّا، السرقاتِ المتكاثرة من حولهم ويُبعد احتمالَ ضمِّهم إلى ضحايا حوادث قد تبلغ حدَّ القتل من أجل مبالغ تافهة: سلسال ذهبيّ، أو محفظةٍ لا يعدو محتواها ثمن ربطتي خبز. في مطلق الحال، فإنَّ مجرَّد حضوره الدائم، مدعومًا ببوَّابةٍ حديديَّةٍ سوداء ضخمة، وبأضواءٍ فاجرةٍ تبقى مُنارةً ليلًا برغم الغياب التامِّ للتيَّار الكهربائيِّ والارتفاع الجنونيِّ في أسعار الاشتراكات، بدا فعَّالًا بدليل عدم تعرُّض عمارتنا لأيِّ محاولة سرقة. حتى الآن.

ابتسم يوسف حين فتحتُ له الباب، رامشًا بهدبَيْه، معتذرًا عن وقاحة قطَّةٍ لم يوفَّق في إيجاد أصحابها، فهاله أن يرميها إلى الشارع حيث ستتنازع لحمَها البضَّ مئاتُ القطط الداشرة والكلاب المستذئبة التي تخلَّى عنها أصحابُها بسبب ضيق الحال. «تركتها في المساحة المخصَّصة لركن السيَّارات، أمام مدخل البناية ـ قال مستحيًا ـ ثم التفت إليها متفكِّرا، قبل أن يُضيف شبه هامس: كنت أُطعمها وأترك لها ماءً، لكن يبدو أنَّها أحبَّتك، ستّ مَي»...

يرمي لي طُعمًا في محاولةٍ يائسةٍ لإقناعي بإبقائها برغم يقينه أنَّ جوابي سيكون لا، ففاجأتُه بخبثي المضمَر لإفهامه أنِّي أكثر تعقيدًا ممَّا يظنّ، حين سألته ببراءةٍ ظاهرة:

ـ أحبَّتني، حقًّا؟

اشرأبَّ عنقُ يوسف فجأةً حين سمع ما يشبه اهتمامي، فانتصبت أذناه والتمعت عيناه، وقال وهو بالكاد يُخفي انفعالَه بابتلاع لُعابٍ تجمَّع تحت لسانه:

ـ ألم تخترككِ دون سكَّان العمارتَيْن، وأنتِ لستِ حتى في الطوابق الأولى لنقول إنَّها استسهلت المجيء؟

نظرتُ إلى القطَّة التي صمتتْ بمعجزةٍ وكانت تقف في الفسحة التي تفصلني عن يوسف، مدَّعيةً التفكيرَ والموازنةَ بين ما ينفِّرني من فكرة إبقائها معي وما يتركني على حياد، فيما صغَر يوسف ناظرًا إلى الأرض، محبوس الأنفاس، خشية أن يأتي بردِّ فعلٍ يؤثِّر سلبًا على قراري. ولمَ يهتمُّ أصلًا لمصيرها هكذا؟ ولِمَ لا يتبنَّاها هو إذا كان قد تعلَّق بها إلى هذا الحدّ؟ يوسف اعتاد

مثلي العيش وحيدًا، ثم إنَّ معاشه لا يسمح له بإطعام فمٍ آخر، حتى ولو كان لقطّ.

دارت القطَّة على نفسها، ثم طوت جسدها واقتعدت الأرض. لست أدري إن كانت هي رغبتي بمعارضة توقُّعات يوسف بشأني، أو إن كان لوناها الأبيض والأسود الملائمان لمزاجي الفاتر، أو أخضر عينَيْها الغامق المطفأ، أو انفصالها في تلك اللحظة حيث بدت غير ساعيةٍ إلى عاطفةٍ تعدو كفايةَ حاجاتها الأوَّليَّة من مأكلٍ ومشربٍ ومبيت، هي ما أقحمها في مخيِّلتي وجعلني أتخيَّل وجودَها معي. مجرَّدُ تخيُّلٍ تسرَّب إلى عقلي كما يتسرَّب الغاز، فجعلها في مستقبلٍ يقبل أن أُدخلَها بالفعل. رفعتُ عيني عنها وسألتُ: لمَ تقول هي؟ قد تكون ذكرًا. فأجاب يوسف مستعجلًا ومتلعثمًا قبل أن يفتر اهتمامي المفاجئ بها:

ـ ولو؟! ألم تريْ بطنها المدلوق يكاد يلامس الأرض؟

شعرتُ بالانزعاج والإحراج فجأة، فبقيتُ دون حراكٍ أتأمَّل في ملامح وجهه، متفكِّرةً في بطني أنا، المدلوق والبارز جليًّا تحت ردائي الصيفيِّ الخفيف. كانت صورتنا واقفَيْن معًا وبيننا قطَّةٌ سمجةٌ سمَّمتْ عيشي بموائها منذ أيَّام، وغضبي على نفسي وقد وضعتُ قدمي بملء إرادتي داخل ورطة، سببًا لمزيدٍ من الحرج والاستياء. ومع ذلك، سرعان ما خطر لي أن ليس هناك ما يمنعني من التراجع خطوتَيْن، إمساك قبضة الباب وصفقه بقوَّةٍ في وجه يوسف. فهو مجرَّد ناطور، وأنا الستّ مَي!

أنهيتُ سقيَ النباتات بعد أن سخوتُ بالماء على الأصِّ الكبير المستطيل حيث حشرتُ ثلاث بصلاتٍ صغيرةٍ ورأس طماطم كرزيَّةٍ عصرته لتخرج منه بذوره التي غطَّيتها بطبقةٍ رقيقةٍ من التراب. أحبُّ الزرع، ولو في وعاءٍ صغير. يشعرني أنِّي أجيد فعل شيءٍ ذي فائدة، ويصالحني بمعنى ما مع دورة الأيَّام. يسحرني نموُّ الزرع كأنْ من لا شيء، ترابٌ ونورٌ وماء، فيُبرز رؤوسَه من تحت التراب، ثم يعلو ويمدِّد سيقانه وأوراقه وثماره. وكم أُسعَد بقطاف أقلّ شيء، ورقة نعناع، عشبة، زهرة، أغتبط كمن وجد لقيَّةً أو وقع على كنز. حين أُثبت وشاع أنَّ النبات يشعر ويتجاوب مع الموسيقى واللمس، أُحبطت. متى وكيف نبتت له مشاعر، وهو الموجود قبلنا منذ ملايين السنين؟ والحقيقة أنِّي شعرتُ بأسًى لحاله إذ كنت أخاله أقوى، أكثر مناعةً وانفصالًا من بقيَّة الكائنات.

استرقتُ نظرةً عبر الزجاج إلى الصالون. الأثاث غارقٌ في الصمت والفراغ. لا شيء غريبًا أو مثيرًا للقلق. سوف أدخل وأجلس حيث يطيب لي أن أستضيف نفسي قبل أن تتحوَّل خيوطُ أشعَّة الشمس إلى سهامٍ حارقةٍ تصيب العينَيْن. أحبَّه صالوني الفسيح باعتدال، وأحبُّ ألوانه ولوحاته، وأحبُّ أن أشعر نفسي ضيفةً عليه تحتسي القهوة وهي تتأمَّل التفاصيل وما يُزيِّنه من قطعٍ وسجَّاد. بل إنَّني حتى في بعض الأحيان، أندمج في الدور تمامًا، فأجدني أجلس الساق على الساق، أُحادثني وأُجيبني كمن يؤدِّي دوريْ شخصيَّتَيْن في آن. وإذ أفطن إلى استغراقي في الكلام مع ذاتي، أرفع عينيَّ إلى السقف لائمةً نفسي: متى تكفِّين عن جنونك هذا، يا مي، لقد تجاوزت الثمانين! أغمضتُ عينيَّ وألقيت رأسي على مسند الكنبة أفكِّر كيف هُيِّئ إليَّ أنَّ امرأةً كانت جالسةً هنا حيث أجلس؟ ما زال صوتها واضحًا في أذنيَّ وشكل طيفها حاضرًا في ذهني، لكنَّ ملامحها الدقيقة غابت عنِّي وقد خفتُ من التمعُّن فيها. هل أُخبر دكتور داود عنها؟ زرتُه منذ نحو ستَّة أشهر، وطلبت إليه أن يختبر وعيي ويفحص دماغي بإمعان.

ـ ما الذي يقلقكِ، أخبريني؟

ـ لا شيء، أريد أن أتأكَّد فقط أنِّي ما زلت صالحةً للاستعمال.

قلت هذا وضحكت، فضحك بدوره، ثم قال إنَّه سيطلب لي مجموعةً من التحاليل، فأوقفته: أريدك أن تفحص رأسي، دماغي تحديدًا، فرمش بعينَيْه مستغربًا وسألني:

ـ أثمَّة ما يقلقك بشكلٍ خاصّ، أم أنَّه النسيان الذي سبق أن حدَّثتني عنه؟ لا تخافي، هذه حالنا كلَّنا بسبب ما نعيشه من توتُّرٍ وضغوط. اللبنانيُّون جميعًا يحتاجون علاجًا نفسيًّا بعد أن عاشوا ما عاشوه منذ خمسين عامًا، أتتخيَّلين، مضى علينا نصف قرنٍ ونحن من سيِّئٍ إلى أسوأ!

داود طبيب العائلة وصديقها منذ سنوات. وبرغم ثقتي به، أصررت أن يقبل طلبي إجراء تصويرٍ مقطعيٍّ للدماغ بالرنين المغناطيسيّ. رضخ بعد أن حاول إقناعي بالاكتفاء بالتصوير العاديّ، وإذا ما... بعد يومَيْن، عدت لمعرفة النتيجة.

ـ ما زال حجم دماغك كما لو أنَّك ابنة 14! هه، هل ارتحتِ الآن؟

نعم، ارتحت. فأكثر ما أخشاه هو أن أُصاب بالخرف أو بالنشاف كما يقولون، فأضيِّع ذاتي وأفقد استقلاليَّتي. حتى إنِّي كنت قد فكَّرتُ بخطَّةٍ والاتِّفاق معه على تنفيذها، حين تحلُّ تلك الساعة، لكنِّي تراجعت. جدَّتي المسكينة كانت أصغر منِّي سنًّا حين أضاعت عقلها. يُصحِّح لي والدي المعلومة: جدَّتك خرَّفت، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ يحدث لكبار العمر. أسأله عن السبب، فيفكِّر قليلًا قبل أن يضيف:

ـ هل تذكرين قصَّة الأمير المسحور الذي تحوَّل ضفدعًا؟ الإنسان عندما يشيخ، يعود إلى مرحلة الطفولة، فيخترع ليسلِّي نفسَه خرافاتٍ يقع في شركها ويصدِّقها. لا ينطبق هذا على الجميع، لكنَّ جدَّتك من هؤلاء القلائل أصحاب المخيِّلات الخصبة.

لم يُقنعني تفسيره، لكنّي سكتُّ على مضضٍ لأنَّ أبي من ضعاف القلب الذين يعتمدون دومًا التفسير الأكثر مواءمةٌ لهشاشة قلوبهم، وقد كان مقهورًا لغياب أمِّه عنه قبل أن ترحل، بخلاف أخواته الثلاث اللواتي استسلمن وقبلن بواقع الأمر. بدأ الأمر بتكرار جدَّتي السؤال نفسه مرَّات، أو بإعلانها أنَّها جائعةٌ وطلبها الأكل بعد دقائق فقط من تناولها وجبةً كاملة. كنت أعرف أنَّ جدَّتي لم تعد على حالها، أقترب منها وأهمس لها بما تودُّ معرفته، أحاول أن أُحفِّظها إجاباتٍ فلا تكرِّر الشريط المزعج المملَّ إيَّاه. أجلس بقربها لأتشارك وإيَّاها لوح شوكولا، فتأكل حصَّتها باسمة، قبل أن تثبِّت نظرها فيَّ وتسألني: ابنة من أنت يا صغيرة، وأين هم أهلك؟ فأدخل فمي ما أستطعتُ في أذنها لتكون المسافة إلى استيعابها أقصر، ثم أُجيبها على مهل، بوضوح، كي تسمع جيِّدًا وتحفظ. لكنَّ جدَّتي تقف، ثم تأخذ بيدي قائلة: تعالي، تأخَّر الوقت، يجب أن أعود إلى بيتي. أسير معها وأنادي عمَّاتي أنَّنا ذاهبتان، فيسرعن مطمئناتٍ وحاضناتٍ وباكيات، هنَّ اللواتي أصبحن بعد مدَّةٍ غير مكترثات، قبل أن يتحوَّلن شاكياتٍ ومتذمِّراتٍ عندما دخلت أمُّهنَّ في نوبات صراخ، وساعات أرق، وقضاء حاجاتها في غير مكانها. شيئًا فشيئًا انسحبت جدَّتي واكتمل غيابها لتحلَّ مكانها مخلوقةٌ أخرى لا تعرفنا ولا نعرفها، نحاول التواصل معها فلا نَبْلُغُها مهما اجتهدنا، ذلك أنَّ جدارًا زجاجيًّا سميكًا بات يفصل بيننا. وحده والدي استمرَّ بمحاولاته استعادتها، يُريها صورًا يَغرق فيها نظرُها كما تغرق نقطة ماءٍ في رمالٍ لاهبة، أو يقصُّ عليها حكايتها وقصصًا من ماضيها وماضي

عائلتها. وحين تُغمض عينَيْها ويفهم أنَّها لم تفهم حرفًا ممَّا يقول، يشعر بالذنب لأنَّه أنهكها، فينهض باكيًا، يقبِّل يدَيْها ويدعوني متعجِّلًا أن ننهي زيارتنا، ليبقى الطريقَ كلّه واجمًا في أثناء عودتنا.

ذاكرة جدَّتي محت ماضيها كلّه، فلم تبقَ لديها سوى ومضاتٍ قليلةٍ من طفولةٍ بعيدةٍ من بينها صورة والدتها ووالدها الذي مات شابًّا في الحرب الأولى. غابت جدَّتي لمدَّةٍ ليست طويلة، ثم ماتت. ربَّما هي رحمة الإلٰه أن نفقد الذاكرة ونغيب عن العالم فلا نواجه لحظة موتنا. أو هي ذريعة الدماغ للإنكار والتهرُّب. أنا غبت ذات مرَّةٍ ولم أكن مسنَّة، لكنِّي كنت أواجه ما هو أقسى من الموت الذي كان في عينيَّ رحمة، وما كان متاحًا. دخلت في غيبةٍ استمرَّت سبع سنواتٍ على ما قيل لي، رجعتُ من بعدها إلى الحياة في حدِّها الأدنى، صحيح، إنَّما بالقدْر الكافي لأبلغ العمرَ الذي أنا اليوم فيه. أيكون ظهور المرأة فجر اليوم، هو من أثر تلك الغيبة؟ ومضةً من حضورٍ ما امَّحت تفاصيله؟

ثمَّة أحداثٌ أشبه بالسواطير تُخضع حيواتنا للتقطيع فتُنسينا ما كانت عليه سابقًا، قبل أن تُعلِّقَ كالذبائح حيث يجري إفراغها من الدماء وسلخها وتجزئتها ورمي عظامها وبقاياها إلى الكلاب ومستوعبات النفايات، فتفقد هُويَّتها لتصير قِطعًا من لحوم نكراء. أنا، ثمَّة من أعمل في حياتي سكِّينًا ليفصل منها سبعَ سنواتٍ ضاعت منِّي لا أدري كيف وأين. ما بُتر، امَّحى أثرُه، أو أنِّي تعلَّمتُ الاستغناء عنه بأن لملمتُ بقايا أعدتُ إليها اللُّحمة لتبدو وكأنَّها لا تفتقد أيَّ جزء. والحقُّ أنِّي لا أذكر من تلك السنوات

الكثيرَ، صورًا قليلةً يهيمن عليها شعورٌ بالغرق في مياهٍ لا أعرف للخروج منها سبيلًا، وما يختلف في كلِّ مرَّةٍ هو عمق المياه، حرارتها، وأمورٌ أخرى مماثلة. بيد أنَّ الغرق في بئرٍ أو في محيطٍ لمن لا يُجيد السباحة، يبقى غرقًا في نهاية المطاف.

حينما أشار يوسف إلى بطن القطَّة، أراد أن يؤكِّد على كونها أنثى. ولم يكن هذا دليلًا مقنعًا لأنَّ القطط الذكور حين تُخصى، تسمن وتتدلَّى بطونُها هي أيضًا. هذا ما فكَّرت به مباشرةً وبقي عالقًا في حلقي، إذ شعرتُ وكأنَّه يلمِّح إلى بطني. اضطربتُ وغَزُرَتْ نقاطُ العرق عند منابت شعري وجعلتْ تسيل على رقبتي وظهري، وصولًا إلى الشقِّ الفاصل بين فلقَتي مؤخِّرتي، فما كان منِّي إلَّا أن حدتُ عن فجوة الباب بنيَّة إغلاقه فورًا. لكنَّ اللعينة غافلتني وجَرَتْ متعجِّلةً إلى الداخل. هل ظنَّت أنِّي بحركتي تلك أدعوها إلى الدخول؟ لا أعرف، لكنِّي صرختُ بيوسف وقد ضقتُ ذرعًا بوجوده وقد همَّ أن يلحق بها:

ـ يكفي!

صفقتُ في وجهه الباب وكنتُ قد تحوَّلت سائلًا من شدَّة الحرِّ والإرباك. ذهبت إلى المطبخ وصببت ماءً باردًا أضفتُ إليه ملعقةً كبيرةً من ماء الزهر، ثم جلست وشربته. هدأ روعي ولمتُ نفسي على اضطرابها لسببٍ سخيفٍ كهذا. وإذ شعرت بالذنب حيال يوسف، كلَّمته عبر الإنترفون بنبرةٍ ملطَّفةٍ تنوب عن اعتذاري منه:

ـ اسمع، يا يوسف، أُبقيها يومَيْن لا أكثر، بانتظار أن تجد أصحابها... يومان، اتَّفقنا؟

ومرَّ اليومان، تلتها أيَّامٌ وأسابيع ولم يظهر للقطَّة أصحاب، فبقيتْ نزيلةَ الشرفة الفسيحة إلى حيث توجَّهتْ مباشرةً، مقتادةً بحدسها أو غريزتها وقد أدركت أنَّه من المستحيل أن أقبل وجودها إلَّا وكأنَّها غير موجودة. دبَّر لها يوسف قفصًا شرعيًّا تحتمي فيه من عسف الشمس حين تُسلِّط نارها على هذه الجهة وتبيت فيه، وصندوقًا خشبيًّا من صناديق الخضار وضع في أسفله قطعةً من النيلون السميك الذي يستخدمونه في البناء، ملأه رملًا ناعمًا يقوم بإفراغه وتبديله كلَّ أسبوعٍ كي لا تنبِّهني الرائحةُ الكريهة إلى ضرورة التخلُّص منها برميها إلى الشارع حيث لا يحتمل مَن تورَّطَ بها وورَّطني، أن يراها.

شعرتُ بمرارةٍ أسفل الحلق، فنهضت مسرعةً عن الكنبة وذهبت إلى الحمَّام حيث غسلتُ وجهي بالماء البارد. يجب أن أفكِّر بأمرٍ يستهلك إنجازُه طاقتي ويبدِّل مزاجي. منذ عمرٍ وأنا عائمةٌ فوق مياهٍ هادئةٍ وقد تجاوزتُ كلَّ شيء، حتى شلل القلب. القلب عضلة، نعم، ويمكن أن تُشلّ. ربَّما كان وجود زوجي بجانبي، قابلًا للنسيان كما تكون مادَّةٌ قابلةً للاشتعال، هو ما ساعدَني على النفاد من الغرق، والعوْم. هذا ليس جحودًا أو تخلِّيًا، بل على العكس. لقد كان هو التفاني بمعناه الأنبل، ونقيض رغبة الامتلاك، وله امتناني الأزليُّ لأنَّه لم يُخلف فيَّ أثرًا، لا ندوبًا ولا حُرقة ولا ندمًا. وما طالبني بشيءٍ سوى أن يكون بجانبي، أنا التي كنتُ حينما التقاني، جثَّةً غريقة، شجرةً مقصوفة، لا شيء.

إلى اليوم، وأنا أحاول استحضار لحظة لقائه بي، أو زواجه

منِّي، أو وفاته، أشعر برأسي مسكونًا بريحٍ لطيفةٍ تعبره بهدوء، فلا تُثير شجنًا أو شُبهة. وإذ أجهد على غير عادتي في استرجاع ذكرى عنه، وفاءً واعترافًا بالجميل، لا تحضرني سوى قدماه اللتان حفظتهما عن ظهر قلب. كانت له قدمان جميلتان بجلدٍ أبيض ناعم وأصابع متناسقة، على عكس قدميَّ أنا، كثيرتي العظام بأصابع متناحرة. ولولا شُعَيْراتٌ قليلةٌ سوداء ملساء، تُزيِّن أصابعَه كما تكلِّل شعورُ الجياد أعناقَها، لبانتا وكأنَّهما لفتاة. أتذكَّر قدمَيْه دون بقيَّة أعضائه، ربَّما لأنَّني أمضيتُ سنوات زواجي الأولى منزوعة الرقبة، مخفضة الرأس، وكأنِّي من فصيلة رخويَّاتٍ يتوقَّف عمودُها الفقريُّ عند مستوى الكتفَيْن. فكنتُ، إذ أتعب من التحديق إلى الأسفل حيث اللاشيء، أُغمض عينيَّ وأروح في إغماءةٍ لا يوقظني منها إلَّا منظر قدمَيْه تقفان على مقربةٍ وهما تحاولان إقناعي بفتح فمي لكي يُلقى في داخله طعام. لقد حفظتُ قدمَيْه حتى جعلتُ أروح وأجيء بهما، فيما أنا جالسةٌ في ركني لا أغادره أصلًا لكي أعود إليه. سنواتٌ مرَّت قبل أن أؤوب من غيبتي وأكتشف أنَّ زوجي المسكين مُصابٌ بمرضٍ عُضال. هل جاءه السرطان قبل إيابي بكثير، لا أعرف، هو أيضًا لم يعرف بسبب تناسي ذاته وانشغاله الدائم بي وبالولدَيْن. دهمه الوقت وما أسعفه أن يعرف شيئًا ممَّا أصبحتُ عليه لاحقًا. هل كنتُ قد شُفيتُ فعلًا؟ في مطلق الحال، كان عليَّ أن أعتني أخيرًا بولدَيْه.

يُقال إنَّ الأمومة تبثُّ في المرأة قوَّةً وطاقةً تمكِّنانها من تحريك جبال. أنا شخصيًّا لم يقوِّني مجيءُ ابنيَّ التوأمَيْن، بل كأنَّ امرأةً أخرى هي مَن حملت بهما وأنجبتهما. والحقُّ يُقال إنَّهما

جاءا مباشرةً في حضن والدَيْهما وقد تولَّى هدهدتهما وإرضاعهما ورعايتهما، بينما كنت هائمةٍ في صحراء روحي، في متاهةٍ أبحث فيها عن منفذٍ للخروج، وقد أخذ ذلك منِّي أعوامًا طويلةً قبل أن أعود، بآثارٍ جانبيَّةٍ حتمًا منها النسيان وعدم تذكُّر الكثير ممَّا كان. كأنَّ تلك الأيَّام عبرت بجانبي فما لامستني ولا حملتني معها، بل تركتني منتظرةً أن يحين وقتُ رجوعها إليّ. سبعة أعوام ضائعة، من يهتمّ؟ ألم يفقد جميعنا مثلها إن لم يكن أكثر، خلالَ الحرب؟ وما قيمة سنواتٍ تجتثُّ كما تُقتطع شرايين لوَّثها السُمّ؟ أنا لا أشعر بشقاءٍ أو شجنٍ حيال ضياعها، إذ كيف لي أن أحزن على خسارة شيءٍ أجهل محتواه؟ هذا ما درَّبتُ نفسي عليه، فنحن لا نُدرك أنَّ الجرح قد طاب ما لم نر أثر التئامه. لقد التأم جرحي على ما يبدو، وأثرُه ندبةٌ جانبيَّةٌ اسمها النسيان. لقد نسيت كيف تزوَّجت وكيف أصبحت أُمًّا. هذه أحداث أُدركها بوعيي، لا بذاكرتي، أعرف أنَّها حدثت وهناك براهين على حدوثها: الصور، روايات المعنيِّين، ثم الزوج والبيت والولدان والأوراق الثبوتيَّة، إلخ... بيد أنَّها أمورٌ حدثت خارجي، فما شكَّلت لي ذاكرةً أو ذكريات.

أتذكَّر مثلًا مرَّاتٍ قليلةً تسلَّل فيهاالتوأمان إلى غرفتي، فما لبثت القدمان الرؤوفتان أن تبعتهما لتبعداهما عنِّي. «ماما متعبة، ويجب أن نتركها لترتاح»! أسمع كلمة ماما، فتنزل دموعي ولا أشعر بها، حتى تعود القدمان لتمسحاها. «لا بأس عليك، هما بخيرٍ وقريبًا تقومين إليهما». ما الذي جاء بهما، أفكِّر، وقد كنَّا أنا والقدمان بألف خير ـ منذ وُلدا، وهما يصرخان في الغرف

المجاورة، وإن أفلتا واقتربا منِّي، هلعتُ كما لو أنَّ جيشًا سيعتدي عليّ. كنت أخاف منهما فعلًا، لا مجازًا، وأُذعر ممَّا يطالباني به ولستُ قادرةً عليه، باستثناء بقائي كومةً مهملةً في ركن. حتى إنِّي لم أكن أجرؤ على النظر في أعينهما، أو أخذهما بين ذراعيّ، أو تحسُّس رائحتَيْهما. لقد كبرا خارج حضني وغرفتي، وحين جاء وقتُ خروجي وعودتي إلى الحياة، كانا هما أيضًا قد خرجا إليها بدوني.

عندما مدُّدوه في التابوت وتقدَّمتُ لوداعه كما يليق بزوجةٍ أن تفعل، وجدتُ حذاءَيْن أسودَيْن يصدَّانني عنه. اقتربت من الجانب الأسفل للتابوت، ثم انحنيتُ أخلعهما مع الجوربَيْن. ثمَّة من جاء مسرعًا لمنعي من ذلك، لكنَّ التوأمَيْن صدَّياه بأن وقفا مثل ملاكَيْن حارسَيْن على يمناي ويساري، تمامًا كما كان يفعل أبوهما، وكما أوصاهما أن يفعلا. ملقًى على سرير المرض، التفت إليَّ عن بعدٍ متأسِّفًا على تركي رغمًا عنه، شبه معتذرٍ كما لو أنَّ علَّتُه إهانةٌ شخصيَّةٌ موجَّهةٌ لي. خلعتُ حذاءَيْه القاسيَيْن وجوربَيْه الضيِّقَيْن وحضنتُ قدمَيْه. كانتا لا تزالان على تلك النعومة التي تلامس شِغاف القلب، لكنَّهما كانتا باردتَيْن، فنزلت دموعي ساخنةً حتى غمرتْهما.

لقد تزوَّجتُ وأنا منفرطةٌ كعِقْدٍ فُقدت حبَّاتُه وطاشت في كلِّ اتِّجاه، وأنا مفتَّتةٌ مثل حجر كلس، وأنا رخوةٌ ولزجةٌ كبزَّاقة. جاء زوجي وراح يلملمني ويجمعني ويرمِّمني ويُلصقني. وما سألني شيئًا. وما طالبني بشيء. لقد أدرك سلفًا أنِّي عالقةٌ في يمٍّ ينبغي أن أقطعه وحيدة، فوقف على الشاطئ مثل منارةٍ تومض من

البعيد. وما رأيتُه في البداية، إذ كنتُ مأخوذةً وسط نوٍّ مخيف، ريحٍ عاتيةٍ ومياهٍ مضطربة، وأنا أمسك بدفَّةٍ متخلِّعةٍ علَّها تصمد حتى يهدأ الموج. وقف على اليابسة ولم يَخَفْ، ولم يتردَّد، بل أشعل ضوءًا وراح يلوِّح به ويقودني، إلى أن نجوتُ.

هل نجوتُ فعلًا؟ لا يهمّ. هما قدماه اللتان حضنتُهما قبل أن يلتهمهما القبرُ وغسلتهما بالدمع عرفانًا ومرَّغتُ وجهي بهما، ما أذكره جيِّدًا وما تبقَّى لي منه.

استكملتُ نهاري وكأنَّه ابتدأ على نحوٍ عاديّ، وكأنَّ موج الرتابة يتدافع بالإيقاع نفسه، وكأنَّني ما زلت أنا التي اعتدتُها منذ دهر.

إنَّه موعد قهوتي العربيَّة التي أتناولها بعد أن أكون قد فطرتُ قطعةً من الخبز عليها لبنةٌ أو قطعةٌ من الجبن، مع شرحات طماطم وخيار. هذا يكفيني، فأنا لا أُكثر من الطعام صباحًا وأترك حصَّة الأسد للمساء، على عكس ما ينصح به الأطبَّاء. العشاء هو شبه احتفالٍ صغيرٍ يوميّ، آخر ما تبقَّى لي من لذَّة، لذا وُجب أن يكون مختلفًا ذا نكهةٍ ولونٍ ومعنى. يحضرني عدوِّي اللدود، بطني! مهما شرقتُه وحبستُ أنفاسي، سيبقى بارزًا حاجبًا عنِّي رؤية ما يوجد أسفله. أحيطه بيديَّ الاثنتَيْن وأهزَّه، مرَّة، مرَّتَيْن، ثلاثًا، وأتمنَّى لو أنِّي بذلك أنتزعه وأتخلَّص نهائيًّا منه. حتى صبيَّة، كان لي بطن، ليس كهذا الذي أحمله الآن بالطبع،

إنَّما كان بطنًا بكلِّ المقاييس، وإن صغيرًا ومشدودًا وناهضًا بشموخ. هل كان يوسف يلمِّح فعلًا إلى بطني يوم أشار إلى بطن القطَّة؟ ولِمَ أهتمّ؟ فأنا في سنٍّ حرَّرتني من نظرات الآخرين، إعجابهم أو سخريَّتهم.

وضعت كفِّي على غطاء مرطبان البنّ، وشددت مُحاوِلَةً فتحه. أصابعي تؤلمني. لا بل إنَّ ما يؤلمني أكثر هو أنَّها لم تعد تُطاوعني لأداء حركاتٍ تافهةٍ غبيَّة. عند نهوضي من النوم صباحًا، تكون متخشِّبة، مجمَّدة، كأنَّها أُخرجت للتوِّ من ثلَّاجة، يصعب إغلاقها أو ليُّها أو إعادة الحياة إليها، إلَّا بعد تدليكها وفتحها وغلقها عدَّة مرَّات. وليس كفَّاي فقط ما أجد صعوبةً في تحريكهما واستخدامهما، بل يمتدُّ الأمر إلى ساقيَّ ورقبتي وظهري الذي يحتاج تقويمه وقتًا وحذرًا. لماذا يسمُّوننا عجَّزًا؟ ببساطة، بسبب عجزنا عن أداء أفعالٍ بديهيَّةٍ تافهة! العجز هو داء الشيخوخة الفعليّ، القصور والصعوبة في إتيان حركاتٍ تلقائيَّةٍ يصير إنجازها بمثابة قطع الربع ميل.

انصاع غطاء المرطبان في يدي أخيرًا، ففاحت رائحة البنِّ وعبثت بمنخريَّ وأزاحت نكهة الصدأ التي يسبِّبها استيائي، فشعرت أنِّي خفيفةٌ ومقبلةٌ على الحياة. أشياءٌ صغيرةٌ تعدِّل مزاجي وتحسِّنه، أو تجعله يكفهرُّ كسحابةٍ سوداء. ياه، البنُّ السخيُّ المعطاء برائحته الخيِّرة التي توصلك إلى الوجهة حتى قبل المذاق. ربع ملعقة سكَّرٍ بالكاد، وملعقتان من الطحين الأسود السحريِّ فوق المياه التي قاربت درجة الغليان، إنَّما دونما تدخُّلٍ أو خلطٍ أو تحريك، حتى تنقلب الموازين وتختلط بتلقائيَّةٍ وتناغم...

رنَّ الهاتف قويًّا، فجفلتُ وكدت أوقع الركوة من يدي. لن أُجيب. ألحَّ الرنين. لا رغبة لي في الكلام. سأعتبر أنِّي لم أسمعه. لا بدَّ وأنَّهما التوأمان. تمكَّنتُ منهما إذ أوهمتُهما أنَّ سمعي قد خفَّ كثيرًا، وأنِّي أكون أحيانًا في الشرفة، أو في الجانب الآخر من الشقَّة، فلا يبلغني رنين الهاتف الموضوع في المدخل. أبَحْتُ لنفسي أخيرًا أداء الدور الذي أتمنَّى، أن أكون شبه صمَّاء. فحاسَّة السمع، من بين الحواسِّ الخمس تبقى الأقلَّ تسبُّبًا بالأضرار، طالما لا أخرج كثيرًا ويمكنني قضاء أيَّام من دون محادثة. خطر لي التذرُّع بضعف البصر، صحيح، لكن سرعان ما تراجعت عنه وإن كنتُ أحبُّ في بعض الأحيان المشي في الشقَّة مغمضة العينَيْن عند انقطاع الكهرباء. لا تُرعبني العتمة ولا تزعجني، بل إنَّها حتى على ما تبدَّى بعد مراس، تشحذ حواسِّي وتسنِّنها. ثم إنَّ ادِّعاء ضعف البصر، كان سيعقِّد حياتي ويحرمني حرِّيَّتي. فالتوأمان يقلقان، وإذا قلق التوأمان، أُصيبا بهستيريا إصدار الأوامر:

ـ اذهبي إلى الدكتور داود، اليوم، فورًا، الآن!

ويُلحَّان ويُكرِّران ويُنذران ويهدِّدان بالاتِّصال به، فأرضخ وأُقسم لهما أنِّي سأفعل، مخافة أن يكلِّفاه بزيارتي في البيت، مراهنةً على انهماكهما لاحقًا في مشاغلهما الكثيرة ونسيانهما الأمر. أراحني ادِّعائي قصورًا في السمع، وقد لاحظت مع تقدُّمي في السنّ، أنَّ أذنيَّ كبرتا كأذنيْ حمار، وقوي سمعي مع انتشار العتمة الشاملة في بيروت. لستُ واثقةً من وجود رابطٍ بين الأمرَيْن، لكن هذا ما صار، حتى صرتُ أسمع طبقةً صوتيَّةً عميقةً

لم أكن أبلغها من قبل، وقد تبدَّى لي أنَّ بيروت نفسها تصيخ السمع في العتمة، وأنَّها على درب أن تصبح عمياء تتلمَّس طريقها، في الليل كما في النهار، وأنَّ الجنون الذي أصابها شكلٌ من أشكال عماها ذاك. والحال أنَّ ما يجري في البلاد قد لاءمني تمامًا، ربَّما لحتميَّة اقترابي من حافَّة النهاية، وتناغمي مع عديد النهايات المتكاثرة من حولي. فليس سهلًا على من يُقبل على الموت، أن يعيش في مدينةٍ مُقبلةٍ على الحياة، والعكس صحيح، لا؟

بلدٌ مجنون، عالمٌ مجنون! وأنا هنا، في أعلى منارتي، أقف على حافَّة نهاية حياتي مستمتعةً بانكماش النور وتضاؤله في فضاء هذه البقعة الملعونة. وإذ أجول بنظري ليلًا على الجبال القريبة تلتمع أضواؤها الخافتة في الظلمة كأعين حشراتٍ صغيرة، أفكِّر أنَّه كان ثمَّة جمالٌ كثيرٌ في هذي البلاد، جمالٌ صارخٌ حدَّ الأذيَّة، حدَّ الفجور، لدرجةٍ أغضبت إلٰهًا ما فقام بمسخه أو بإنزال لعنةٍ أزليَّةٍ به. وأفكِّر، حينما أستذكر كتاب العهد القديم، وهو من الكتب القليلة التي كنت أُعيد قراءتها، زمن كنتُ أقرأ، أُفكِّر أنَّ إلٰهه بالذات، ذاك الغضوب، المنتقم، القاسي، هو من فاز وربح المعركة ضدَّ الآلهة الأخرى، فتسيَّد علينا نحن البشر، ومسخنا كائناتٍ تتوق إلى الانتقام والتدمير والقتل وشرب الدماء. وإن أُصِخ السَّمْعَ جيِّدًا في بعض الليالي المقمرة وأحبس أنفاسي، أسمع أنفاسَ البعض، همساتهم، نتفَ سعال، وجملًا مبتورةً تسرح من أفواههم، كما تسرح رغوةٌ من فمٍ مسموم. فكلُّ ما يتشرَّبونه خلال النهار من ذلٍّ ومهانةٍ وقهرٍ وضنك، وكلُّ ما

يرتكبونه من قسوةٍ تجاه بعضهم البعض، لا بدَّ أن يتحوَّل في الليل مادَّةً صفراء تُسمِّم أرواحَهم وتفور في أحشائهم، وتخرج من ثقوب أجسادهم وفتحاتها. . .

سُمُّ اللانيت! شربه المسكين ربيع في كوب ليموناضة أعدَّته له زوجته بالغة الشقار، قبل أن تخرج وأطفالها والخادمة في زيارةٍ للجيران. أغلقت الباب بالمفتاح لأنَّها لم تُرد له أن يخرج، مُقفلةً في وجهه كلَّ احتمالٍ للنجاة. شرب منتعشًا ودخل يستحمّ، ثم راح يجعر ويتخبَّط في الدش كَثَوْرٍ مهتاجٍ وقد بدأت أحشاؤه تحترق بالنار. لم يصمد طويلًا، توفِّي في سيَّارة الإسعاف، ولم يطُل الوقت قبل أن يقبضوا عليها، بعد انتهاء مراسم الدفن والعزاء التي شاركت فيها لثلاثة أيَّام، أرملةً مفجوعةً يعاضدها الناس ويقدِّمون إليها العزاء. هي الخادمة السيريلانكيَّة مَنْ أخبرت والدَ الضحيَّة أنَّها لمحت سيِّدتها تدسُّ لربيع شيئًا في الكوب. يومان، وأُخرجت الجثَّة من القبر وأظهر التحقيقُ أنَّ السيِّدة قد اشترت السمَّ من صيدليَّةٍ في الجوار. سمُّ جرذان قيل في البداية، لكنَّ التشريح أظهر أنَّه سمُّ «لانيت» الشهير، المستخدم في الزراعة مبيدًا للحشرات. تنشُّقُه بكمِّيَّاتٍ قليلةٍ يسبِّبُ صداعًا مفاجئًا، غثيانًا وتقيُّوءًا وانخفاضًا في نبضات القلب. لكنَّ تناوله بكمِّيَّةٍ يسبِّب شللًا في عضلات الجهاز التنفُّسيّ، وانخفاضًا في الضغط، ومشكلةً في النطق. هذا ما حدث لربيع الثلاثينيِّ الجميل كقلب النهار. قتلته زوجتُه الشقراء بهذه البساطة، من دون أن تجزع أو تكلِّف نفسها عناء التفكير بخطَّةٍ مُحكمة، أو التوجُّه إلى صيدليَّةٍ بعيدة. استسهلت واستقربت وراحت إلى القتل كمن يقوم بفعلٍ

اعتياديّ، بنزهة، وكانت أمًّا لطفلَيْن، ولم يكن زوجها ظالمًا كما قد يخطر للبعض، بل مغرمًا ويُغدق عليها كما قيل. ولكن، أتقتل امرأةٌ رجلَها فقط طمعًا بالمال، حتى ولو كانت شقراء بالصباغ؟ لا بدَّ أنَّ لديها دافعًا ما، جرحًا غائرًا، سرًّا. إلَّا أنَّ التحقيق لم يُظهر أيًّا من هذي الأسباب.

كنَّا قد باشرنا ذلك الانزلاق المخيف نحو انهيارٍ تجلَّى في فترة الهدنة والرخاء التي حلَّت إثر توقُّف الحرب في بداية التسعينيَّات. كانت تباشير الانهيار تسري تحت أقدامنا كالمياه الساكتة، ولم نُدرك الأمر إلَّا بعد بَلَلِنا التامّ. كثرةُ دائنين بفوائد مرتفعة، وشيكاتٍ من غير رصيد، وسجونٍ ملأى بأنواعٍ جديدةٍ من المحتالين اللاهثين خلف الارتقاء الاجتماعيّ وصائدي الرغد والرخاء السريعَيْن. وبالفعل، كان يكفي أن أسترجع منظر الزوجة بالغة الشقار في مراسم الدفن بأظافرها الطويلة الحمراء، وكعبها الشاهق الذي لا يتماشى وحزن أرملةٍ مفجوعة، مقارنةً بردِّ فعل والد القتيل وحمايته لها من أيِّ انتقام برغم اكتشافه الحقيقة، حتى أفهم أنَّه ليس فعل امرأةٍ مقموعةً، مُهانة، تتعرَّض للتعنيف والضرب. كانت ببساطةٍ تريد إزاحةَ مَن ضَمنَ لها ارتقاءً اجتماعيًّا ورغدًا ماديًّا غير مأمولَيْن، لتنعم بثروته وحيدة. كانت أشبه بكاريكاتور قاتلٍ ركَّب له دماغُه الصغير جدًّا خطَّةً لا ترقى إلى شرِّه الكبير. بل إنَّها حتى لم تكلِّف نفسَها عناء التفكير، خطر لها القتلُ كما يخطر لآخرين تغيير موضع الأثاث أو نزع مسمارٍ من الحائط، فقامت ببساطةٍ وأنهتْه. ليس التعرُّض للأذى هو دومًا ما يدفع إلى ارتكاب جريمة. بل ربَّما كنَّا جميعًا احتمالات قتَلة،

لكنَّ قلَّةً هي من تُقدِم على الفعل، إذ يبدو لها فعلًا بسيطًا وفي المتناوَل. هؤلاء يعتبرون الآخرَ مجرَّد كتلةٍ أو مجسَّم تنبغي إزاحته من الدرب، وهم بهذا لا يرون القتلَ إنهاءً لحياةٍ بكامل مكوِّناتها وتفاصيلها. مقدرةٌ فطريَّةٌ على القتل تنام في كلٍّ منَّا، يوقظها القتلةُ من سُباتها، فيما تتصرَّف الأكثريَّةُ بموجب اتِّفاق: لا أقتلك ولا تقتلني! الأبرياء؟ هم فقط من لا تستيقظ فيهم رغبةُ القتل!

عواء الإنترفون! ياه، هذا حتمًا يوسف. كان الاتِّصال من التوأَمَيْن، وقد سألاه بالطبع أن يتفقَّدني. يخشيان إصابتي بمكروه، كأن أكون قد وقعتُ أو تُوفِّيت. صبيةً، أنا أيضًا كنتُ أنظر إلى عمَّتي الكبيرة ولا أفهم انهماكها وتخطيطها لمهامٍّ قادمةٍ مثل تغيير أغطية الكنبات، أو طلاء الجدران، أو تبديل بعض الحنفيَّات. ولكنَّكِ ستموتين، أقول في سرِّي، أنسيتِ أم أنَّك تتناسين؟ اليوم، وأنا في السنِّ التي تعدو سنَّها آنذاك، أراني وقد نسيتُ مثلها، فلا يشغلني الموتُ بمعنى أنِّي لا أخشاه ولا أتمنَّاه، وقد غادرني من غادر وقُتل من قُتل ولم يبقَ على رحيلي سوى وقتٍ معدود، وهذا على عكس ما كنتُ عليه في صباي، حين كان رفيقي الذي أتفكَّر به باستمرار. حتى قدومُ ولديَّ إلى العالم، لم ينقذني من حضوره الدائم أو يصالحني معه. فجُلَّ ما كنت أتمنَّاه، هو أن أموت قبلهما، إذ كنت كثيرًا ما أحلم بهما مقتولَيْن أو متوفِّيَيْن، أكثر ممَّا ينبغي لأمٍّ أن ترى أو تحلم بأطفالها موتى.

رنَّ جرس الباب. قادمة، يا يوسف!

أرسلت صوتي باتِّجاه المدخل، بعد أن وضعت ركوة القهوة من يدي وألقيتُ عليها الصحن الصغير ليحفظ سخونتها.

المسكين! صار علبة بريدٍ بيني وبين التوأَمَيْن. يكلِّفانه بشتَّى أنواع المهامّ، ويرسلانه ليتأكَّدا أنَّ جسدي ما زال نابضًا ولستُ في حالة تحلُّلٍ واهتراء. لا أردُّ على اتِّصالاتهما دومًا، فيُذعرا ويخافا. أنا على يقينٍ أنَّهما لن يتركا أشغالهما ويقطعا كلَّ تلك المسافة الطويلة ليودعاني القبر. الأغلب أن يكلِّفا الدكتور داود أو حتى يوسف بدفني. هذا لا يحزنني البتَّة، بل إنِّي أجده عادلًا كوني أشعر بالإحراج حيال اهتمامهما المفرط بي، فأنا لست أهلًا كأمٍّ ولا أستحقّ.

مشيتُ الخطوات القليلة التي تفصل المطبخ عن مدخل الشقَّة، ثم وقفت. نظرت في المرآة التي تستقبل الزوَّار ما إن يلجوا العتبة. زوَّارٌ افتراضيُّون إذ لم يعد يزورني أحد. ما عادة وضع مرآةٍ في مداخل البيوت؟ أمن أجل إضفاء اتِّساعٍ كاذبٍ على فسحةٍ ليست بذلك الاتِّساع، أم للتأكُّد سريعًا من أنَّ منظرنا كمضيفين لم يزل بشريًّا ولن يُفاجئ من يقف خلف الباب؟ صحيحٌ أنَّ المرايا تكسر الجدران وتخفِّف من صَمَمِها بأن تصنع فيها ثغراتٍ ومنافذ، لكنِّي لا أحبُّ المرايا عامَّةً وأتفادى النظر إليها. باستثناء هذه، بسبب قدمها وغبش مائها وشحِّ النور الذي تعكسه.

يوسف يتحرَّك فاقد الصبر خلف الباب. لديه مهامٌّ أخرى تنتظره. بإمكانه أن يكتفي بسماع صوتي، لكنَّه لن يغادر ما لم أفتح. وأنا لا أفتح وأجعله ينتظر، علَّه يغيِّر سلوكه في مرَّةٍ قادمة. استدرتُ وجمدت في مواجهة الباب. التوأمان، يخشاهما. يجب أن يؤكِّد لهما أنَّه رآني وأنِّي بخير. بإمكانه أن يكذب، لكنَّ يوسف لا يكذب ولا يريد خسارة ما يعود عليه جرَّاء اهتمامه بي.

ـ ستّ مي؟

طرقٌ خفيفٌ على الباب. لقد فقد صبره المسكين وهو يحتسب ما يحتسبه التوأمان من دقائق صعوده، قرعه الجرس، وانتظاره خطواتي المتثاقلة حتى أفتح ليطرح عليَّ سؤاله التافه المعتاد: هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟ وفي كلِّ مرَّةٍ أعِدُ نفسي أنِّي لن أردَّ ذات يوم، ولا حتى على قرع مُسعفي الصليب الأحمر عندما سيُستدعون. سأبقى جالسةً دونما حراك، على الكنبة البيضاء المطلَّة على المدخل، أتوقَّع أحداث السيناريو حتى لحظة خلعهم الباب ودخولهم لإيجادي جامدةً في مكاني، مثل قردٍ فوق شجرة، يأكل الموز ويرمي القشور. أنا، سوف أضع القطَّة في حضني، أملِّس على ظهرها حتى تنهار عاطفيًّا وتستكين. وفي لحظة الحسم، أرفعها عاليًا وأقذفها في وجوههم!

عاد يوسف يطرق الباب بوتيرةٍ أعلى، فشققتُ الباب وظهرت له فجأةً وأجبت بصوتي المتهاوي الذي بدأ يميل صوب صوت رجل: نعم، خير؟ مركِّزةً نظري على النقطة الواقعة بين حاجبَيْه، تلك التي يُقال إنَّها، إذا ما ثبَّت عينَيْك فيها، تسبَّبت بزعزعة الآخر ودكِّ عموده الفقريّ. رآني يوسف على هذه الشاكلة، فتراجع إلى الخلف مرفرفًا بجفنَيْه، وقبل أن يفتح فاه ليطرح عليَّ سؤاله المعتاد، عاجلته بالقول كمجيبٍ صوتيٍّ يُكرِّر الجملة نفسها:

ـ شكرًا يوسف، أنا بخير ولا أحتاج شيئًا، يمكنك الانصراف..

ثم، قبل أن أغلق الباب تمامًا، خطرت لي فكرة، فأعدتُ شقَّه على مداه وبدَّلت نبرتي 180 درجة، وقلت مبتسمةً على غير عادتي:

ـ هل تخرج إلى الشرفة لو سمحت، وتتفقَّد القطَّة؟ أنا لم أرها منذ الصباح وأخشى أن تكون قد انزلقت من بين قضبان الدرابزون.

أسرع يوسف وقد دبَّ في أوصاله ذعرٌ إذ هُيِّئ له أنَّ المسكينة سقطت من الطابق التاسع وتهشَّم جسدها على الأسفلت. وما هي إلَّا لحظات، حتى رجع باسمًا ملء شدقَيْه ورافعًا كأس فوزه بين ذراعَيْه، فسارعتُ أومئ له بيدي أن أَعِدْها في الفور إلى مكانها، قبل أن يتناثر وبرُها في الجوّ. امتثل يوسف طائعًا ومشى على أطراف أصابعه فوق السجَّاد، وكأنَّ الملاحظة وُجِّهت له، وحين أدخل القطَّة قفصها، ودلف باتِّجاه الباب، شكرته وأنا أشعر بغبطة من أفرغ مثانة عقله واستراح.

سمعتُ المصعد يصل ويوسف يلجه. المسكين، يدفع ثمن مزاجي السيِّئ وثمن قلق ولديَّ وإن كانا يكافئانه على طمأنتهما. ولكن، هل يقلق ولداي فعلًا عليّ؟ هل يقلقان خوفًا ومحبَّة،أو يقلقان واجبًا ومسؤوليَّة؟ ثمَّة فرق. هما في حياتَيْهما البعيدتين اللتين تجريان من دوني منذ عقود، لكنِّي تَرْكَتُهما الثقيلة من والدهما الحبيب الذي قطفه الموتُ قبل الأوان. لو بقي حيًّا، لكانت لي فرصةٌ ربَّما في إصلاح ما أفسدتُه، ولو من دون قصد. لا أدري إن كنت جادَّةً في هذا، وقد أرسلتُهما راضيةً إلى تلك القارَّة البعيدة حيث تعلَّما وتزوَّجا وأنجبا واستقرَّا. والحقيقة، لقد

دعواني أكثر من مرَّة، لكنِّي لم أنوِ أن أزورهما أبدًا. حتى عندما كانا طالبَيْن، اكتفيتُ بإرسال المال الذي تركه لهما والدُهما، فكنتُ أنا أيضًا علبة بريدٍ لا أكثر، بين القدمَيْن والولدَيْن.

ألستُ أحبُّهما؟ أسأل نفسي هذا السؤال ولا أدري له جوابًا حاسمًا، شافيًا، كأن أُجيب بنعمٍ أو لا. أحيانًا أفكِّر أنَّ مخزوني من الحبِّ كان قد نفد قبل ولادتهما، أو أنَّني أنا من وُلدت بقلبٍ يشكو عطبًا في التصنيع، أو أنَّ الحبَّ كما يعرفه الناس ويزاولونه، لم يُعطَ لي. في مطلق الحال، كان الوقت قد فات على سؤالٍ لست أدري إن كان يشغلهما أصلًا. أذكر أنَّ التوأم الأكبر صرخ فيَّ ذات مرَّة: ماما، أنتِ كاكا! وكان يقصد بلغته الطفوليَّة: أنت خراء، في حين اعترض أخوه وراح يبكي: نو كاكا ماما، لا! جاء أبوهما مسرعًا ووجدني متسمِّرةً من الرعب أمامهما، فحملهما معًا وأخرجهما. بعد لحظاتٍ عاد، وقال: لا تهتمِّي، عندما يكبران سيفهمان، فرفعتُ رأسي إليه مرتجفة، فارتبك وصحَّح: سأشرح وأُفهمهما. أتُفْهِمُ جريحًا جرحَه؟ فكَّرت، وهل خفَّف أبدًا كلامٌ أَلَمَ جُرْح؟ من حسن حظِّهما أنَّهما استغنيا عنِّي باكرًا، فحميا نفسَيْهما وحمياني. صغيرَيْن، كنت أخافهما، ربَّما لأنَّهما اثنان. أخاف وأشعر أنَّهما، إذا أدركا أنَّهما خرجا منِّي، فقد يريدان العودة إلى جوفي والبقاء هناك. لا أدري كيف أصف شعوري حيالهما، ولا أدري بالدرجة نفسها إن كان قد تبدَّل فعلًا، وفي العمق. جاءا وكنت فارغة، خاوية، ولم أفهم يومًا أين نموا وبِمَ تغذَّيا، وكنتُ أشبه بتربةٍ جدباء لا تُنبت إلَّا الأسى. تصلني حركتهما ويُربكني وجودهما إذ يؤكِّد لي أنَّ الحياة

ما زالت، برغم هجرها لي، جاريةً في مكانٍ ما، وأنَّهما يريانني، على غير ما يراني أبوهما، طفلةً كريهةً لا تُجيد اللعب، دميةً معطَّلةً يجدر رميها إلى سلَّة المهملات. أجل، كانا اثنَيْن في مساءلتي ومشاهدة عجزي وعطالتي، ومعهما، كنتُ أنا التي لا تُحتمل، مضروبةً باثنَيْن!

حين عزما على السفر إلى أميركا، لم أعترض. وجدته قرارًا عاقلًا، عادلًا، حتميًّا. صمتُّ لبرهة، ثم هززتُ رأسي كمن تمعَّن في قلبه منتظرًا منه خلجة، ردَّ فعلٍ لم يأتِ. وكأنَّ مجيئهما إلى العالم كان تمرينًا على حلول لحظة الفراق هذه، وهي قد جاءت الآن. كأنَّهما حلَّا في حياتي مستأجرَيْن، وقد انتهت مدَّة العقد بيننا، وآن أوان انتقالهما. كنتُ أعرف أنَّ الذاهبين إلى أميركا يضيعون في ثنايا حياتهم الجديدة ولا يعودون. كنتُ أعرف أنَّ دوري في المسرحيَّة التي تُدعى الأمومة قد انتهى، وبعد قليلٍ سيُسدل الستار ويغادر الجميع وتُطفأ الأنوار. ومع ذلك، فقد اصطحبتهما إلى المطار كمن يقوم بقيادة سيَّارةٍ لا علاقة له بركَّابها. طوال الطريق، بقيتُ ساهمةً وأنا أتفكَّر في شعوري هذا الذي فاجأتني درجةُ برودته، لا برودته بالذات، وعزوتُ الأمر لكوني لم أُسَمِّهما. فمَن لا يَخْلُق، لا يُسَمِّي، وأبوهما هو الذي فعل وحيدًا، وبهذا يكون قد خلقهما وحيدًا. أنا ما زلت في داخلي أدعوهما التوأمَيْن، وقلَّما فرَّقت بينهما. أنا أعرف من الذي خرج قبل الأوَّل، فقط لأنَّه أطول بقليل، أمَّا بقيَّة الفروقات، فلا أتبيَّن منها الكثير.

في المطار تركتهما، وكأنَّ باب الدهر أُغلق عليهما. وفي

طريق عودتي إلى البيت، أنزلتُ دمعتَيْن. لا أقول إنِّي بكيتُ، فالدمع ليس متَّصلًا دومًا بالبكاء، والبكاء قد يأتي من دون دمع. أنزلت دمعتَيْن لا أعرف من أين خرجتا. كأنَّها أمطرت عليّ. ثم فكَّرت أنَّهما نتيجة إحساسٍ هائلٍ بالتعب. تعبٌ انتظرتُه طويلًا وقد اهتدى أخيرًا إليّ، فوجد ما يكفي من مكانٍ ليمدِّد أطرافه في داخلي، يستلقي ويرتاح.

telegram @
yasmeenbook

منتصف النهار. في مثل هذه الساعة، تعلو الشمس وتنحرف لتقابل شرفتي مباشرة، فتوجِّه خراطيم نيرانها إلى زجاج الصالون، ومنه إلى الأثاث والسجَّاد. حتى صيفًا، أنا لا أرفع السجَّاد وأبقي بيتي وأثاثي على حاله في كلِّ الفصول، كسلًا، وإنَّما أيضًا مقاوَمةً لكلِّ تغيير. تدور الفصول في الخارج، تتبدَّل المواسم، تشتعل الحروب، تزول الكهرباء، تنفجر المدينة، يجري الوقت إلى الوراء، يخرب ما يخرب، ويحصل ما يحصل، ويسوء ما يسوء، لا يهمّ. فهنا، في جزيرتي المرتفعة، لا يتبدَّل مناخ، ولا تسوء أحوال، ولا تحدث انفجارات، ولا تضطرب أوضاع. هنا، في هذا الداخل الذي لي، لا بدَّ من ثباتٍ وسويَّةٍ وانتظام.

ذهبت إلى المطبخ وأنا أفكِّر بالكمِّيَّة الفاجرة التي تدلقها الشمسُ على الجهة الشرقيَّة ويسيئني أن أتركها تفعل، فأواجهها بإنزال الستائر الخارجيَّة حتى النصف، وبحصر النور في بقعةٍ

محدَّدةٍ لا تتجاوز بضع بلاطاتٍ بيضاء تعكس الضوء إلى الداخل، وتُعفي من ضرورة إشعال النور. وهناك، وأنا أفكِّر بما جئت أفعله، تساءلت: هل سأبقى متقلِّبة المزاج هكذا بسبب فكرةٍ سخيفةٍ هاجمتني اليوم؟ لقد بلغتُ الرابعة والثمانين وما زلت في زاويةٍ من عقلي، طفلةً ساذجة تخلط أثر كوابيسها الليليَّة بأحداث يوميَّاتها، محوِّلةً ما رأته في مناماتها إلى علكةٍ تمضغها طوال النهار. فلو أغضبني أمرٌ أو أحزنني في الحلم، استمرَّ معي شعوري ذاك لأيَّام وانعكس حتى على علاقتي بمن سبَّب لي الضيق. يسألني أبي إن رآني عابسةً أو غاضبةً في الصباح: هه، من ضايقك ليل أمس لأبرحه ضربًا؟ فأُجيبه بابتسامةٍ وبهزَّةٍ من رأسي تطمئنانه على مقدرتي على التمييز بين الواقع والخيال. لكن في العمق، وبرغم إدراكي أنَّها محض أحلام، يستمرُّ شعوري بالضيق. يرفعني أبي ويضعني على بلاطة الرخام البيضاء التي تعلو الدريسوار لكي يُلهيني عن مناماتي، فأبقى أمام مرآتها الكبيرة أحيك حواراتٍ وأؤلِّف مسرحيَّات، وأحيانًا أُخاطب نفسي وأُلاعبها وأؤدِّي القصص التي في الكتب أو في التلفاز. كنت أرى الطفلةَ التي أمامي وكأنَّها أخرى منفصلةٌ عنِّي، رفيقةَ لعبٍ ومُشاهِدةً لعروضٍ أبتكرُها، وفي أحيانٍ خصمةً تستحقُّ التشويه بما يقع تحت يديّ.

بكيتُ ذات يومٍ وقلت لأبي شاكيةً إنَّها ما عادت تصغي إليَّ وترفض اللّعب معي، بل وإنَّها خرجت من المرآة واختفت. ينظر أبي إليّ، ثم إلى المرآة، ولا يدري بِمَ يجيب. يخاف أن ينبس بحرف، ويضحملُّ شبحُ الابتسامة على شفتَيْه حين يرى جدِّيَّة

مأساتي ومدى قهري، فيخشى أن يُخطئ في الردِّ ويُسيء الفهم والتوجيه، فيضيف صدمةً ثانيةً على صدمةٍ أولى خَلَّفَها مرضُ أمِّي ثم وفاتُها. المسكين، لطالما تآكله الذنبُ وهو في هذا، كان شَبَه زوجي المرحوم. ذُعِر أبي ممَّا قلته له عن فتاة المرآة، فسأل واستقصى واستفسر، ثم اطمأنَّ عندما قيل له إنَّ الأطفال يخترعون أصدقاء وهميِّين يغادرونهم حينما يكبرون. ولم تكن تلك حالي، فصورتي التي في المرآة اختفت، ما عدتُ أراها أو أراني، لا أعرف، كأنَّ شيئًا في داخلي صُمَّ أو بُتر. كنت كمن يؤدِّي دورًا في مسرحيَّة، ثم فجأةً أُنيرت الأضواء وتوقَّف العرض.

الواحدة ظهرًا! ومع ذلك لا رغبة لي في الأكل. لا أظنُّها أكواب القهوة الثلاثة التي تناولتُها تباعًا منذ استفاقتي في الصباح الباكر ما قطع قابليَّتي، ولا هو أيضًا استيائي من قطَّةٍ ما زلت أنظر إليها باعتبارها دخيلةً برغم مرور أكثر من عامَيْن على وجودها معي، لكنَّه حتمًا وجهُ تلك المرأة التي لم أتبيَّن ملامحها جيِّدًا، وقد دستُ عليه فجأةً مثل علكةٍ ذائبةٍ علقت في نعل حذائي ولا أعرف كيف أنزعها عنه. وقفت أمام البرَّاد شاردة الذهن ورحتُ أتفكَّر ما الذي أردتُ جلبه منه. نسيانات صغيرةٌ كهذه لا ينبغي أن تقلقني، بل إنِّي أجدها في بعض الأحيان مثل طائراتٍ صغيرةٍ ترفعني، مخفِّفةً ثقلَ الوقت ومحدوديَّة المكان. عصا سحريَّةٌ تضرب رأسَ الزمن، فيتلعثم ويتعثَّر قبل أن يستأنف سيره المعتاد.

رفوف البرَّاد ملأى بما تعدُّه لي جنِّيَّتي الصغيرة، شاميلي، من أصناف الطعام. في الثلَّاجة أيضًا مشاريع وجباتٍ يكفي إخراجها

ووضعها على الغاز أو في المايكروويف لتتفتَّق روائحُها وتُسيل اللعاب. لكن شهيَّتي مسدودةٌ ولن أفتحها عنوة. «لا ترغمنها على الأكل»، يقول أبي مستاءً حين يأتي لاصطحابي من عند عمَّاتي بعد أن أكون قد أصررتُ على النوم عندهنّ، مساء السبت غالبًا، لأنَّ الغد يوم أحدٍ ويمكنني السهر قدر ما شئت. تعلك جدَّتي كلماتها مشتكيةً أنَّ ساقيَّ أشبه بعودَيْن رفيعَيْن وأنِّي لا آكل كفايتي ولا يجوز تركي هكذا نحيلةً، عرضةً للأمراض لا سمح الله. وهي بذلك تشير ضمنًا إلى مرض والدتي وخوفها من أن أُصاب بدائها اللعين. تهدِّئ عمَّتي الصغرى، وداد، والدي قبل أن يحتدَّ النقاش، وتأخذني من يدي وهي تنظر بعبوسٍ إلى جدَّتي بما معناه أن كفِّي عن الكلام واتركي البنت في حالها. عمَّتي وداد هي الأقرب إلى قلبي، ربَّما لأنَّها الصغرى، الأخريان، نبيهة وزكيَّة أحبُّهما أيضًا، لكنِّي أشعر بهما كبيرتَيْن جدًّا عليّ. فالأولى أرملةٌ كانت قد أجهضت الطفل الوحيد الذي حملت به، وعادت للعيش في بيت أهلها. وبما أنَّها تقبض تقاعد زوجها وتمسك بجزءٍ أساسيٍّ من المصروف، فهي التي تدير شؤون البيت وتتحكَّم بالقرارات. والثانية، ليست على هذا القدر من الذكاء، لكن طيبتها وعشقها لأشغال الصوف والكروشيه والتطريز، جعلاها تصبح مرجعًا في الموضوع، تستشيرها الجارات ويوصينها على أشغالٍ صارت تقبض ثمنها، ما جعلها تتفلَّت قليلًا من سطوة نبيهة عليها لأنَّها هي أيضًا، باتت تصرف على البيت. ثم إنَّ ودادًا ما زالت «تحت نصيبها»، كما أسمعهنَّ يقلن.

أين هو نصيبها؟ أسأل، وأنا أنظر إلى فوق، فتضحك وداد

البشوشة دومًا، القريبة من والدي والتي جَلَدها كبيرٌ عليّ، فلا تؤنِّبني أو تحاسبني مهما فعلتُ. ألعب وإيَّاها في صناعة عرائس من القماش، «وبيت بيوت»، وأحيانًا بعد رجاءٍ وإلحاح، تقبل أن تُنزل الشنطة السرِّيَّة من على ظهر الخزانة، ملفوفةً بشرشفٍ من الخامّ، لتريني قطع جهازها الثمين الذي جمعته قطعةً قطعة: بياضاتٍ مطروزةً ومشغولةً بالآجور على أطرافها، ملابس شفَّافةً للنوم حمراء وزهريَّة، ثيابًا داخليَّةً مزيَّنة بالدانتيل، فساتين ما زالت بأكياس النيلون، خفَّيْن بكعبَيْن مرتفعَيْن وريشٍ أزرق، وبيجاما رجَّاليَّةً فوقها خفَّان من القماشة نفسها. لمن هذه؟ أسأل عمَّتي، فتجيبني شبه غائبة: للعريس! وأين هو العريس، يا عمَّتي؟ أستفسر، فتنظر إليَّ بعينَيْن ساهمتَيْن يشعُّ ماؤهما فجأة: طار يا حبيبتي، العريس طار. هذه الحقيبة بكلِّ ما فيها، ستكون لك عندما تتزوَّجين! وأفرح وأركض أعانقها، ثم أشعر بحزنٍ حين أتخيَّل عريس عمَّتي وداد بجناحَيْن كبيرَيْن ينبتان فجأةً في ظهره ويرفعانه بعيدًا، ويخطر لي أن أسألها لماذا لم تتشبَّث بقدمَيْه، أو لِمَ لم تعانقه ليأخذها معه إلى هناك، خلف الجبال، ثم أصلِّي من كلِّ قلبي أن يأتي عريسٌ آخر لا يُجيد الطيران لوداد التي، برغم بشاشتها، يلوح دومًا خلف ابتسامتها أسى ما.

أغلقتُ باب البرَّاد بعد أن حسمتُ أمر الغداء، فطالعتني الرزنامة التي إلى يمينه. مددتُ يدي ونزعتُ منها ورقةَ الأمس، فظهرت الأربعاء، فنزعتها هي أيضًا سلفًا لأنِّي لا أحبُّها. ثمَّة أيَّامٌ أشعرها آمنةً وأخرى غادرة، وعلى رأسها آنفة الذكر. وجودها في الوسط منفردةً هو ما يرغمها على المخاتلة ربَّما. فالسبت يتَّسق

والأحد، والخميس مع الجمعة، وكذلك الاثنَيْن مع الثلاثاء. أمَّا الأربعاء، فتقف حائرةً في أمرها، وحيدة، وسط أيَّام الأسبوع، لا يكلِّمها ولا يلعب معها أحد. يرفعني أبي إليها معلَّقةً على جدار المطبخ، لأنزعها، ثم يحذِّرني رافعًا إصبعه: ورقةٌ واحدة، يا مي! ثم يأخذها من يدي ويقرأ ما كُتب على قفاها من وصفات طعام أو حكم يستطلع فيها حظَّه خلال النهار. في ما عدا أسماء الأيَّام، أنا لاً أولي التواريخ بالفعل اهتمامًا. الثلاثاء مثلًا، أجده لطيفًا بشكلٍ عامّ، فلا هو اثنَيْن بداية الأسبوع المتثاقلة ولا اللعين الأربعاء. لستُ أدري لمَ أنا أكثر ميلًا إلى ما يلي الأربعاء ويسبق الاثنَيْن. قضيَّة مزاجٍ ربَّما، أو هي البدايات التي ما استمالتني أبدًا، كأن تأتي عملًا للمرَّة الأولى، أو ترتدي قطعة ملابس جديدة. ما كان يشريه والدي لي، كان يجلس في الخزانة لأسابيع، وأحيانًا لشهور، قبل أن أُقرِّر التعامل معه. هكذا كنت وما زلت، لكن تقدُّمي في العمر زاد الطين بلَّة، فالعجائز بصفةٍ عامَّةٍ لا يحبُّون الجديد، بل ما تَلِفَ مثلهم واعتادوه. العتيق أنيسٌ ومطواع، أمَّا الجديد فقاسٍ وعدوانيّ.

منذ صغري، وأنا أحبُّ الرزنامات، وما زلت أمينةً لها أقتنيها كلَّ عام. الساعات على ميوعةٍ لا تعدو تذكيرنا بالليل والنهار، أمَّا الزمن الفعليّ، الزمن الدسم السميك آسر الحضور، فلا يحيا إلَّا في الرزنامات. أقف أمامها كمن يقف أمام نافذةٍ تُدعى الوقت، وأشعر حين أنزع عنها ورقتها الأخيرة في نهاية العام، أنَّها شجرةٌ تعرَّت، لكنَّها سوف تخضرُّ وتينع من جديد. كُثُرٌ يدقُّون بابي في بداية العام، بعد أن صارت الرزنامة حجَّةً لما يشبه

التسوُّل بشرف. يقول الطارق ادفعي ما تريدين، أو هذه رزنامة القدِّيس فلان حماك وعائلتك من الشرّ، أو نحن جمعيَّةٌ خيريَّةٌ تُعنى بالأيتام... وإذ تُفضِّل عمَّاتي رزنامات مار جرجس لأنَّه يُدعى الخضر ويحظى باحترام جاراتهنَّ من الطوائف الأخرى، كنَّ لا يرمين صوره التي تكوَّمت بالعشرات خوفًا من أن يثرن غضبه، بل يقصصن الصورة ويوزِّعنها، أو يحتفظن بها معلَّقةً أو مخفيَّةً في دُرجٍ ما. والحقيقة، يسعدني أن أقتني ما لا أحتاجه عمليًّا، وذلك برغم نسياناتي الصغيرة التي طمأنني دكتور داود إلى أنَّها اعتياديَّةٌ لا تُنذر بسوء. فأنا ما زلت في كامل وعيي، ممتلكةً حواسِّي ووظائفي، بذاكرةٍ أبقيتُها متماسكةً برغم كلِّ ما اعتراها من ثقوب. ذلك أنَّ من يسيطر على ذاكرته، يكسب معركةَ الحياة ضدَّ عثِّ النسيان، ومن يضيِّعها، يتحوَّل ملاكًا صغيرًا بأجنحةٍ بيضاء، يلهو ويبول... على نفسه. الذاكرة هي للروح، كما الكبد للجسد، مركزُ معالجة كلِّ السموم وطردها منه.

يوم ذهبت لزيارته وأفضيت له بقلقي وبرغبتي بإخضاع دماغي لتصويرٍ بالرنين المغناطيسيّ، سألني داود قلقًا:

ـ ما مدى خطورة نسياناتك تلك؟

ـ أنا أُدرك تمامًا كلَّ ما حولي، لكن بتُّ أحيانًا أنسى ما جئت أفعل في هذه الغرفة أو تلك، أو أرى غرضًا أو وجهًا أعرفه، لا يأتيني اسمه بسهولة.

ـ مي، أنت قطعت علاقاتك الاجتماعيَّة كلَّها، توقَّفت عن أيِّ نشاطٍ ذهنيّ، وبالكاد تخرجين.

يُقال إنَّنا، نحن البشر، نولد تحت نجمةٍ ما تسود دفاترَ حيواتنا. إذ كان ذلك صحيحًا، فنجمتي أنا قد ضلَّت طريقها إليّ، أو أنَّها انطفأت وأبقت دفترَ حياتي فارغًا دونما خطوط، لسبع سنواتٍ على الأقلّ. ومع ذلك، لحسن الحظّ، ثمَّة ذكرياتٌ مترسِّخةٌ تومض مثل إشارات سيْرٍ تحدِّد الوجهة وتُرشدني إلى من أكون. أتعرَّف إليها، لكنِّي لا أعمد إلى ربطها بتواريخ. يحدث أن يشذّ بعضُها فيحملني إلى أمكنةٍ أجهلها أو أقفلتُ عليها وأضعتُ مفاتيحها. بمرور الوقت، تضحي الذاكرة سلَّةً مخرَّمةً لا يصمد فيها إلَّا القليل، أو هي أجسامٌ عالقةٌ في خيوط نسيجها منذ زمن، انتفى حضورُها تدريجيًّا وذابت في الديكور. ذاكرةٌ بيضاء كبياض الكهولة، هذا ما يؤول إليه معظمُنا إن أطالوا البقاء، لأنَّ درب الشيخوخة محوٌ وإفراغٌ مستمرَّيْن، إلى أن يضمر الجِلدُ ويلتصق بالعظام وتُلتغى المساحةُ حيث تتخالط الحياة بالمياه والدهون. أجل، التقدُّم في الكهولة أشبه بعمليَّة شفط، امتصاصٍ وإفراغٍ حتى الامِّحاء...

رميتُ يوم الأربعاء في مستوعب النفايات، ثم رفعت الكيسَ البلاستيكيَّ وربطته بشريطه وأخرجتُه إلى شرفة المطبخ، وعدت لأغسل يديّ. كم هرمتا! يداي اللتان لم تتبقَّعا ببقعٍ ودوائرَ صغيرةٍ بنِّيَّةٍ تسم أيدي العجائز عامَّة، سبقتاني إلى الشيخوخة بكثيرٍ حين جعلتا تتقلَّصان وتُبرزان جِلدًا جافًّا وخطوطًا نافرةً زرقاء. كأنَّهما كانتا تكبران وحيدَتَيْن، دون سائر أعضائي. يتناول أبي صابونة الزيت الكبيرة ويروح يفركهما، ثم ينظر إليَّ ضاحكا: هل دلقتِ المحبرةَ كلَّها عليكِ؟ أسمعه يسأل شقيقاته على الهاتف عن كيفيَّة

إزالة بقع الحبر الأزرق عن مريولي المدرسيّ. «سكابولار»، كنَّا نُسمِّيه، وكان أشبه بثوبٍ من دون كمَّيْن مفتوحٍ على الجانبَيْن، نُدخله من الرأس ونقفله من الجهتَيْن برباطٍ أو بزرَّيْن ما يلبث أن يطير أحدهما، ليتمَّ استبداله بآخر قلَّما تشابه مع أخيه. أزرق رماديّ، ينقعه أبي في المغسلة ويأمرني أن لا أفتح الحنفيَّة مهما كان، وأن أغسل يديَّ إن اضطُررت، استثنائيًّا فوق المجلى. وإذ تُعلمه عمَّتي نبيهة أنَّ بقع الحبر تستعصي على أمهر النساء وعلى كافَّة موادِّ الغسل والتنظيف، وتُعيد زكيَّة الملاحظة نفسها مضيفةً أنْ لا بأس، لأنَّها حال كلِّ المراييل المدرسيَّة، لا يقتنع ولا ييأس، بل يبقى يجرِّب موادَّ ومساحيق لا أدري من أين يأتي بوصفاتها: خلًّا أبيض وبيكربونات الصودا، حامضَ الليمون ومعجون أسنان، وأخيرًا ماء الجافيل الذي أذهبَ بقعَ الحبر آتيًا بما هو أشنع منها، وهو ما جعله في النهاية يصغي إلى عمَّتي وداد فيشتري لي مريولًا جديدًا، مستسلمًا لاحتمال تلوُّثه هو أيضًا بالحبر.

سبقتني يداي إلى الكهولة بعد أن أفلتتهما يدا أمِّي قبل الأوان، فأمسكهما أبي وراح يفركهما بصابون الزيت، مضيفًا حنوَّ مراهم الفازلين ودفء كفَّيْه، علَّه يشفيني من بقع اليُتم الزرقاء. ذاكرتي قماشةٌ مهلهلةٌ ملأى بثقوبٍ لم يُحدثها العمرُ، بل يداي هاتان اللّتان لم تُدركا يومًا كيف تتخلَّصان ممَّا يبقِّع روحي، أغطِّي وجهي بها فيلتقي بؤبؤاي بثقوبٍ أرى عبرها هذه الصورة أو تلك. أحيانًا تكون رائحةٌ تائهةٌ هي ما يُحرِّك في رأسي أمواجًا هادئةً تروح تتدافع ببطءٍ باتِّجاه شاطئ ذاكرتي حيث أستلقي. زاوية

الشرفة الفسيحة التي أخرج إليها عندما تلفُّني العتمةُ، تُشعرني أنِّي أقف على ناصية سفينةٍ تعبر عبابَ بحرٍ ميِّتٍ لا أثر لحياةٍ فيه. أنا على شرفة الرابعة والثمانين، أتأمَّل حياتي من علٍ فلا أشعر بندم ولا أحزن على فوات شيء، لا أشتاق أحدًا ولا أمل أو أتوقَّع أنَّ يحدث أمرٌ، باستثناء الموت. لستُ أنتظره بالفعل، إذ لمَ يكون انتظارٌ وأنا على يقينٍ أنَّه قادمٌ لا محالة. ثمَّة أمورٌ أُدرك أنَّ عليَّ إتمامها، لكنِّي أؤجِّلها بطيش، كأن أوضِّب أوراقي، خزائني، وتفاصيل أخرى تجعل لحظاتي الأخيرة أخفَّ حملًا، ورحلتي أقلَّ فوضى، فأكون كمن هيَّأ نفسه سلفًا واستعدّ. هذا إذا كانت بالفعل رحلة، ولم تكن مجرَّد هنيهة انتفاء، مجرَّد فقاعةٍ تزول ولا تُخلف أثرًا.

في بعض الأحيان، وفيما أنا أطفو على طبقة الرقاد الأولى، أي قبل أن يتراخى جسدي ويَثقُلَ هُدباي وأهبط جثَّةً هامدةً إلى قاع النوم، أفكِّر أنِّي قد لا أستفيق وأنَّه ربَّما أوانُ نومي الأبديّ. تأتيني الفكرة خفيفةً مثل ريشةٍ صغيرةٍ تحطُّ على جبيني، أو نسمةٍ رقيقةٍ تتغلغل داخل خلاياي. ويخطر لي أنَّه يكفي أن أُبقي عينيَّ مغمضتَيْن وأن أوقفَ نفسي، لأكون قد متّ. ثمَّة من يقرِّرون أن يذهبوا إلى الموت طواعيةً، أسمع البعض يردِّد، ذلك أنَّهم فقدوا الرغبة في مواصلة العيش. أنا لا أعرفها تلك الرغبة، ومع ذلك فقد عشت. كان الهنود الحمر عندما يعجِّزون، يحملون بقجةً صغيرةً فيها زادٌ قليلٌ ويصعدون إلى قمَّة جبلٍ لملاقاة الموت وأرواح الأسلاف. هل كانوا يُدركون أنَّ وقتهم قد انتهى على هذه الأرض، أم كانوا يقرِّرون ساعة رحيلهم؟ ولماذا الجبل بالذات،

ألأنَّه أقرب إلى حيث يقيم ملاك الموت؟ أنا لا أؤمن بالملائكة، ولا أؤمن بالجحيم، وأكاد أقول إنِّي لا أؤمن بشيء، وجلُّ أمنيتي هي أن أحيا كفِجلةٍ أو كلب.

كلَّها خواطر تعبر رأسي كما تعبر السماءَ أسرابُ حَمَام. لكن، يبقى السؤال: أأتناول طعام الغداء والساعة تجاوزت الثانية، أم أترك شهيَّتي غاربةً على هواها، على أن أعود فألتقيها على العشاء؟

أيَّامٌ مرَّت، ملساء من غير نتوءات، والزائرة التي رشح وجهُها عنوةً من الماضي على ما أظنّ، لم تكُ أكثر من ذرَّة غبارٍ أفلتت من مكنسة الذاكرة. وإذن، لا ثقوب في مركبي، بل نسياناتٌ بسيطةٌ أشبه بمِزَقٍ صغيرةٍ لا تستحقُّ الانتباه.

بلَّلتُ إصبعي بلعابي وكالمعتاد، قبل تناول فطوري، نزعت من الرزنامة ورقة يوم الجمعة، حريصةً على عدم انتزاع ورقتَيْن متلاصقتَيْن، فظَهَر السبت. هو يومُ زُحل ويوم شاميلي، جنِّيَّتي الصغيرة التي لا تشبهه في شيء. سوف تصل بعد قليلٍ لتمضي النهار كلَّه برفقتي، وتُغادرني مساءً على أطراف أصابعها، فلا أشعر أنَّها تعدَّت على يومٍ آخر أو قضمت جزءًا منه. هي وحدها من فهمتْ أنِّي لا أحتملُ وجود دخيلٍ في بيتي، شاميلي العذبة التي، مثل حبَّة سكَّرٍ تذوب تحت اللسان وتمنحك شعورًا بِخَدَرٍ لذيذ، الخفيفة مثل فراشةٍ تنتقل برشاقةٍ فوق أسطح الأشياء، فلا

يُسمع لها صوتٌ ولا تُلحظ لها حركة. هي وحدها التي لاءمتني من بين كلِّ اللاتي جرَّبتُهنَّ من قبل وكنتُ كفيلةً برميهنَّ من الطابق التاسع. كان يجب أن أفاوض التوأمَيْن بشراسة، مرارًا وتكرارًا، كي يقتنعا أنِّي لا أحتاج أحدًا، فلا يفرضا عليَّ إرادتهما باستقدام خادمة ـ «مُساعِدة منزليَّة»! على ما صحَّح لي ولداي الحضاريَّان ـ تقاسمني فضاءً لا أحتمل حتى وجود ذبابةٍ فيه.

لا! قلتُها واضحةً حاسمةً وأقفلتُ الخطّ. لا ثم لا! أعدتُها في كلِّ مرَّةٍ طردتُ فيها صاحب أو صاحبةَ مكتبٍ لاستقدام العاملات المنزليَّات ومن كنَّ يأتين إليَّ لاختبارهنّ. يتصرَّف التوأمان وكأنَّهما قادران على تحريك أمور حياتي من بعيد، وكأنَّهما جالسان أمام لوحةٍ إلكترونيَّةٍ في معملهما يوزِّعان بواسطة أزرارها أوامرَهما، وكأنَّهما وليَّا أمري.

إلى أن جاءت جيزال بثدييْها المدلوقين إلى الخارج وأساورها الكثيرة الرنَّانة التي تقلق أذنيَّ كلَّما حرَّكت معصمَيْها والتي، برغم حمرة شعرها المستفزَّة وأزيائها المفتعلة، لها قلبٌ مشعورٌ كما الزجاج. إذ هل تحتاج امرأةٌ كلَّ هذا الصخب في مظهرها، لو كان رجلُها ينظر إليها بالفعل؟ وبالفعل، كانت سيِّدةً متزوِّجةً وأمًّا لثلاثة أولادٍ صغيرهم رضيع، وعلى قلقٍ يمنع ابتسامتها من الصمود على وجهها أكثر من ثوان. المهمّ، بعد رواحٍ ومجيء، ومجيءٍ ورواح، رقَّ قلبي لها، فدعوتُها إلى الجلوس وشرحتُ لها أسبابَ رفضي استقدام خادمة، فكان أن فهمت سريعًا وفاجأتني حين لم تكترث لخسارة عمولةٍ بالعُملة الخضراء وعدها بها التوأمان. قالت، وهي تهزّ رأسها بجدِّيَّةٍ بالغةٍ كمن وجد أخيرًا

الحلَّ السحريّ: شاميلي! جرِّبيها وسترين! وجرَّبت ورأيتُ! إلى درجة أنِّي قبلتُ حضورها يومًا كاملًا، السبت، يوم استحمامي الطويل، ويوم الطبيخ الذي تعدُّه لي تقريبًا لأسبوع، ويوم التنظيف الذي تنهار من بعده قتيلةً، فيما أشعر أنا، على عكسها، أنَّ كلَّ ما فيَّ من خلاياي قد تجدَّد. صرت أحبُّ الروائح التي تخلِّفها فيَّ وفي المطبخ والبيت، والنظافةَ التي تجعلني أشعر أنَّ الشمس أشرقت للتوّ، وأنَّ تلك الساحرة الصغيرة السمراء، أعادت ترتيب دواخلي، نفضت عنها الغبار، مسحت آثار البصمات المتَّسخة العابثة، لمَّعتني وألبستني جِلدًا جديدًا.

دار المفتاح في القفل، فاستعددتُ لظهورها بأن وضعت ابتسامةً خفيفةً على محيَّاي ووقفت في باب الصالون. لا أحبُّها أن تدخل عليَّ فلا أكون مستعدَّة، أو أن أبدو غافلةً عن موعد حضورها. يجب أن تعرف، أنِّي سيِّدة البيت، متيقِّظةٌ ومتنبِّهةٌ لكلِّ أمر.

ـ أهلًا شاميلي!

واستدرتُ أمشي أمامها لتتبعني إلى حيث أريدها أن تضع أغراضها وتبدأ عملها. هي تفضِّل أن تبدأ بي، وما يتبقَّى أمامها من مهامّ، توزِّعه على مزاجها: أنا أوَّلًا، ثم طعامي، وأخيرًا البيت. هذا هو ترتيب سلَّم أولويَّاتها، بحسب ما وضعته لها جيزال. تحميمي، ثم إلباسي، ثم اصطحابي إلى الشرفة إذا كان الطقس دافئًا لأخذ حمَّام شمس، أو إلى غرفة الجلوس إذا كان باردًا غائمًا، لكي تنصرف هي من ثم إلى مهامِّها الأخرى، من دون إضاعة وقتٍ في الردِّ على اتِّصال، أو في محادثتي حتى. إذا رحتُ

إلى غرفة الجلوس، أطلب أن تناولني مجلَّةً قديمة أو كتابًا أوهمها أنِّي أقرأه، وذلك برغم إقلاعي عن هذه العادة بعد أن صارت القراءة تجلب إليَّ النعاس في أوقاتٍ غير محبَّبة، وصرت لا أذهب إليها إلَّا ليلًا، في ساعات الأرق المستعصية التي تستفحل أحيانًا مثل داءٍ لا أعرف له علاجًا. أعود إلى «العهد القديم» وقصصه، دون سائر كتبي كلِّها، لأنَّ رأسي ملآن بما يكفي ولا يحتاج أن أثقل عليه بجديد. غابت شاميلي دقائق، ثم عادت.

ـ لقد جهَّزتُ الحمَّام، مدام.

أحبُّ أن تُناديني مدام، لكنِّي لا أحبُّ الاستحمام. نحن العجزة لا نحبُّ الاغتسال لأنَّه يُعرِّينا ويُرينا ما آلت إليه أعضاؤنا من خراب، يفضحنا ويُظهر عجزنا عن استخدام أطرافنا، رفعها لبلوغ مواضع الوسخ، أو حتى لالتقاط غرضٍ ما. الأوساخ تتكاثر مع الشيخوخة وتنتشر في الأنف والشرايين، تحت الأظافر وما بين الأصابع، في زوايا العينَيْن وداخل الأذنَيْن وما خلفهما. تتكثَّف تلك القشرة القميئة التي تغطِّي الجلد وتجعله يبدو سميكًا وكأنَّه لسمكة، لتمساح. لذا ترانا لا نحبُّ الاغتسال ولا أن تعبث أيدٍ غريبةٌ بأعضائنا. نكره الطقسَ البغيض هذا كلَّه، من أوَّله إلى آخره، ماءً وصابونًا وبردًا وحرارة، كأنَّ ثمَّة من ينقلنا من غرفة جهنَّم الخلفيَّة، إلى غرفةٍ مثلَّجة، وبالعكس.

إلى أن ظهرت شاميلي! أمسكتني من ذراعي برفقٍ وهي تبتسم ليس لي فقط، بل للعالم بأسره وما فيه، ثم أدخلتني الحمَّام حيث أضاءت شمعةً برائحة الورد جلبَتْها معها. أجلستني على كرسيِّ الحمَّام بعد أن ألقت عليه منشفةً سميكةً دافئةً وقتني شرَّ برودة

البلاستيك الكريه، حلَّت كعكة شعري الرماديِّ الطويل، وإذ أحسَّت في لحظةٍ أنِّي ارتجفتُ لمرور قشعريرة، سارعتْ إلى حنفيَّة الماء الساخن ففتحتها في رشَّاشة الدشِّ كي يُدفِّئ بخارُها المكان، فيما راحت تملأ بها دلوًا ستستعمله لنقع قدميَّ استعدادًا لكشطهما. أخذتِ المشط وجعلت تسرِّح شعري وهي تدندن لي، كما لو كنَّا أختَيْن جالستَيْن على حافَّة نهر، نستمتع بما يُحيط بنا من هدأةٍ وجمال.

«ماهيتا لاغاما داماتينا، هورو باماكا بالاتينا...».

غنَّت لي بلغتها السنهاليَّة الرنَّانة، فشعرت أنِّي أذوب بلا اعتراضٍ بين يدَيْها الطريَّتَيْن. تجمَّعت الدموع في عينيّ، ولم تكن من حُرقةٍ أو شجن، ثم هبطت على يديَّ المستلقيتَيْن على فخذيَّ العاريَيْن. لم يوقفها ذلك عن الغناء، ولا غيَّر رتابة حركة المشط في يدها، كأنَّما كانت دموعي أمرًا طبيعيًّا لا يستدعي سؤالًا أو ردَّ فعل. لا أعرف لِمَ بكيتُ يومها، لكن لطالما استدعى الصوتُ الجميل دموعي. حتى طفلة، حين كنتُ أسمع أغنيةً جميلة، كنت أقلب شفتيَّ فجأةً وتنزل دموعي حارَّة، قبل أن أطلب إيقاف الغناء. هكذا كنت أفعل أيضًا حين كان أبي يضع يده على أذنه، ويغنِّي: «أنا والعذاب وهواك»... كان له صوتٌ يفتِّت الصخر، نديًّا ودافئًا ويقطر حنانًا، وكنتُ أحبُّ وأخشى الاستماعَ إليه، إذ كان يعبث بقلبي وتوجعني الغصَّة التي أحاول كبتها، كحجرٍ يقف في مجرى الدمع، إلى أن يدفعها الماء المنفجر من مقلتيّ. لِمَ البكاء حين يمسُّ شيءٌ ما شِغافَ القلب؟ ولمَ لا يكون بالأحرى ضحكًا وشعورًا بالخفَّة؟ هكذا بكيتُ بين يدي شاميلي، وقد

اشتقتُ ربَّما وجود أبي، أو أمًّا لم أشبع منها لأنَّها توفَّت قبل الأوان. كنتُ في المدرسة، وقد جعلوني أعتقد لأيَّام، أنَّها دخلت المستشفى لأمرٍ طارئٍ إنَّما بسيط، وأنَّها لن تلبث أن تعود. على عكس أبي، يجب أن أجهد لاستعادة ملامحها بفعل السنوات. عاشت أيَّامها الأخيرة بأحشاءٍ مهترئةٍ التهمها السرطان، ولم أكن قد شبعتُ من حنانها قبل مرضها حتى، لأنَّها كانت يتيمةً لم يعلِّمها أهلٌ أصولَ الحبِّ والعناق، فإذا بنا جيلان من أمَّهاتٍ مرجآتٍ بأموماتٍ منقوصة. مثلها، كنتُ أمًّا معطوبةً امتنعتْ أمومُتها عنها، ذلك أنَّ الأمومة لا تكون بالإنجاب فقط. هنالك أمَّهاتٌ لم يُنجبن أطفالًا، وشاميلي واحدةٌ منهنَّ.

أشعلت شاميلي النور، ثم طوت المنشفة السميكة وراحت تخلع ملابسي قبل أن تجلسني فوقها برفق. أزعج صوت الماء المتدفِّق قويًّا أذنيّ، لا بأس، دقيقةٌ على الأكثر وأتخلَّص منه. وضعت شاميلي يدها في الدلو تجسُّ حرارة الماء، ثم رفعت قدميَّ ووضعتهما فيه. تحتاجان نقعًا، قبل أن تعمد إلى حفِّهما وتقليم أظافرهما، بعد تجفيفي وإلباسي. أتساءل أحيانًا هل كانت حياتي لتكون مختلفةً لو أنَّ التوأمَيْن جاءا بنتَيْن؟ كنتُ، لسببٍ غير منطقيّ، أرى الرجال قليلي الشعر آباءً لإناث، فيما يلد المُشعِرون ذكورًا. زوجي كذَّب نظريَّتي وأتاني بدل الذكر باثنَيْن. أجل، هو الذي أتى بهما دفعةً واحدةً ليعفيني حتمًا من مهمَّة الإنجاب ثانية. كان ذا بشرةٍ ناعمةٍ ملساء وكان ضروريًّا أن يكون هكذا كي لا يفيض رجولةً بجواري، في مظهره على الأقلّ، وأن يكون رائق الحضور، هادئًا مسالمًا، كما كان بالضبط. ثمَّة أشياء في شاميلي

تُذكِّرني به. هي أيضًا قبلتُ وجودَها معي، ولم يُشعرني ذلك بتعدّ، بنفورٍ أو اضطراب. ومثله هو، كانت شاميلي تتقبَّل الأشياء كما تكون، فلا تسأل ولا تستاء. كنتُ أراها ترقبني كما أرقب أنا حيوانًا، دونما حبٍّ أو نفور. وحين بكيتُ بين يدَيْها في المرَّة الأولى، لم تعتبر بكائي ضعفًا أو استنجادًا، بل وجهةً رافقتني إليها بهدوء. فكَّت شاميلي كعكة شعري وراحت تسرِّحه على مهل، ثم فتحت رشَّاشة الدشِّ على ساقيَّ لتتأكَّد من أنَّ سخونة الماء مناسبة، ثم صعودًا على بقيَّة الأعضاء. لم تقرب الرأس، تتركه للنهاية لأنَّ البرد يأتي منه. المصائبُ كلّها تأتي من الرأس.

روى أبي عن رجلٍ يُدعى داهش ذاع صيتُه في الأربعينيَّات والخمسينيَّات. قال إنَّه دخل حانوت حلَّاقٍ في بيروت واستودعه رأسه ليرتِّبه ويحلقه، على أن يعود بعد ساعةٍ لاسترداده. أخبرني تلك القصَّة في أثناء اصطحابي إلى المدرسة. كان يغطِّي غيابَ أمِّي ويُتمي بأن يروي لي أخبارًا عجيبةً يريد لها أن تُدهشني، قبل أن يرميني بابتسامةٍ وحركة رأسٍ تتحرَّى ردَّ فعلي. كنتُ أفتح فاهي مندهشة، ثم أبتسم له بدوري إذ كنت أفهم وأنا ابنة السبع سنوات، أنَّه يحتاج أن أطمئنه بتجاوزي محنة رحيل أمِّي. كان يُحزنني أن أدرك هشاشته وارتباكه في تدبير أمور أمومةٍ مستجدَّةٍ عليه، هو الذي لم يُرد، برغم إصرار جدَّتي وعمَّاتي الثلاث على تربيتي، أن يُسلِّم الأمرَ لهنّ، أو أن تأتي زوجةٌ ثانيةٌ تؤدِّي هي دور الأمّ. كان يفعل كلَّ ما يترتَّب على ربَّة بيتٍ أن تفعله، يطبخ ويدرِّس، يحمل إلى المدرسة وينزِّه ويحكي قصصًا، وأحيانًا يغنِّي ويرقص. يرتدي أحد أحذية أمِّي ذات الكعب المرتفع تستوعب

بالكاد نصف قدمه، ثم يصرُّ المنشفة كالهرم فوق رأسه، ويتبختر أمامي كما لو كان امرأة. يقلِّد بعض الجارات فأفقع ضحكًا وتصير معدتي تؤلمني وأصير أرجوه أن يتوقَّف. كنت لا أعرف لِمَ يصرُّ على إخباري عن داهش ومعجزاته التي تتحدَّث عنها بيروت قاطبة، وربَّما خال أنَّها تستهويني كما تستهويه، فراح يروي كيف أنبت الرجلُ شجرةَ برتقالٍ في سجنٍ أكل ثمرَها معتقلون معه، أو كيف أمات عصافير في قفصٍ ثم عاد فأحياها. حتى إنَّه مرَّةً أراني صورة الرجل في الصحيفة، حين جرؤت وشكَّكت في ما يقول بعد أن أخبرتني جدَّتي أنَّها قصصٌ خرافيَّةٌ حرامٌ أن أصدِّقها وأنَّها خزعبلات. إلى أن مررتُ بمكان سكن داهش ذاك وكنت قد صرت طالبةً في الجامعة، وأشارت رفيقتي إلى عمارةٍ في منطقة زقاق البلاط، وقالت وهي تخطو مسرعةً لتجاوز المكان: هذا بيته! رفعتُ نظري ورأيت شرفةً بقناطر وعلى الشرفة يقف رأسٌ مقطوع! سَرَت في جسدي قشعريرة، فركضت خلفها صارخةً حتى اجتزنا المكان. وكم تمنَّيت لاحقًا أن أنزع رأسي، مثلما فعل داهش وأتخفَّف منه، فقد كان ثقيلًا ومصدر أفكارٍ مسمومةٍ تتوالد وتتدافع على مدار النهار، فلا تهدأ حتى بعد خلودي إلى النوم، بل تستمرُّ تدور مثل دولابٍ يحرِّكه الهواء، مثل محرِّك آلةٍ لا يعرف كيف يهمد.

دلقت شاميلي الماء أخيرًا على رأسي، بعد أن مرَّرت الصابون على جسمي وشطفته، ثم جاءت بكفٍّ صغيرٍ فركت به الجلد في مواضعه الخشنة، حتى تفتَّتت تلك القشرة القميئة جزيئاتٍ صغيرةً باهتة اللون التصقت بالكفّ. حفلة شطفٍ جديدة،

ثم صابونٌ ينزلق فرحًا فوق الجلد اللامع النظيف، كما تتزحلق راقصةٌ بارعةٌ فوق الجليد. ياه! يا لرائحة الورد وشذى الصابون وتفتُّح خلاياي وتشبُّعها بأوكسجين النظافة الذي يبعث فيها الحياة.

ـ أرجعي رأسك إلى الخلف، مدام!

وانسكب الماء غزيرًا على شعري. هكذا كان يأمرني أبي أن أفعل، يضع كفَّه الكبيرة على جبيني الصغير، فلا ينزل الماء إلى وجهي ولا يدخل الصابون في عينيّ. ربّما وجب أن أستبدل مغطسي بدشّ، فكَّرت. هناك ما يكفي من المساحة لتبليط الأرض ووضع فاصلٍ زجاجيّ. ولِمَ أفعل ذلك وأنا على عتبة الرحيل؟ سخنَ الماءُ فجأة، فأصدرت صوتًا ورمشتُ بعينيَّ لتخفِّف شاميلي السخونة، لكنَّها أغلقت رشَّاشة الدشّ، عصرت شعري برفق، ثم فلشت المنشفة الكبيرة الزرقاء. منذ مدَّةٍ وأنا أتضاءل، أصغُر وأضمر، حتى صرت بحجم ابنة عشر سنواتٍ ولها بطن حوت!

شعرت بتعبٍ تسلَّل إليّ، وأزَّت ركبتي اليمنى كمفصلٍ صدئ، فيما كانت شاميلي تساعدني على الوقوف. لفَّتني بالمنشفة العملاقة وراحت تفركني برفق. يدثِّرني والدي ويرفعني من الحمَّام إلى السرير مباشرةً. أوه، صرتِ وردةً فوَّاحة تُفرح القلبَ! يقول، قبل أن يقرِّب أنفَه ويروح يتشمَّمني، وأنا أحاول التملُّص، صارخةً مُقهقِهة. قلبُ أبي لم يعد هنا ليغلِّفني كما كان يفعل، قلبُ أبي الحزين المصاب أبدًا بالفقد.

ليتك شاميلي كنت هنا، لتدندني له.

أطرافي باردة. هي تبرد حتى في الحرّ.

فركت يديَّ وفكَّرت بارتداء جورَبَيْن قطنيَّيْن. يجب أن أعمل بنصيحة توأميَّ اللذين يذكِّرانني دومًا بضرورة التحرُّك ولو بضع خطوات، لأنَّهما يعرفان كسلي وميلي التلقائيَّ إلى الجلوس والبقاء حبيسة الجدران. وإذ يشعران أنِّي لا أُقيم لكلامهما وزنًا، يُضيفان بنبرةٍ لا تخلو من تحذير، أنِّي أُجازف بصحَّتي وبتخثُّرالدماء في أطرافي. «يو هاف تو ووك، مام»! غريبٌ كيف اكتسبا تلك اللكنة وكيف صارت عربيَّتهما أشبه بعربةٍ مخلَّعة. يهاتفانني، فأتخيَّلهما في الطرف المقابل من الكرة الأرضيَّة، في سروالَيْن قصيرَيْن يُبرزان كرشَيْن ضخمَيْن، واقفَيْن في حديقةٍ خلفيَّةٍ يشويان تلالًا من الهوت دوغ واللحم، ويشربان براميل من البيرة. يُضحكني الأمر وأجدني على رذالةٍ ولؤم، لأنِّي في الحقيقة لا أعرف عنهما الكثير، وأجهل ذوقَيْهما في الأكل أو عاداتهما

وهواياتهما. آخر ما أذكره عنهما فعلًا، بخلاف الصور القليلة التي يرسلانها في المناسبات وأضعها في علبةٍ مركونةٍ أسفل الخزانة، هو وقوفهما معًا أمام موظَّف أمن المطار وهما يمدَّان إليه جوازَيْهما. كنتُ قد وقفتُ أنتظر أن يلتفتا إليَّ واستعددتُ لتلويحتهما الأخيرة قبل أن يغيبا عن ناظريّ، لكنَّهما لم يفعلا. وضع الكبير ساعدَه على كتف الصغير وشدَّه إليه. أقول الكبير عن الذي خرج منِّي قبل الآخر بثوانٍ، وكان أكبر حجمًا من أخيه. حتى بين التوائم المتطابقَيْن، ثمَّة من هو أكبر وأصغر، أقوى وأضعف. تقدَّما متساندَيْن ولم يستديرا لتوديعي، فوعيتُ لحظتها أنَّهما، هما أيضًا، لطالما شعرا باليُتم!

قمتُ ودخلتُ الصالون. لم أتلفَّت حولي متوجِّسة، لأنِّي كنت قد تيقَّنت من ماهيَّة ما ظهر منذ أيَّام: أضغاث ذكرياتٍ قديمةٍ ممحوَّةٍ وقد انبثقت فجأة، ثم اختفت مثلما جاءت، فأنا لا يشغلني سوى أمرٍ أوحدٍ وحيد: أن لا يجد دودُ الخَرَف طريقه إلى عقلي، وما عدا ذلك، كلُّ شيءٍ مقبول. أخال دماغي ثمرةً مصيرها الاهتراء، يتكاثر الدود في قلبها ويبدأ بقضمها من الداخل. جيوشٌ مليونيَّةٌ من الدود تعمل على محو كلِّ ما فيه. من دونه نحن لا شيء، قوالب فارغةٌ بلا محتوى، هدير طبول. أجسادنا أيضًا، ثمار الحياة، يأكلها الدود. كلُّ حيٍّ ينتهي غذاءً له، أمَّا الجماد فلا خوف عليه. هل أنَّ قدر كلِّ الكائنات الاهتراء والدخول في مملكة تلك المخلوقات الصغيرة اللزجة الصغيرة التي تتغذَّى على كلِّ هشٍّ وزائل؟ لم يخرف أبي، مات قبل أوانه، وعمَّاتي عجَّزن خلال غيبتي، ولم أعرف عن نهاياتهنَّ الكثير.

وحدها جدَّتي في صغري أضاعت البوصلة وصارت تسأل باستمرار عمَّا أتى بها إلى هذا المكان الغريب، وتطالبنا بإرجاعها إلى بيتها. لنأخذها إلى أهلها، أقول لأبي وأنا على وشك البكاء، فيبتسم لي قائلًا إنَّ أهلها ماتوا وأنَّ هذا هو بيتها منذ دائمًا. أمسكها من يدها وأقول لها: أنا معك تيتا، لا تخافي، فتنظر إليَّ مبتسمةً وتسأل ككلِّ مرَّة: وأنتِ من تكونين؟ ألتفت إلى أبي مرتبكةً وأُجيبها مشيرةً إليه: أنا ابنته، وهذا أبي ابنك، فتهزُّ رأسها منزعجة: لا، هو أبي أنا! كان مخيفًا وغريبًا جدًّا أن ترجع جدَّتي طفلةً لا يعدو عمرها بضع سنواتٍ وألَّا تتذكَّر سوى ماضيها السحيق ذاك. كلُّ ما عاشته لاحقًا، فعلته، أحسَّته، تعلَّمته، مُحي بطرفة عَيْن. سقط تاريخها بأكمله من وعاء رأسها إلى هاويةٍ سحيقةٍ لا يُعرف لها قرار.

وقفتُ أنظر من الباب الزجاجيِّ إلى نواحي الشرفة. ليست هنا. غريبٌ أمرها هذه القطَّة، توقَّفت فجأةً عن الممالأة والاستعطاف، ولم تعد تلاقيني مسرعةً حين تلحظ حركتي، فتموء متراقصةً أمامي، متوسِّلةً مستعطفة. عامان، ولم تيأسي. لا بدَّ وأنَّه الأمل.. أو النكران.. وفي مطلق الحال، هما توأمان ألعن من بعضَيْهما. ألصقتُ وجهي بالزجاج وتلفَّتُّ يمنةً ويسرى، أين أنت، لا أراك. ربَّما كانت مختبئةً من الشمس خلف أصيص النبات. لا بأس، لديها ما تحتاج وأنا لستُ من ضمن القائمة. أنزلتُ الستائر كالعادة درءًا لفحولة الضوء، وخطر لي أنَّ النور بات يزداد حدَّةً، نكايةً بعتمتنا. حربٌ إضافيَّةٌ بين نورٍ فاجرٍ لا يُحتمل، وظلمةٍ شاملةٍ تزداد ضراوةً يومًا بعد يوم. قَدَرُ مدينةٍ

تخلَّعت أوصالها، بين وضوحٍ مقرفٍ وعتمةٍ قميئة.

غادرتُ الصالون إلى الجهة المعاكسة من الشقَّة. ياه! هنا المناخ أفضل بكثير. أجل، في شقَّتي مناخان، الجهة الشرقيَّة التي أرودها قبل الظهر وفيها الشرفة والصالون والمطبخ، والجهة الغربيَّة وفيها غرف النوم وبيت الخلاء حيث أدخل لأختلي بنفسي أحيانًا، برغم خلوِّ البيت نهائيًّا من ساكنيه. أحبُّها هذه الحجرة الصغيرة حيث لا ضوء ولا منفذ، باستثناء كوَّةٍ صغيرةٍ تطلُّ على مَنْوَرٍ لا يُنير لأنَّه مسوَّرٌ بالجدران. أدخل ولا أُشعل النور، ثم أغلق الباب خلفي لأنعم بظلمةٍ تامَّة. كأنَّني داخل رحم. أهتدي إلى الكرسيّ، أرفع غطاءه وأجلس لأُفرغ ما في أحشائي ورأسي معًا. أغمض عينيّ. ثم أفتحهما. الأمر سيَّان. لا أرى شيئًا. لا أسمع شيئًا. أنا في مركبةٍ فضائيَّةٍ بحجمي، سابحةً في نقاء السواد، في صفاء العدم. الجاذبيَّة معدومةٌ وأنا أطفو حرَّة، غائبةً ومطفأة. كان بإمكاني البقاء تحت طاولة، أيِّ طاولة، لساعات. أحيانًا أطالب أبي بأن ينصب لي خيمةً بواسطة الأغطية، لكنَّ مائدة الطعام الكبيرة كانت المفضَّلة لديّ، إذ يتدلَّى شرشفُها حاجبًا إيَّاي وحاجبًا الرؤية، فيما تسوِّرني أرجلُ كراسيها الكثيرة مانعةً العبور إليّ. أنا في قصرٍ منيع، يُحيط بي سورٌ محكمٌ يصدُّ ويحمي في آن. أبي كان يراه سجنًا، فينحني ليسألني: من يكون سجَّانك اللعين لأقضي عليه! غريبٌ كيف تختلف طبيعة الأشياء باختلاف زاوية النظر إليها. لقد عشت مدَّةً طويلةً في سجنٍ ولم أفطن إلى أنَّه سجن. ألم أقل إنَّ الأمل، كما النكران، هما أصل كلِّ بلاء؟

قمتُ أقف عن كرسيِّ الحمَّام، فأصابني دُوار. عدتُ أجلس وآخذ نَفَسًا عميقًا، ثم نَفَسًا آخر لثلاث مرَّاتٍ متتالية، فازدادت دوختي. أغلقتُ عينيّ. هي ساعات نومي التي لا تني تتناقص، أو أنَّها عطالتي وقد توقَّفتُ عن ممارسة كلّ هوايةٍ أو نشاط، وتركت لنفسي أن تعيش مثل... قطّ. في زمنٍ مضى، ما كنتُ أرومه كان أن أحيا مثل حيوانٍ أليف، قانعة، هانئة، تغطِّي الحراشف جلدي أو يكسوه وبر، أُدجَّن فلا أضطرُّ أن أقلق لتأمين غذاء، أو أن أهرب درءًا لهجوم. وددتُ لو أكون قردةً فوق غصن شجرةٍ في محميَّةٍ طبيعيَّة، لبؤةً تتمطَّى في الشمس وهي تلهو بقطعة لحمٍ مضطجعة في العشب، طيرًا مبسوط الجناحَيْن تسنده الريحُ فلا يضطرُّ إلى تحريك جناحَيْه، ذبابةً مستريحةً تنظِّف قوائمها فوق الزجاج، شجرةً جذورها مغروسةٌ في التراب الرطب الدافئ، تلاعب غصونَها نسائمُ منعشةٌ فترتعش لامعةً تحت أشعَّة الشمس... أنا الآن شجرةٌ متوازنةٌ ثابتة، أتنفَّس برتابةٍ وعمق، لا أفكِّر برئة صديقتي التي التهمها السرطان ولم يشخِّصوا مرضَها إلَّا بعد فوات الأوان، لا أفكِّر بتلك الزائرة التي نبتت فجأةً في رأسي، ولا أفكِّر بسنوات غيبتي السبع وما سبقها من احتراق. رئتاي مفتوحتان ونَفَسي العميق يبلغ أقصى أقاصي أطرافي...

ذهب الدُوار، قمت وأشعلت النور، ثم وقفت أغسل يديَّ تحت المياه الباردة، فركتهما بيديْ أبي ونظراته المتبسِّمة دومًا. لا أرفع نظري إلى المرآة فوق المغسلة. ما عدت أنظر إلى نفسي في مرايا ما أمنتُها يومًا لأنَّ ما تعكسه دائمًا مجرَّد وهم. المرايا لا تُرينا ما نحن عليه، بل ما نريد أن نراه فيها. ثمَّة فرق. صبيَّة،

كنتُ لا أرى فيها وجهي، بل ما يحاول أن يستر ويُخفيه. كمن يرى الفواصلَ وحدها داخل نصّ. الآن، وقد تجلّى النصُّ كاملًا أمامي، اختفت الفواصل ومعها النقاط والسطور.

قرصني جوعٌ هو أقرب إلى وهنٍ مَنْ أَكْثَرَ من شرب المنبِّهات. توجَّهتُ إلى المطبخ وأخرجت من الثلّاجة الأرزَّ بالخضار الذي تعدُّه لي شاميلي. إنَّه وصفتها الخاصَّة التي أفضِّل. غرفتُ بعض الملاعق ووضعتها في صحن فخّار ـ يعجبني الفخّار، هشٌّ ومتينٌ في آن وفي صلب الموضوع. أدخلت الصحن في المايكرويف، هذا في الحقيقة شرّ لم أستطع التخلُّص منه لعدم توفُّر جرار الغاز في أحيانٍ كثيرة. تأمَّلت الصحن يدور على نفسه وأنا أنتظر الرنين الذي يعلن بلوغ السخونة المبتغاة. أكره الأكل البارد، الفاتر، الذي ينبِّهك إلى أنَّه لم يُطبخ للتوّ، بينما تُعيد السخونة المرتفعة إلى الأكل شيئًا من طزاجته. التقطتُ فوطة المطبخ وأخرجت الطبق، ثم وضعته برفق على الطاولة. ما زالت الموجات تفعل فعلها، لذا ينبغي ترك الطعام قليلًا ليهمد. موجاتٌ لا نراها تصيب بسهامها جزيئات الطعام، وأخالها مثل أشعَّة شمسٍ متعجِّلة تضرب الأكل لينضج. لا شيء كالنار، لا شيء كملامسة ألسنتها ولسعاتها ورائحتها حين تحتضن الأشياء لتنضجها. لا بدَّ وأنَّ صحن الفخّار يشكو الآن ما تعرَّض له من سوء معاملة.

صببتُ كأس ماء. يجب أن أشرب، أن أُرغم نفسي على ترطيب جسدي الذي يزداد جفافًا وضمورًا كلَّما تقدَّمتُ في العمر. الرطوبةُ تليِّن، والماءُ يُحيي. رشفت رشفتَيْن، وتناولت

الملعقة وغرفتُ. ياه، ليس مثل لذَّة الأكل حين تكون جائعًا وحين تكون يدا شاميلي الصغيرتان الماهرتان في الصحن، يداها اللتان تُجيدان التقشير والتقطيع والفرم وباستطاعتهما تحويل أيِّ جسمٍ إلى قطعٍ صغيرةٍ جدًّا بحيث يصير صعبًا على العَيْن المجرَّدة تقصِّي ما كانَ عليه في الأصل. تفرم شاميلي الثوم والزنجبيل أوَّلًا، ثم تهرسهما ليُطلقا نكهتيهما، قبل أن تضعهما في الزيت ليتحرقصا قليلًا ويتعانقا. قبل ذلك، تكون قد أعدَّت مهرجان الخضار المتنوِّعة: لوبياء، جزر، ملفوف، بصل أخضر، كراث، بازيلَّا، إلخ، مشرَّحةً بالطول قطعًا رفيعة، ليأتي من ثم دورُ البهارات أتت بها من بلادها، أي من الحانوت الذي تقصده في مستديرة الدورة ويستوردها من سريلانكا. باستطاعة شاميلي تقطيع وفرم كلِّ شيء، بحبٍّ وأناةٍ ومهما تطلَّب الأمر جهدًا ووقتًا. بإمكانها أن تفرم حتى الحزن.

تناولتُ صلصة الصويا الممنوعة عليَّ لملوحتها، ورششتُ بالكاد بضع نقاطٍ على حبوب الأرزِّ البسمتيّ التي تشبه طاهيتها، رفيعةً وطويلةً ولا تحتوي على أكثر ممَّا يلزم من النشاء، على عكس بدانة شقيقَيْه المصريِّ والإيطاليِّ اللذين قاطعتهما. ملأتُ ملعقتي ثانيةً وأكلت، فراحت النكهاتُ تتفتَّق تحت لساني وتطلق مذاقًا يودي إلى الجنون. تلذَّذت بطعامي وكدتُ أُطلق آهةَ طربٍ من قاع القلب. الطعام اللذيذ يبدِّل أسوأ الأمزجة ويصالحك مع العالم لتصبح كائن صفاءٍ وهناء. هذه هي الغبطة، فكَّرت، لذَّةٌ من دون تفكير. الإقامة في اللحظة، في ما تمضعه، متناسيًا كلَّ ما عداه.

أكلت أكثر من طاقتي، من حاجتي، أكلتُ شرهًا وحبًّا بالأكل وامتنانًا. يا لهذا البطن الذي سيقتلني يومًا بلا شكّ. طبطبت عليه، ثم قمت إلى المجلى وفتحتُ حنفيَّة الماء على صحن الفخَّار، دعكته بالإسفنجة وقد أشبعتُها صابونًا. كلَّما جليت، تذكَّرت عمَّتي نبيهة وكان أبي يروي عن بخلها وعدم استخدامها الصابون لتنظيف الأواني والاكتفاء بالماء، رابطًا تقتيرها الزائد بعدم إنجابها أطفالًا. من لا يُنجب، لا يُجيد العطاء بدون مقابل، كان يقول. أنا أنجبتُ وما أعطيتُ ولديّ، ومع ذلك فهما لم يحاسباني واستمرَّا يهتمَّان بي. البخلُ العاطفيُّ هو الأسوأ على الإطلاق! يختم أبي كلامه واقفًا أمام المجلى، وأنا بقربه لا تتجاوز قامتي مستوى البلاطة الرخاميَّة البيضاء حيث يُلقي الشوك والملاعق لتجفَّ فوق فوطة قماش. وإذ يفطن إلى خطورة اعترافه، ينحني بقامته فوقي محذِّرًا: إيَّاكِ أن تردِّدي أمامها ما قلتُه للتوّ، منتظرًا أن أرسم صليبًا فوق شفتَيْن ستُقفَلان أبدًا على هذا السرّ.

كان أبي، قد سبق شقيقاته الثلاث إلى الموت مع أنَّه كان الأصغر سنًّا، قبل أن يلحقنه بالترتيب، فكنّ، كلَّما رأينني، يتذكَّرنه ويفِضن بدمع أشعره خارجًا من مواضع عدَّةٍ في أجسامهنّ. كنَّ يبكين كالنوافير، ولستُ أدري بالضبط أيُّ صورةٍ له في أذهانهنَّ كانت تستدعي فيهنَّ كلَّ هذا الماء. نحن نحفظ عن موتانا عامَّةً صورًا قليلةً لا تعدو أصابع اليد: رائحة، رنَّة صوت، حركةً ما، تعبير وجه. البقيَّة كلّها تتبخَّر وتذوب كأنَّها ما كانت. عمرٌ كاملٌ يزول، سنواتٌ بما حملته من قصصٍ وتفاصيل

ووجوهٍ تضمحلّ. أنا شخصيًّا لا يحزنني الأمر، بل إنَّني لا أريد أن يبقى منِّي شيء. لكن ثمَّة ما سيعيش في ذاكرتيْ ولديَّ غصبًا عنِّي، وإن لم يكن كثيرًا، وليس بمستطاعي معرفته مسبقًا أو التحكُّم به. حياتنا، هي لا تُفلت منَّا بالموت فقط، بل بما يتبقَّى منها انتقائيًّا، في ذاكرة الآخرين. عسفٌ مزدوج، وظلمٌ غير مستحقّ. من أمِّي، بقي لي طيفُ امرأةٍ تستند إلى ذراع أبي وتخرج من الباب. ساعدُ أبي الأيمن مثنيٌّ لكي تتَّكئ عليه، وفي يده الأخرى حقيبةٌ صغيرةٌ خضراء اللون. بالأحرى زيتيَّةٌ عتيقةٌ من ماركة لونشان. أفكِّر أنِّي أحفظ شكل الحقيبة وأماكن تلفها ورسم الغزال القافز جريًا عند قبضتها، أكثر ممَّا أحفظ ملامح أمِّي. أبي يحاول الالتفات برأسه إلى حيث أقف أنا، في الخلف، لكنَّ جسم أمِّي الثقيل يمنعه من إتمام حركته تلك. أمِّي ترتدي معطفًا بلون التراب يظهر عند أسفله ذيلُ قميص نومها الأبيض وخفَّاها اللذان لا ترتديهما عادةً للخروج. عمَّتي الصغرى وداد تشدُّ على يدي، ثم تنحني وترفعني إليها بعد خروجهما. تقبِّلني على خدِّي ثم تسألني: هل أنت جائعة، فأهزّ رأسي نفيًا وأحاول التملُّص منها كي تُعيدني إلى الأرض. عن أمِّي، لا تحضرني سوى هذه الصورة دونما جهد. هناك أيضًا صورتها التي في الإطار، لكنَّها خارجةٌ عنِّي ولا تشكِّل جزءًا من ذاكرتي العميقة. لست أدري أيُّ صورةٍ تستخرج عمَّاتي من ذاكرتهنَّ عن أخيهنَّ ليبكينه بهذه الحُرقة، وهل هي صورةٌ موحَّدةٌ أو أنَّها تختلف في ما بينهنّ. لكنِّي أفترض أنَّها صورةٌ قديمةٌ من طفولتهم المشتركة معًا، وأنِّي أجهلها لأنَّها سابقةٌ عليّ. نحن غالبًا ما ننسى أنَّ أهلنا عاشوا

قبلنا، أنَّهم كانوا صغارًا وكانت لهم حياة، وأنَّ معظم صورنا عن حيواتهم السابقة تشكَّلت بالافتراض والتخمين والإسناد، وهي لذلك صورٌ دخيلة، لا تستقرُّ في حيواتنا ولا تصنع لنا ذكريات.

لأبي صورةٌ شمسيَّةٌ تُظهره شابًّا وسيمًا وهو يبتسم بالكاد. وضعتُها في إطارٍ من الفضَّة المعتَّقة المحفورة، فوق رفِّ المكتبة التي تملأ رفوفُها جدرانَ الحيِّز المفضي إلى غرف النوم. يرتدي قميصًا أبيض، بذلةً داكنة اللون وربطة عنق، ويتموضع جانبيًّا، فيما يقابل وجهُه آلةَ التصوير. يُشبه ممثِّلي هوليوود. لا شيب في رأسه، ليس بعد، ولا تجاعيد، إنَّما في عينَيْه يلوح خَيْطٌ رفيعٌ من الحزن. كلَّما رأيت صورته هذه تساءلت بمَ تراه كان يُفكِّر في تلك اللحظة، وعمَّا كان يشغل بالَه آنذاك. وجهُه لرجلٍ أعرفه، لكنَّه ليس أبي بعد. هل كنتُ من يومها مقدَّرةً له وكامنةً في مستقبله؟ هل نحن أماني أهالينا السرِّيَّة، ننتظر مجيئهَم عند مفترق صدفةٍ ما، كي يقوموا بقطافنا كما تُقطف الثمار عن الأشجار؟ أنا لم أتمنَّ ولديَّ ولم أحلم بهما. بلى فعلتُ، لكن ليس مع والدهما!

التقطتُ الصورة من على رفِّ المكتبة وتوجَّهت بها إلى غرفة الجلوس، أخرجتها من إطارها ثم نفثتُ على الزجاجة الصغيرة المغبَّرة، ومسحتها بمحرمةٍ ورقيَّةٍ تناولتها من على المنضدة. في وجهه شيءٌ من ملامح أخواته الثلاث ومن حلاوة الإناث، وفي حركاته وصوته ما يُشبه القطن أو النفناف. لم أضع له صورةً أخرى تُظهره زوجًا أو أبًا. اكتفيتُ بهذه لأنِّي أراه باسمًا فيها، لم يغدر به بعدُ مرضُ زوجته ولم تغادره ابنتُه الوحيدة من غير أن

تلتفت إلى الوراء. أحبُّه هكذا، من دون ذاكرةٍ تُثقله، مشرَّع الملامح على احتمالاتٍ عديدةٍ خاليةٍ كلِّها ممَّا آل إليه. دائمًا ما أفكِّر حين أرى صورةً قديمةً لشخص، إن كان يشكِّك ولو لثانية، بما ستؤول إليه حياته. ماذا لو أدرك للحظة، أُسِرَّ له، أُعطي إشارةً صغيرةً عمَّا سيكون عليه مستقبله، فهل...؟ من الممكن تخيُّل معظم الإجابات، فالمصائر السعيدة للأسف لا تملأ الطرقات.

كان أبي يحمل صورة والدتي ويُجلسني على فخذَيْه، ثم يروح يُخبرني عنها كي لا أنساها. لكنِّي أريد أن أنساها، أفكِّر في سرِّي، بل إنِّي نسيتها بالفعل وصارت أشبه بطيف، مجرَّد اسمٍ يتألَّف من جزءَيْن فارغَيْن: ما ـ ما. لمَ كلُّ هذا الإصرار على استحضارها، لم أكن أفهم، إذ كنت حين أنظر إلى صورتها، أفكِّر أنَّها المرأة التي أحبَّها أبي وهو يفتقدها الآن ويريد استرجاعَها معي، ويخطر لي أنَّه لا يحبُّني لذاتي، مجرَّدةً من كلِّ الصلات، ويعذِّبني الأمرُ وأخاف. أسمع خطواته ليلًا تحفُّ البلاط. أسمعه يفتح باب الشرفة ويخرج إلى الليل. أراه بعينيَّ المغمضتَيْن. لو قمتُ إليه، لامتنع عليه النوم نهائيًّا ولعاد يحدِّثني عنها. إذا بقيتُ في سريري، سيرجع إلى سريره عمَّا قريب. أتكون هي من توقظه من النوم؟ وهل يأرق لأنَّه يحنُّ إليها؟ وأنا، ألست أكفيه؟

فاجأتني رغبةُ الاستلقاء وإغماض عينيّ. هي كبوة ما بعد الغداء، أعرفها، لا تدوم طويلًا ولا تأخذني إلى النوم، لكنَّها تبطئ وظائفي وتُثقل أطرافي وحركتي. من كانوا في مثل سنِّي،

يخطفُهم النوم في كلِّ لحظة، أينما كانوا، كأنَّ عقولهم تخفَّفت من كلِّ المهامّ، أو كأنَّ الحياة باتت أشبه بغيبوبةٍ تتضمَّن بعض الاستفاقات. أرخيتُ بثقلي على الكنبة ورفعت ساقيَّ على المنضدة الواطئة، ثم أسندتُ رأسي إلى الجدار، بعد أن حاصرتُ جانبيَّ بأريكتَيْن ألقيتُ فوقهما ذراعيّ. لا بدَّ وأنَّ لي مظهر فرعونٍ محنَّطٍ ينتظر إغفاءةً قد لا تجيء. تنفَّستُ عميقًا، واستعددتُ للغطس...

وقفت والدتي داخل السوبرماركت، بقميص نومها الأبيض ومعطفها الترابيّ، وكنتُ أنا معها، والناس من حولنا كثرٌ يملأون عرباتهم وأكياسهم على عجلٍ بكمٍّ هائلٍ من الأغراض. قالت لي أمِّي: هيَّا، يا مَيْ، اختاري ما تشائين، فنظرت إليها متعجِّبة، فأردفت: أجل، خذي كلَّ ما تشائين، إنَّه لك. احترتُ في أمرها وفي أمر ما يمكن أن يروق لي أخذه من دون المبالغة في استغلال سماحتها المفاجئة، ثم ظهر رجلٌ أسود ضخمٌ بدا مصارعًا أكثر منه رجل أمن، اعترض طريقنا وسألها أن تفتح حقيبتها. نظرت أمِّي إليه نظرةَ المغلوبة على أمرها وسألته لِمَ تراه يطلب تفتيشها هي دون الآخرين، فأصرَّ الرجل ورفع صوته مهدِّدًا باستدعاء الشرطة على الفور، بينما جعلت حلقات الناس تتدافع وتتكاثر من حولنا وبعضهم يردِّد بصوتٍ خفيض: ألم تعرفوه؟ إنَّه الجبل الأسود! وبعد أن كان الجميع على عجلةٍ وكأنَّ أمامهم دقائق

معدودةً متاحةً لا أكثر للتبضُّع وجمع ما يحتاجون على عجل، أصبحوا بغتةً يتحرَّكون ببطءٍ شديدٍ كما في الأفلام، وهم يترَّقبون صامتين ما ستُسفر عنه المواجهة. شعرتُ بجفاف حلقي واصطكاك ركبتيّ، ومع ذلك صرختُ من بين دموعي:

ـ أمِّي ليست سارقة! أمِّي ميتة!

ثم هجمتُ على المصارع الأسود وجعلت أضربه بيديَّ وأرفسه بقدمَيّ، فأخفتْ أمِّي وجهَها بيدَيْها كأنَّها محرجةٌ بي، فما فهمتُ ردَّ فعلها، إلى أن رفعني الرجل أفقيًّا من ظهري فوق الأرض بيد، وفتح بالأخرى الحقيبة وألقى ما فيها إلى الأرض، فتدحرجت من تحتي أشياءٌ ليس لها أن تكون في حقيبة ميت: علب سردين، دبابيس، راحة الحلقوم، قطن، لحم مقدَّد، مشط أحمر، سكاكر، قالب جبن... اعتراني شعورٌ بالعار أغلق فمي، فأعادني الرجل إلى الأرض برفق، وراح يجمع ما سقط من الحقيبة، فيما جلست أمِّي في الأرض وراحت تضرب قدمَيْها في البلاط، غاضبة:

ـ أنت ما دخلك فينا أيُّها الأفريقيّ؟ هم اللصوص! لقد سرقوا أموالنا وجنى أعمارنا ويحاسبوننا الآن على هذه التفاهات؟!

فجأةً انقلب الموقف، فتقدَّم الناس وساعدوا والدتي على الوقوف، ثم احتشدوا من خلفها، فرفعوها على الأكتاف ورفعت هي قبضتها وراحت تهتف والجموع من ورائها تردِّد، قبل أن يخرجوا بها إلى الشارع وأضيع أنا بين الأقدام المتحاشرة وزمامير السيَّارات...

صحوتُ على زمُّور سيَّارةٍ عالقٍ أسفل البناية. ياه، ألأنِّي غنمت بقيلولةٍ لمرَّةٍ في هذا العمر؟ سأبقى في وضعيَّة الفرعون، قلتُ لنفسي، علَّني أكمل غفوتي وأستكمل صورة أمِّي، قائدة الجماهير! ربَّما وجب أن أُكثر من هذه المحاولات، بالاستلقاء مباشرةً بعد الغداء، حين يكون البطن ملآن والمزاج على ارتخاء. ما الذي أتى بأمِّي إلى حلمٍ غريب، أنا التي تمضي سنواتٌ طويلةٌ ولا أراها في المنام. حين ننسى ملامح أحبَّتنا، لا بدَّ وأن يحرنوا ويلتفتوا عنَّا إلى من يُبقون ذكراهم حيَّة. كان أبي يقول: لو أغمضت عينَيْك بقوَّةٍ وطلبتِ منها أن تحضر، لحضرتْ، جرِّبي وسترين. وكنت أراه حين يكون نائيًا عنِّي، ممدَّدًا في كرسيِّه الطويل على الشرفة، مغمض العينَيْن وعلى محيَّاه ابتسامةٌ خفيفةٌ وأحيانًا ضِيق، فأفكِّر أنَّه استحضرها ولا بدَّ ليمضي معها وقتًا عندما يشتاق. هل كان أبي مخلصًا لأمِّي في سنوات زواجهما القصيرة، وقد أمضت جزءًا كبيرًا منها طريحة الفراش؟ وهل بقي مخلصًا لها كما تردِّد عمَّاتي حتى بعد مماتها؟ لقد استعاض عنها بكِ، يُضفن، فأفكِّر أنِّي حين سأكبر، سأعوِّضه فعلًا فأتزوَّجه وأهتمَّ به كما لم تفعل هي. يضحك والدي حين أطلعه على قراري: «البنات لا يتزوَّجن من آبائهنّ، يا ميْ! غدًا، يأتي فارس الأحلام»... تبًّا للأحلام، يا والدي، وللصوصها المتنكِّرين في زيِّ أمراء! أنت الفارس الأخير، وكم راودتني رغبةٌ أن أسأل أمِّي إن كانت ترى فيك فارسها ذاك؟ لكنَّها كانت في السوبرماركت منشغلةً في تحصيل حقوق المودعين الذين سُرقت ودائعهم في أكبر عمليَّة نصبٍ عرفها التاريخ. حسنًا أنَّها رحلت ولم تعرف هذا

كلّه، ففاتتها حروبٌ تناسلت وتوالدت، كما فات أبي المسكين وعمَّاتي، وقعُ الانهيار الكبير. ما الذي أدخل المصارع برنس كومالي في هذا كلِّه، وكيف قفز من ذاكرتي هو الذي كان يلقَّب بالجبل الأسود؟ أذكره جيِّدًا لأنَّ عمَّاتي الثلاث كنَّ منحازاتٍ بقوَّةٍ إليه. ربَّما هو الكبت دافع هذا الانحياز، إذ كان له جسمٌ متناسقٌ جميل، منحوتٌ كتمثالٍ برونزيّ، على عكس بقيَّة المصارعين من ذوي الأشكال القبيحة غير الآدميَّة. يجلسن أمام شاشة القناة 7 مع جدَّتي، ليشجِّعن الأخوَيْن سعادة اللذين يمثِّلان لبنان و«عليهما خلقة الله»، ويناصرن من يتحالف معهما. الوحش الفظيع الذي تلقَّى ذات مرَّةٍ شحَّاطة جدَّتي في وجهه على الشاشة، كان المصارع الأميركيَّ داني لنش، وحليفه الهنغاريّ، الأصلع كوفاكش. يضحك أبي حين يرى اندماج والدته وأخواته في المباراة، يحاول أن يُخبرهنَّ أنَّ كلَّ شيءٍ ملعوبٌ سلفًا وأنَّ العمليَّة كلّها تمثيلٌ بتمثيل، كلُّ هذا يقبلنه شرط ألَّا ينتقد أداء جان وأندره وهما يتلقَّيان الضربات، بانتظار أن «يجسِّر» أندره تجسيرته الشهيرة نافضًا عنه الخصم، فتقفز عمَّاتي صارخات: ينصر دينك، يا بطل! بيَّضت وجه لبنان!

على عكس والدي، لم يكن ولع عمَّاتي بمباريات المصارعة التي كانت تُقام في المدينة الرياضيَّة غريبًا أو فريدًا، إذ كنَّا نسمع صيحات الرجال والنسوة تتقافز على سلالم البنايات، فلم تكن فكرتي عن أنَّ ولع عمَّاتي كان عائدًا لكونهنَّ لم يعرفن رجالًا في حياتهنّ، أو أنَّ هؤلاء عبروا كالشهاب. نبيهة أجهضت عندما فقدت زوجها صبيَّةً في حادث سيرٍ تافه، وزكيَّة لم تتزوَّج طوعًا

وأرادت أن تترهبن وما قبل أهلها أن تذهب وتعيش بعيدًا عنهم في دير، أمَّا وداد فقد خُطبت أكثر من مرَّة، لكنَّ «عملًا» ما كان يُبعد العرسان عنها في اللحظات الأخيرة على ما تؤكِّد نبيهة. من بين من تقدَّموا إليها، أحبَّت وداد واحدًا بقيت مخلصةً له. أسعد المرتَّب الأنيق، صاحب التجارة التي لم يتَّضح يومًا ما هي بالفعل، والتي كانت على ما يبدو توفِّر له مردودًا محترمًا، ووضعًا اجتماعيًّا مريحًا، وسيَّارةً أميركيَّةً طويلة، وأطقم أنيقةً بقمصانٍ بيضاء منشَّاةً تُعقد أكمامها بأزرارٍ ذهبيَّةٍ وفضِّيَّة، وأحذيةً لامعة سوداء. أسعد الذي يزورها أيَّام الآحاد، فلا يأتي بيدٍ فارغةٍ وإنَّما دومًا مع باقة وردٍ وعلب حلوى تتنوَّع في كلِّ مرَّة، لكنَّها في معظمها من محلَّات أرلكان في باب إدريس. كانت عمَّتي تتغاوى له، فترتدي الفساتين الضيِّقة، والكعوب المرتفعة، وتلفُّ شعرها الأسود الطويل على شكل شينيون. أجلس بقربها على منضدة التواليت، وأحبُّ الروائح التي تفوح من أغراض زينتها: علبة بودرة «سوار دو باري» وطرَّتها الناعمة الزهريَّة التي تطبطب على الخدود والرقبة والديكولتيه، وأحمر شفاهها الزهريَّ المعدنيّ، وقوارير عطرها التي أهداها أسعد معظمها.

تحبِّينه، يا عمَّتي؟ أسألها، فتهزُّ رأسها منفعلة، ثم تتنفَّس عميقًا قبل أن تضيف: لمَّا إتزوَّج، رح يكون إلك غرفة باسمك ببيتي الجديد...

نجتمع حول مائدة الغداء، ويتولَّى أبي دفَّة الكلام، إذ لا يصحُّ أن يزور أسعد بيت نساءٍ وحيداتٍ لا رجل لهنّ. بلى، في الدار رجلٌ بألف رجلٍ هو أخوهنَّ الوحيد الذي يحببنه ويفخرن به

متعلِّمًا ومثقَّفًا، ويحتفلن بقدومه في كلِّ مرَّةٍ وكأنَّه عريس. تتفانى نبيهة في صنع أطيب مأكولاتٍ وأطباقٍ تبدأ التحضير لها منذ يوم الجمعة ـ ذلك أنَّ أسعد يحبُّ هذا، وأسعد أعجبه ذاك، وإذ تجهَّز مائدةً ملوكيَّةً غنيَّةً بأصناف الطعام، تتولَّى نبيهة التوزيع، مدَّعيةً أنَّ معظمها من صنع يديْ وداد الذهبيَّتَيْن التي لها نَفَسٌ في الأكل ولا نَفَس أكبر الطهاة ـ وأبقى أنا أسأل أبي إن كان بإمكاني النوم في بيت جدَّتي مساء السبت لأجهز للأحد منذ الصباح ولا يفوتني أيُّ تفصيل، في حين تقلق زكيَّة من احتمال عدم تمكُّنها من إنهاء جهاز العرس في الوقت المناسب، برغم شكوك جدَّتي واستيائها من عدم ظهور أهلٍ له يطلبون يد ابنتها، أو تحديده موعدًا واضحًا للزواج. تنتحي جدَّتي بوالدي جانبًا من الصالون قبل حضور العريس، تبربر في أذنه كلامًا لا ألتقط إلَّا بعضه، فيما تراقب وداد أمَّها من بعيد متوجِّسةً هامسةً: رح تهشّله إذا الله راد! يترك والدي والدته بعد أن أفرغت جعبتها، إلى الشرفة، ثم يرسل لوداد نظرةً من بعيد، غامزًا بعَيْنه أنْ لا تقلقي، كلُّ الأمور على ما يرام. تفرح عمَّتي فتنحني لتقبِّلني بقوَّةٍ وتأخذني من يدي إلى المطبخ: هيَّا، لنساعد في إنهاء الترتيبات.

لستُ أدري كم من الوقت استمرَّت زيارات أسعد وهداياه، إلَّا أنَّ أبي أخذني ذات ليلةٍ إلى بيت جدَّتي، كان متعبًا وغاضبًا، ولم يكن ذلك في نهاية الأسبوع. دخلنا وفوجئت عمَّاتي بزيارتنا، فتهافتنَّ عليَّ يلمسن جبهتي لقياس حرارتي، مستفسراتٍ بلهفةٍ إن أُصبت بمكروه. طمأنهم أبي، ثم جلس صامتًا لدقائق، قبل أن يطلب من وداد أن تلحقه إلى غرفة النوم. ضربت جدَّتي صدرها

بكفِّها: خير يا ربّ! ودمعت عينا زكيَّة مباشرةً وكأنَّها استشعرت وقوع شرٍّ ما: صابوها بالعين! قالت نبيهة ملتفتةً نحو زكيَّة التي وضعت وجهها ممتقع اللون في الأرض. كم مرَّةً صلَّت لأختها ورَقَتْها وصبَّت فوق رأسها رصاصًا كان يطشُّ في الماء متشظِّيًا عيونًا مفتوحةً بلقاء. كم مرَّةً قدَّمت عن نيَّتها النذور ورجت القدِّيسين أن يبيِّضوا بختها ويرسلوا لها العريس الآدميَّ الذي تستحقّ. زكيَّة لا يهمُّها أن يقولوا عنها «عانس»، لكنَّ وداد لن تحتمل الأمر، فهي جميلةٌ ومرغوبةٌ ولا ينقصها شيء. يبقى أنَّ عمرها الذي تجاوز منتصف الثلاثين هو عَيْبها الوحيد.

تبعتُ والدي إلى غرفة النوم. كان الباب مشقوقًا فجلست أرضًا وحشرت أذني وأصخت السمع.

ـ وداد، أسعد متزوِّجٌ وله أطفالٌ كبار... عرفت بالصدفة من زميلٍ لي من أقارب زوجته... أنا لم أسكت وواجهتُه بالأمر، فلم يُنكر. قال إنَّه منفصلٌ عن زوجته وعلى باب طلاق. هل كنت تعلمين؟

دموع عمَّتي تسقط من وجهها إلى فخذَيْها، حيث وضعت يدَيْها وجمدت كتمثال، وبحركةٍ من رأسها أجابت أن لا، لم تكن تعرف، فتابع أبي يقول: نهيتُه عن الزيارات وعن الاتِّصال بك... لكن لا تخافي، أنا لم أقطع في وجهه الطريق نهائيًّا. قلت له: طلِّق يا أسعد، وبابنا مفتوحٌ لك... رفعت وداد نظرها إلى أخيها وقد تكثَّف حزن العالم كلِّه في ملامحها. فقط لو لم يكذب عليها...

وبالطبع، لم يُطلِّق أسعد لأنَّ ثروة زوجته كانت مصدر كرمه وأناقته. وما عاد يزورنا، وبقيت أيَّامُ الآحاد كئيبةً لحين، بعد أن انخفضت كعوبُ وداد وتساوت بالأرض، تكسَّرت أظافرُها وغاب عنها الطلاء، وظهرت في شعرها خصلاتٌ بيضاء. فجأةً صارت عمَّتي الصغرى باهتة الألوان، وقد استسلمت لقدرها وصارت، بعد زكيَّة، عانس البيت الثانية.

سألتُها ذات يوم وكنت قد تجاوزتُ سنيَّ مراهقتي:

ـ ألم يُعد أسعد الاتِّصال بك، يا عمَّتي؟

ـ بلى، ودعاني لأن أقابله بعيدًا عن البيت ليشرح لي. قال إنَّه يفكِّر بي ويحبُّني، وإنَّ زوجته ما عادت تعني له، وإنَّه يعتذر لأنَّه كذب عليّ، إذ كان ينتظر قبولها الطلاق ليُخبرني. سألتها ملهوفة:

ـ ثم؟

ـ ثم!؟ رفضتُ مقابلته. هل تريدنني أن أكسر كلمة والدك؟ لقد قال له كلَّ ما يلزم، وأنا كرَّرت كلام أخي: اذهب وتطلَّق، ثم عُد! بعد سنوات، خلال حوادث عام 1958، عاود الاتِّصال بي مرَّةً وكانت الحرب في أوجها. آلو؟ وعرفت صوته مباشرة. أراد أن يسأل عن أحوالي وأحوال الأهل. ترك رقم هاتفه، مضيفًا أنَّه أصبح مسؤولًا مهمًّا في أحد الأحزاب، ويمكنني الاتِّصال به إن احتجتُ أيَّ شيء.

ـ وهل طلَّق؟

ـ لم أسأله.

حففتُ الصابونة على كفِّ المنشفة الزهريّ، مرَّرتها على رقبتي، فتحة صدري، إبطيَّ وما تحت ثدييَّ الملتصقَيْن بمعدتي. أعدتُ الكرَّة بعد شطف الكفِّ جيِّدًا بالماء، وأنهيت العمليَّة بفوطةٍ جافَّة، قبل أن أعمد إلى رشِّ البودرة منعًا للتعرُّق والتصميت. ارتديت حمَّالة صدرٍ مع أنَّ صدري ما عاد يحتاج إلى ما يحمله، وقد فقد صلابته ولم يبق فيه إلَّا عضلٌ مرتخٍ وجلدٌ مترهِّل. لِمَ تُرانا لا نشيخ على حالنا؟ لِمَ لا يحقُّ لنا اختيار عمرٍ معيَّنٍ والثبوت فيه على أن نتقدَّم في السنِّ ونموت كما هو مقدَّرٌ لنا. هل ينبغي لأجسادنا أن تُثقل علينا فننوء بحملها ونضطرَّ إلى جرِّها كهياكل مقرقِعةٍ نتنة؟ هل ينبغي أن نتبدَّل ونتشوَّه وندخل في حالةٍ من التلف والاهتراء؟

كان صدري جميلًا، ممتلئًا ذلك الامتلاء، صلبًا تلك الصلابة، وناهضًا ذلك النهوض. كنتُ أعرف أنَّه أوَّل ما يجذب

فيَّ بعد عينيَّ وابتسامتي وكنت فخورةً به، تثني عليه النساء أكثر ممَّا يفعل الرجال. تقول عمَّتي وداد مازحةً حين تتفرَّج عليَّ أقيس فستانًا أو بلوزة: لديك صدرٌ مثاليّ، يا بنت! لو كنت رجلًا، لوقعت في غرامه! يشعرني إطراؤها بالفخر، فلي صدرٌ أنثويٌّ بامتياز، بالحجم المتناسق والشكل المطلوب، ثديا امرأةٍ «في كامل مشمشها» كما يُقال، لا صدر فتاةٍ صغيرة، ولا صدر أمٍّ حلوب. الآن ينبغي أن أرفعه بيديَّ لكي أرى حلمتَيْه المجعَّدَتَيْن، كأنَّه شيءٌ ميِّتٌ وعليَّ أن أعتني كلَّ يوم بجثَّته كي لا تنتن بفعل العرق والسخونة. أُعيد حفَّ الصابونة على الكفِّ وأنزل به إلى الجزء السفليّ. أباعد ما بين فخذيَّ وأتمسَّك بحافَّة المغسلة، هذا أيضًا لم يسلم من أضرار التقدُّم في السنّ، فكان أن تساقط شعرُ العانة لتبدو مثل عجوزٍ صلعاء من دون أسنان. فظيعةٌ هذه الصورة، لكن هذا ما أشعر به حيال جزءٍ منِّي يسبِّب لي مرآه الإزعاجَ فأتمنَّى في كلِّ مرَّةٍ لو أستطيع طرحه عنِّي كما يُخلع لباس. صحيحٌ أنِّي لم أعد قادرةً أن أستحمَّ بعمقٍ سوى مع شاميلي، لكن هذا لا يمنعني من القيام بـ «تواليت» صغيرةٍ يوميَّة، تُبعد عنِّي رائحة العفونة والعِتْق التي يتميَّز بها العواجيز، وأبالغ في طرد الوسخ والروائح الكريهة عنِّي، عند اضطراري للخروج.

والحقيقة أنَّ أكثر ما يزعجني هو الخراء، أقرف منه وأقرف من نفسي حين لا أسيطر عليه، فيُفلت بعضُه من مؤخِّرتي من غير أن أشعر به. ثمَّة من يعانون من ارتخاء المثانة فتغدرهم كمِّيَّاتٌ صغيرةٌ من البول اللاإراديّ، وآخرون من ارتخاء باب البدن... أجل، هو «بابٌ» بالمعنى الفعليّ يفصل بيننا أجسادًا هي في

العمق مستوعباتٌ متحرِّكةٌ مملوءةٌ بالقاذورات والغائط والبراز والجراثيم والروائح الكريهة، وكائناتٍ مهندمةً نظيفةً لا تشوبها شائبة، لذا وجب إغلاقه بإحكام، ولذا تراني بعد الغسل بالشَّطَّافة والتجفيف بفوطة، أطوي ورقةً من المحارم الورقيَّة وأحشرها هناك، مخافة أن أتَّسخ دون أن أُدرك إلَّا بعد وقوع الواقعة وفوات الأوان. بيد أنَّ أسوأ المواقف يبقى دخول الغازات في المعادلة إذ يؤدِّي إلى انفلات زمام الأمور بين ضراطٍ وخراء. الحفَّاضات وأشباهها، أنا لا أحتمل حتى فكرتها، وقد أرمي بنفسي من الطابق التاسع قبل أن اضطرَّ إلى استخدامها. فكَّرتُ مرَّاتٍ بسؤال دكتور داود عن علاجٍ لهذه الآفة، لكنِّي تراجعتُ خجلًا إذ كيف سأصوغها له: أنا أخرى تحتي، يا دكتور؟! أحيانًا تختفي هذه المصيبة لأيَّام، وأحيانًا أخرى اضطرُّ إلى تغيير لباسي الداخليِّ أكثر من مرَّةٍ في اليوم. يضايقني الأمر ويُشعرني بالخُزي، ما يجعلني أتساءل أيَّهما أفضل، ارتخاء المثانة أم سلس البراز؟ تذكَّر يا إنسان، أنت من الخراء وإلى الخراء تعود! من حسن حظِّي أنِّي أحيا وحيدةً بلا عيونٍ تُلاحقني وتكون شاهدةً عليّ.

انتهيتُ من الكفِّ المملوء صابونًا بعد أن حاولت بلوغ أقصى ما أمكنني بلوغه، ثم تراجعتُ وجلستُ على كرسيِّ الحمَّام، تناولتُ الشَّطَّافة وغسلتُني بالمياه الباردة. يااااه، شعرت بالانتعاش والارتياح والطمأنينة لكوني استرددتُ آدميَّتي. غياري المتَّسخ سأفضُّه في المغسلة، كما أفعل دائمًا، ثم أنقله إلى سطلٍ يفوح براوئح موادّ الغسيل والتبييض والتطهير، فأنا لا أحبُّ لشاميلي أن تكتشف أمري حين تأتي وتضع ملابسي وشراشفي المتَّسخة في

الغسَّالة، وفي قِدْرٍ على حدة تغلي الأبيض ليستعيد نصاعة بياضه. أمَّا ما يبدو لي غير قابلٍ للإنقاذ، فألفُّه على شكل كرةٍ أضعها في كيس نيلون صغيرٍ أرميه في كيس النفايات بعد إغلاقه بقوَّة، فما أدراني أنَّ يوسف ليس من أولئك المرضى الفضوليِّين الذين يطيب لهم العبث في زبالة الآخرين بحثًا عن سلوكيَّاتٍ شاذَّةٍ وأسرار. فليجرِّب يوسف أكياسي، ولتفقع رائحةُ برازي في وجهه! أتخيَّل الأمر ضاحكة، قبل أن أفطن إلى الساعة الثامنة تبحلق فيَّ وتستعجلني أن أُنهي استعداداتي كي لا أتأخَّر، وأنا لا أحبُّ أن أتأخَّر، وأريد أن أصل في الموعد المحدَّد وأكون من أوَّل الواصلين.

ـ آلو، مرحبًا وديع، أرسل لي سائق سيَّارة مكيَّفة الله يرضى عنك.

ـ تأمرين، ستّ مي!

في هذه الأيَّام، المال وحده يتكلَّم! وليس أيَّ مال، بل العملة الخضراء التي ترفعك إلى قبَّة السماء. من عادتي أن أترك بقشيشًا لمن أتعامل معهم، فيقبِّلون يدي ويدعون لي بطول العمر، والمقصود دوام رزق من يترك إكراميَّةً محترمةً ولا يجادل في الأسعار. أنا بتُّ أصرف القليل من مالي الخاصِّ وقد ضمر لعدم توفُّره بسبب الانهيار الماليّ، والكثير ممَّا يرسله ولداي. لقد شقي أبي، كما شقي زوجي في تجميع مبلغٍ يحفظ كرامتي في شيخوختي ويقيني شرَّ الحاجة. هذا كلَّه طار برمشة عَيْن. حالي بالطبع لا تُقارن بحال الأغلبيَّة إذ أبقى نسبيًّا من أقلِّ المتضرِّرين وقد هبَّ ولداي الثريَّان مشكورَيْن لنجدتي، وتكفَّلوا بكافَّة

مصاريفي. لكن، بناءً لنظرتي الشخصيَّة، أجدني من بين الأكثر تضرُّرًا وقد فقدت حرِّيَّتي واستقلاليَّتي وبتُّ خاضعةً لتدخُّلات التوأَمْين.

لا أظنُّ أنَّ أحدًا في الكرة الأرضيَّة قاطبةً عايش ما عرفناه هنا منذ خمسة أعوام. لا أحتسب سنوات الحرب الخمس عشرة وما تلاها، وإنَّما أركِّز على نصف العقد الأخير. لقد ضاعت مدَّخراتنا كلّها، وبالكاد كنَّا نتحصَّل على مائتي أو أربعمائة دولار في الشهر، من أموالٍ تعدو أحيانًا مئات الآلاف. أصحاب الثروات الكبيرة نفذوا بثرواتهم وهرَّبوا أموالهم، أمَّا نحن، السواد الأعظم، فنقف أمام المصارف وداخلها لساعاتٍ لكي نشحذ شيئًا من... أموالنا! لماذا؟ لأنَّ المصارف ابتلعتها، بهذه البساطة، ولا مَن تسأل ولا مَن يُجيب. يردِّدون على الشاشات أنَّ المصارف ديَّنت الدولةَ ودائعَنا لقاء فوائد مرتفعة، وأنَّ الأخيرة صرفتها، قبل أن يُضيف أحدهم أنَّها سرقتها بداعي الفساد والعمولات والمشاريع الفاشلة التي أتاحت كلَّ أنواع الاختلاس. بين ليلةٍ وضحاها، أفقرونا جميعًا، من دون تمييز، أطبقوا على المودعين فجنَّ جنونهم، ثم نزلت الناس إلى الشارع وثارت ضدَّ جميع هؤلاء وهتفت: «الشعب يريد إسقاط النظام» و«كلُّن يعني كلُّن». لكن، بعد التخويف والتهويل والهجوم على العزَّل بالعصيِّ والهراوات، جاءتنا عزيزتُنا كورونا لتسحب المتظاهرين من آذانهم، فتكمِّمهم وتجبرهم على البقاء داخل الجدران، ليلحق بها من ثم انفجارُ مرفأ بيروت غير النوويِّ والذي عُدَّ من حيث قوَّته الثالث عالميًّا... حلَّق سعرُ صرف الدولار وراح يعلو ويعلو

حتى حجب عنَّا نور الشمس وعمَّت العتمة الشاملة. مسلسلٌ مكسيكيٌّ طويلٌ قد أكون خلطتُ في بعض أحداثه، إنَّما لا يهمّ، لأنَّ المسلسل مستمرٌّ وأبطاله لا يموتون بل يتوالدون من ذواتهم بمعجزاتٍ مستحيلةٍ لا يقبلها منطقٌ ولا يصدِّقها عقل.

توقَّف السائق أمام المصرف فسارع الحارس يُعينني على النزول. أنا معروفةٌ لديهم، لا لثرائي، وإنَّما بسبب حادثةٍ وقعت في البداية عندما أُقفلت المصارف وما عدنا نتمكَّن من بلوغ مدَّخراتنا. بإمكاني الاستغناء عن المجيء إلى المصرف كلَّ شهرٍ لسحب المائتي دولار المسموح بها والتي أصبحت أربعمائة منذ وقتٍ قريب، والاكتفاء بما يرسله ولداي شهريًّا عبر حوالةٍ كانا يرسلانها باسم الدكتور داود، ثم باسم يوسف عندما وثقا به. لكنَّني أحبُّ زيارة المصرف إلى حيث أذهب بكامل أناقتي وزينتي، ولا أنسى اصطحاب العصا ذات الرأس العاجيِّ لأنَّها تُضفي على مظهري جلالًا وتمايزًا. أشعرُني، وأنا أعبر أبوابًا تُشرَّع أمامي، مثل يوسف وهبي في قمَّة مجده، أو مثل ذاك الطفيليِّ الأرستقراطيِّ عبد السلام النابلسي، الذي يردِّد دومًا: بونجور، يا إكسيلانس!

يوم أعلنت المصارف عن فتح أبوابها أخيرًا أمام زبائنها، مع تحديد سقف ما يمكن سحبه لكلِّ مودع، طلبتُ موعدًا من جهاد المدير، فرحَّب واستقبلني بابتسامةٍ واسعة وكثير احترام. رجلٌ ضخمٌ برأسٍ حليق وكرشٍ بارزةٍ بعض الشيء ـ لماذا يصلع معظم رجالنا وتظهر لهم بطون؟ أجلسني وسألني عمَّا أشرب: قهوة، عصيرًا، أم شايًا؟ طلبت قهوةً فجاءت القهوة. بقيتُ صامتةً وهو

يحاول التودُّد إليّ، مستفسرًا عن صحَّتي وأحوال ولديّ، مع استراق نظراتٍ سريعةٍ إلى شاشة الكومبيوتر من أمامه.

هممم! عمرٌ صار في نهايته وحسابٌ دسم! سيذهب حتمًا إلى ورثتها لو أُعيد، ولو عاد ابناها. أمَّا هي، المسكينة، فمن غير الوارد أن تستمتع به في حياتها...

هذا ما قرأتُ في نظراته، وفهمت أنَّه يريد أن يُفهمني أنَّه متأسِّفٌ ومجبرٌ وليس في يده حيلةٌ إذ تأتيه الأوامر من فوق. لعن الله هذا الـ «فوق» الذي لا تأتي منه إلَّا المصائب، فكَّرت، هكذا تسرقوننا، على عَيْنَك يا تاجر؟!

ما زال في فنجان قهوتي نصفه على الأقلّ، وفنجانه هو تقريبًا ملآن. أزحت الفنجان من أمامي نحو وسط المكتب، إشارةً إلى أنَّني انتهيت. ثم، متَّكئةً على عصاي، قمتُ عن مقعدي، فسارع بدوره إلى الوقوف سعيدًا بتخلُّصه من عبء. وفيما كان يلفُّ من حول مكتبه الفخم لمرافقتي نحو الباب، ارتفع ساعدي الأيمن عاليًا بالعصا الغليظة التي من خشب السنديان مع رأسٍ جميلٍ من العاج، ثم هوى بقوَّةٍ فوق المكتب الزجاجيّ، مُصدرًا صوتًا أشبه بدويِّ انفجار. طارت فناجين القهوة برفقة أغراضٍ أخرى، وملأ ثفل البنِّ وجه المدير وقميصه الأبيض وجانبًا من الجدران والموكيت وصولًا إلى السقف، راسمًا أشكالًا قد تحلو قراءتها من قبل قارئة فنجان.

باعد المدير جهاد ذراعَيْه عن قميصه ينظر إليَّ مصعوقًا، جاحظ العينَيْن، فثبَّتُّ بصري فيه وأعدتُ الكرَّة مُصوِّبةً هذه المرَّة

على شاشة الكومبيوتر بيديَّ الاثنَتَيْن. طاااااخ! ثمَّة من ركض من الموظَّفين وفتح الباب لدى سماعه الضربتَيْن وتكسُّر الزجاج، تبعهم الحارسُ الأمنيُّ مستعدًّا للهجوم عليّ، لكنَّ المدير سارع يوقفه بحركةٍ من يده، آمرًا إيَّاه ومن معه بالتراجع. الأغلب أنَّه خاف أن يُصيبني مكروه، فيُتَّهم ومصرفُه بأنَّهما من تسبَّبا به.

ـ اخصم كلفة ما تضرَّر، من حسابي!

قلتُ متبسِّمةً وقد شعرت أنَّ همًّا ثقيلًا أُنزل عن صدري، ثم غادرت المكتب والمصرف وسط تصفيق الزبائن المتكدِّسين للفرجة أمام باب المدير. لكنَّه أعلم ولديَّ بما جرى، فاتَّصلا وقالا: مام، فورغيت يور موني، ألا نحوِّل لدكتور داود ما تحتاجينه كلَّ شهر؟ بلى يفعلان، لكنِّي أحبُّ أن أطلب تاكسي من مكتب وديع مرَّةً في الشهر، كي أذهب إلى المصرف فأسحب المستحقَّ من مدَّخراتي ولا أتركه لهم. آتي في موعدٍ شبه ثابتٍ تحوَّل إلى طقسٍ يجعل موظَّفي البنك يتكاثرون من حولي، قبل أن يدخلوني إلى مكتب المدير الذي يرحِّب بي وكأنَّ شيئًا لم يكن. هو أقفلَ على الموضوع، وأنا أيضًا فعلتُ، وعلاقتنا مذَّاك في أفضل حال. يأتونني بالأوراق التي يجب أن أوقِّعها، ثم بالمبلغ موضوعًا في ظرفٍ أبيضٍ مع أرقام فئات الأوراق. المال أضعه في الكومود في غرفتي. لا أقفال ولا من يحزنون. الفواتير تصل إلى يوسف ليوزِّعها على سكَّان العمارة، وأنا أعطيه مبالغ سدادها. وليوسف منِّي في كلِّ شهر، مائتي دولار إضافيَّةً مكافأةً لخدماته. أيُّ خدمات؟ أن يرنَّ ليسأل عنِّي، أو يُحضر لي أغراضًا أوصيه عليها، أو... المهمّ، هكذا قرَّر التوأمان، وهكذا كان.

ما الذي جعلنا ما نحن عليه، كائناتٍ ضعيفةً بائسةً تبحث باستمرارٍ عن العطف؟

مذ أن فتحتُ عينيَّ وأنا أسمع مُواءها. بقيتُ أنعم بصمتها واختفائها لأيَّام ظانَّةً أنَّها قد استوعبت أخيرًا أنِّي لا أريدها ولا يمكنها الاعتماد عليَّ ولا مطالبتي بما لا أملكه أصلًا. صمتت ثوانٍ تسترجع أنفاسها، ثم استأنفت نواحها. هذا ليس مواء جوعٍ أو عطش، فقد جدَّدتُ ماءها وما في وعائها صباح أمس، بعد أنْ ترطَّب وتلف. عدتُ وتفقَّدته في المساء، ثم صباح اليوم، ولم يكن قد نقص منه الكثير. أنا لم أغيِّر نوعيَّة غذائها، والرمل حيث تقضي حاجتها بدَّله يوسف يوم أمس. غير معقول! حتى النباتُ بات يطالبنا بالتفاتة، بلمسة حنان، بسماع الموسيقى، والأشجارُ بعناق، ترى ما كان حالُها وحال العالم قبل أن ندبَّ على الأرض، وأين كانت تلك المخلوقات ممَّا تطالبنا اليوم به؟

حملت كوب قهوتي ودخلت الصالون. لم أقترب من الباب الزجاجيّ حيث يمكنها أن تلحظ وجودي، بل رحت مباشرةً إلى النافذة من حيث أرى قفصها ولا أُرى. أزحت طرف الستارة على مهل، لم تمسس طعامها. ليست هنا، قد تكون في الجهة الأخرى. تتصرَّف بغرابة. تمتنع عن الأكل ردحًا، أو تبقى مضطجعةً طوال النهار، ثم فجأةً يعود إليها نشاطُها، فترجع مشاكسة، غير مبالية، تدير لي مؤخّرتها حين تلمحني، ثم تبتعد لامبالية. أنا هكذا أفضّلها، منفصلةً عنّي لا يهمُّها أمري ولا تعبأ بي. يُتعبني التفكيرُ بها وتفقُّدها كلَّ حين. سأحادث يوسف بالأمر. ينبش لها من تحت الأرض من يتبنَّاها، أو يتولَّى هو أمرَها بنفسه. لن تسمِّم حياتي قطَّةٌ لم أُرِد في الأصل وجودَها، ولن أخضع لابتزازها العاطفيّ. تأكل متى جاعت، حُسم الأمر!

عدت أدراجي وأغلقت باب الممرِّ بين جزئي الشقَّة، فلا يصلني صوتها إلَّا مثل رجْعٍ بعيدٍ مندمجًا كلِّيًّا في صخب العالم الخارجيّ. وقفتُ أمام نافذةً غرفة النوم الأكثر بُعدًا عن الصالون، أتفقَّد زرقةَ بحرٍ تفصلني عنه أسطح مبانٍ واطئة تنتمي إلى زمنٍ آخر، حين كانت المساكنُ ما زالت تنهض على خفر، فلا تعلو كثيرًا وتبقى على ارتفاعٍ خجول. العمارة حيث أُقيم، هي الأولى ربَّما التي بُنيت بارتفاع عشرة طوابق، وقد شكَّلت سابقةً في الحيّ. أنا اخترتُ الطابق التاسع لأنّي كنت أحتاج ارتفاعًا، نأيًا، ولو قُيِّض لي أن أسكن في الطابق الألف، لفعلتُ. أرسلت عينيَّ فوق الأسطح المتحاشرة المتخاصرة، هنا قفا المدينة التي من سِماتها التضارب والتنافر، ومع ذلك لا تخلو من سحر، إذ

يجلس القديم بجانب الجديد، والخَرِب يجاور المُحدَث، والقُبح يسامر جارَه الحُسن. بشاعةٌ وانعدام تناسق، ثم فجأةً مشهدٌ يخطف الألباب، وهذا من شارعٍ إلى شارع، ومن منطقةٍ إلى أخرى يُباعد ما بينها خطواتٌ ليس إلَّا. ثم هذه المدينة العشوائيَّة الأخرى التي نبتت على سقف المدينة، صانعةً حقولًا من أسطحٍ نبتت فوقها أغراضٌ عجيبةٌ هي نفسها لا تدري كيف وصلت هنا: خزَّانات مياهٍ متعدِّدة الأشكال والأحجام بعضها من البلاستيك وبعضها الآخر من القصدير، أنتينات تلفزيونات، صحونٌ فضائيَّةٌ بيضاء، مناشر غسيل، عواميد، دواليب سيَّارات، صناديق خشبيَّةٌ وبلاستيكيَّةٌ من تلك التي تُستخدم لنقل الخضار، هياكل درَّاجاتٍ صدئة، مستوعباتٌ من كلِّ الألوان والأحجام، أقفاص، خزائن مخلَّعة، بقايا ملابس، أكياس نايلون، أصص نباتٍ ذابل، كنباتٌ ببطونٍ مبقورةٍ مع أرجلٍ سُوِّيت بالأرض، طوب، حجارة، مغاسل وكراسي حمَّام مشروخة، فردات أحذيةٍ لا رفاق لها، ألعابٌ مشوَّهة، مناقلَ للشواء متقاعدة... ثمَّة من لا يقدرون على التخلِّي، وثمَّة من يرون ضرورة استهلاك الأشياء حتى رمقها الأخير إذ لا بدَّ على احتوائها على ما قد يصلُح لشيءٍ ما: برغيًّا، عزقة، شريط نحاس، لوحًا خشبيًّا أو معدنيًّا، دولابًا يُحرَق، أو يتحوَّل مسكب زهرٍ أو نعناع.

فجأةً لفت انتباهي إلى يساري سطحُ العمارة الصفراء المتهالكة لا ترتفع بأكثر من أربعة طوابق، حيث وقف كشَّاشُ حَمَام يلوِّح بقصبةٍ طويلةٍ أعلاها قطعة قماشٍ سوداء، باتِّجاه سربٍ لا يعدو عددُ طيوره دزِّينةً ونصفًا على ما أقدّر، راح يعلو ويهبط

بتناغم متتبِّعًا حركات قائد الأوركسترا. لا بدَّ وأنَّه آخر سلالة الكشَّاشين، فقد نسيت السطوح صفيرهم وصفَّاراتهم ومبارزات اختطاف طيور بعضهم، ثم محاولات استعادتها أو تعويض فقْدها. لا أفهم كيف يُطلقونها حرَّةً في السماء، وما الذي يضمن لهم رجوعها؟ وهل يرجع طيرٌ إلى القفص بملء إرادته؟ أسأل أبي، فيجيبني أنَّ الكشَّاشين يشرون طيورهم، يربُّونها ويُطعمونها ويصنعون لها أقفاصًا، فكأنَّهم يربطونها بحبال تجعلها تؤوب إليهم لتأكل وتبيت.

أنزلتُ عينيَّ من السماء واستوقفتني تلك الهياكل العملاقة المعدنيَّة الحمراء التي لا أعرف غرض وجودها بالضبط. أظنُّها رافعاتٍ لإنزال المستوعبات الثقيلة التي تحملها سفن الشحن التجاريَّة التي كانت ترسو في المرفأ. المرفأ دُمِّر كلِّيَّةً في انفجارٍ نسف أكثر من نصف مدينةٍ كانت في طور نزاع، صحيح، لكنَّها لم تكن ميتةً بعد. الآن تبدو هذه الهياكلُ الناجيةَ الوحيدة من مجزرةٍ طاولت الحجر والبشر، وكأنَّها كائناتٌ فضائيَّةٌ هبطت على كوكبٍ ليس فيه حياة. في ظرف أقلَّ من دقيقة، كان كلُّ شيءٍ واقعًا في الأرض، كلُ شيءٍ متطايرًا في الهواء، وقد تبع ذلك الدويَّ الهائلَ انهمارُ زخَّات مطرٍ غزيرٍ نقاطُه من زجاج! نعم، أمطرت زجاجًا كان يُسمع فحيحه، قبل اختراقه الجلد وتقطيعه الشرايين. يا للرعب، مطرٌ جارحٌ غسل الطرقات والناس بما أراقه من موتٍ ودماء. ثم همد كلُّ شيء، للحظات، قبل أن ينطلق عويلٌ مكلومٌ سوَّد وجه السماء. كان يومًا أشبه بالقيامة، وما تندَّمنا وما طلبنا الغفران، إنَّما نظَّفناه ومحونا البصمات عنه

وطردنا أهالي الشهداء وجمعنا كلَّ ما يذكِّر به داخل صُرَرٍ أحكمنا ربطها ورميناها في بحرنا الجميل الوديع الذي نغصبه منذ دهرٍ على ابتلاع كلِّ ما نودُّ التخلُّص منه. فَعَلنا بأَعْيُن نصف مفتوحةٍ لإدراكنا أنَّه، ذات يوم، سيخرج إلينا غاضبًا مُستفرِغًا علينا كلّ ما أخفيناه فيه، على هيأة تسونامي جبَّارٍ كذاك الذي ضربنا قبل ألفٍ وخمسمائة عام... راحوا يتنبَّؤون بعودته في مطلع الألفيَّة الثانية، علماء جيولوجيا ومحلِّلون وأصحاب اختصاص، في الجرائد وعلى الشاشات، حتى صرنا ننام ونصحو على أخبار الوحش القادم من البحر يبلغ ارتفاع مَوجته عشرة أمتار، كما سبق أن فعل إثر زلزال عام 551، حيث ارتدَّت المياه مسافة ميلٍ قبل أن تعود على شكل موجةٍ عارمةٍ هادرةٍ دمَّرت بيروت. شاعت أخبار التسونامي القادم لا محالة، وكنَّا آنذاك نعيش سنوات هدنةٍ وإعادة إعمار، بعد صخبٍ وحروب. إلَّا أنَّ اعتيادنا على الكوارث، أفقدنا عادةَ العيشِ في سلام، فصرنا نأمل ونتمنَّى في قرارة لاوعينا أن يكون موعد وقوع زلزالنا البحريِّ قد حان، وما كنَّا لنُدرك حينها أنَّنا إنَّما جالسون فوق فوَّهة بركان!

صفحة البحر هادئةٌ زرقاء تلتمع تحت الشمس. كم تبعد نافذتي عن الشاطئ؟ لو أطلقتُ إحدى تلك الحمامات فطارت في خطٍّ مستقيم، فهل تقطع... ماذا؟ نحو ألف متر؟ ربَّما أقلّ، ما يعني أنَّ موجة تسونامي، لو ضربت الآن، فستمسح كلَّ ما أراه ويفصلني عن المياه. نحن أبناء بلادٍ تعيش فوق صدوع، لكنَّ بيروت، مثلها مثل القطط، تمتلك سبع أرواح ولست أدري كم استهلكت منها إلى الآن وكم تبقَّى لها. ورأيتُ جدارًا سميكًا من

مياهٍ رماديَّةٍ بطول الشاطئ، يتقدَّم كاملًا نحو اليابسة، مصحوبًا بصوتٍ أصمَّ هادر، يأتي على كلِّ ما يعترض طريقه ويمتدُّ تحت ناظري: الشوارع، السيَّارات، الناس، المباني، ويتوقَّف فجأةً عند أقدام عمارتي، وكأنَّه صورةٌ جمدت بسبب سوء الإرسال. وتساءلت كم يكون علوُّ طابقي، وهل ستصمد عمارتي أمام هكذا مدّ؟ وتوقَّفت مخيِّلتي هي الأخرى عند هذا الحدّ، فمحوت المدّ، ومحوت الصورة، ومحوت الانفجار، ومحوت الحرب... يا إلٰهي، ما أكثرَ ما محوتُ من أيَّامٍ أخشى إن احتسبتُها، أن يتَّضح لي أنِّي لم أعش سوى أوقاتٍ مستقطَعة في مبارياتٍ مروِّعةٍ لم يسلم منها أحد.

لم يأتِ التسونامي الموعود إذن، إلَّا أنَّ انفجارًا اعتُبر الثالث من حيث قوَّته في العالم، جاء مكانه. في البداية، قاومتُ فكرة النزول إلى المرفأ لمعاينة حجم الدمار كما فعل كثرٌ بعد كُمون الصدمة الأولى، فكان أن زحفوا من كافَّة المحافظات للتعرُّف على جثَّة عاصمتهم، أو لوداعها في نظرةٍ أخيرة. نقلت لنا الشاشات عيونًا دامعة، وأفواهًا مزبدة، ونظراتٍ كسيرة، وظهورًا محنيَّة، ورأينا من جاء بدافع الفرجة فراح يتصوَّر ويتصاور، مصرًّا على حفظ اللحظة أمام روعة المشهد المريع، ومن فكَّر بجلب كراسٍ قماشيَّةٍ تطوى وماكينة قهوةٍ وزجاجات ماءٍ باردة لبيعها لمن ساروا مسافاتٍ طويلةٍ بعد منع السيَّارات من دخول المنطقة. كنَّا في شهر آب اللهَّاب، عندما تهافت مئات الشابَّات والشبَّان، رافعين مكانسهم وكأنَّها راياتٌ في جوٍّ احتفاليٍّ جنائزيّ، يكنسون الطرقات من أرتال الزجاج والردم، ومن كثير فجيعتهم وحزنهم

على ضياع عاصمتهم بسبب الفساد والإهمال، يقدِّمون يد العون لمن يحتاج ولعددٍ من عجائز ملقيين على الأرصفة، أمام ركام بيوتهم المنهارة. صارت المكنسة ذات القبضة الطويلة في أيديهم شعار المرحلة، وبات كنس الكلِّ مطلوبًا، لا بل ضرورةً للاستمرار في العيش، فنحن مواطنون يتامى، لا دولة تهتمُّ بنا ولا مؤسَّسات.

كنتُ من القلَّة القليلة الذين لم تتضرَّر منازلهم، مع أنَّ الطابق تحتي، نُسف من الداخل بفعل قوَّة الضغط، وكأنَّ يدًا غاضبةً عملاقةً دخلته أفقيًّا ودمَّرت كلَّ ما فيه. وبما أنِّي لا أصطاف، كما يفعل جيراني، فقد أنقذني وجودي في الشقَّة وإبقائي النوافذ والأبواب مفتوحةً لصنع ممرَّاتٍ يتلاعب فيها الهواء. مالت العمارة يمينًا ثم يسارًا، بما يقارب 45 درجة، فخلتُه زلزالًا، ثم انفجارًا ضخمًا بهدف اغتيال شخصيَّةٍ مهمَّة، ثم تعطَّل تفكيري إلى أن بُثَّ الخبر وبدأ الزجاجُ يتساقط من المباني على شكل زخَّاتٍ دامت لدقائق خلتُها ساعات. السادسة والنصف تمامًا، أي بعد مرور 22 دقيقةً على حدوث الانفجار، اتَّصل بي التوأمان مرعوبَيْن.

ـ لا تخافا، أنا بخير... الشقَّة سليمة، بضعة أبوابٍ خرجت عن سكَّتها، هذا كلُّ شيء... لا، لا تكسير...

لا، لستُ بخير. لا أحد منَّا بخير. بعد أقلَّ من أسبوع، ناديتُ يوسف. جهِّز نفسَك، قلت له، سنذهب إلى المرفأ. حاول أن يعترض، لكنِّي لم أترك له المجال. أوصلَنا التاكسي إلى أقرب نقطةٍ متاحة، ثم نزلنا لنكمل سيرًا. كان الوقت وقت غروبٍ قبل

أن تحلَّ العتمة الشاملة، ولأنِّي لا أحتمل حرارة شمس الصيف. دخلت بين صفوف المشاة، كانوا كثرةً منقسمين إلى خطَّيْن: الأوَّل متَّجهٌ إلى المناطق المدمَّرة، والثاني عائدٌ يكلِّله غبارُ الردم ويبدو عليه الحزن والإنهاك. بلغنا الأحياء المدمَّرة، دخلنا منطقة الجمِّيزة، يا إلٰهي، المشهد أقرب ما يكون إلى دمار سدوم وعامورة، انفجار هيروشيما، أو زلزالٍ بدرجة 10 ريختر. انقبضت معدتي وشعرت برغبةٍ بالتقيُّؤ، وما كان إنذارًا كاذبًا لأنِّي بالفعل تقيَّأت. أجلسني يوسف على حافَّة حجرٍ وذهب يجلب لي ماء. في هذه الأثناء، تقدَّم منِّي شابٌّ انحنى يسألني:

ـ ما بكِ تيتا، أتحتاجين مساعدة؟ هل خسرت بيتك؟

رفعتُ نظري إليه، فطالعتني عيناه الواسعتان وذقنه الذي نبت بالكاد، وشعرتُ بغصَّةٍ حارقة، فارتجفت شفتاي وانعقد حلقي وغدرتني دموعي التي نزلت غصبًا عنِّي، وأنا أحاول بحركةٍ من رأسي أن أطمئنه. وصل يوسف وبيده قنِّينة ماءٍ كبيرة، فأكَّد للشابِّ أنِّي بخيرٍ وأنَّه معي وسوف يهتمُّ بي، فغادر الشابُّ وقد اطمأنَّ إلى حالي. غسلتُ وجهي وفمي من أثر القيء وشربت ماءً باردًا، ثم قمنا ومشينا وانعطفنا نزولًا ناحية البحر. كان المساء قد بدأ هبوطه، والمرفأ والميناء وعنابره وأهراءاته ساحة معركةٍ طاحنةٍ تسكنها الأشباح. خفَّت الحركة من حولنا وبدأت أشعر بالتعب، فتقدَّمت إلى مقعدٍ حجريٍّ واقتعدته لأستريح. بقي يوسف واقفًا ناظرًا إلى ما ورائي، فيما كنت أتأمَّل المباني المواجهة مبقورة، مشوَّهة، عليها آثار أصابع الإجرام والحريق. ما هو هذا النيترات الذي تحدَّثوا عنه وأحرق مدينةً بأهلها؟ من وضعه هنا وكيف أُبقي

عليه على الرَّغم من كلِّ التحذيرات؟ البشر هنا كلَّهم مشاريع قتلى، معروضين للذبح، للنَّسْف. نظرت إلى يوسف ودعوته أن يجلس بقربي، فاستدار على نفسه وقعد بجانبي صامتًا، يداه مضمومتان بين ساقَيْه ووجهه متدلٍّ حتى ليكاد يلامس الأرض.

ـ من أين أنت، يا يوسف؟

ـ من عفرين، ضواحي حلب.

ـ سنِّيٌّ أو علويّ؟

ـ أمِّي علويَّةٌ ووالدي سنِّيّ.

ـ هاربٌ من الجنديَّة؟

ـ لا، خدمتُ عسكريَّتي، لكنِّي هاربٌ من الحرب.

حلَّت عتمةٌ سميكةٌ لا تخترقها إلَّا أضواء بعض السيَّارات العابرة من بعيد، فأحسستُ أنِّي ويوسف نتشارك اللحظة، أسى العالم كلِّه وبؤسه. ما أشقانا، فكَّرت، من بؤسٍ إلى بؤس، ومن دمارٍ إلى آخر، ومن موتٍ إلى موت. آلمتني حالُه ووعدت نفسي أن أكون من الآن فصاعدًا لطيفةً معه، فأرأف به ما استطعت، ولا أحرجه بطباعي، ولا أتنمَّر عليه. شبكتُ يدي بذراعه، وبصوتٍ مطفأ قلت له:

ـ قم، يا يوسف، لنعُد إلى البيت.

عابسًا، سألني البيطريُّ دون أن يرفع نظرَه إليّ، ما اسمُها؟ بدا ممتعَضًا وشبه مهيَّأ لشِجار، وقد ظهر سخطُه واضحًا عندما تأخَّر جوابي، فبحلق بي وهو يزمُّ عينَيْه وشفتَيْه معًا، ثم نتع برأسه راسمًا على ملامحه علامةَ استفهام.

بقيتُ صامتة، فأعاد السؤال هذي المرَّة بلؤم جليّ، ورفع من نبرة صوته كمن يُضيف كيلوغرامًا كاملًا من السكَّر إلى فنجان قهوةٍ تبرَّم محتسيه من بعض مرارة. لم أدرِ بِمَ أُجيبه وما ارتسم على وجهي أيُّ تعبير، فأنا لم يخطر لي يومًا خلال أكثر من عامَيْن، أن أُطلق على هذا الكائن الساكن المتكوِّم على نفسه الآن تحت ناظري، أيَّ اسم. كنتُ بيني وبين نفسي، أسمِّيها قطَّةً وأبخل عليها حتى بأل التعريف حرصًا منِّي، لا بل إصرارًا، على عدم نسبها إليَّ واعتبار أنِّي وليَّة أمرها، بأيِّ شكلٍ من الأشكال. فأنا لم أنسَ أبدًا كيف دخل هذا المخلوق اللّجوج شقَّتي عنوة،

فغضضتُ الطرف عن وجوده على الشرفة. مجرَّد ورطةٍ قد تقع لأيٍّ كان، ولولا حكمة يوسف أو بالأحرى تبصُّره، لما أدركتُ حتى إنَّها أنثى، وذلك على الرَّغم من بطنها المدلوق وأثدائها التي تشي بأنَّها قد حملت وأنجبت وأرضعت، وحملت وأنجبت وأرضعت، كما يحصل في العادة لذوات البطون من المنجبات.

رفع البيطريُّ عينَيْه إلى السقف وتنهَّد بقوَّةٍ بما معناه: ليس أمامي النهار بطوله، ثم نقل نظره إلى يوسف مستفهمًا، فما كان من هذا الأخير إلَّا أن خفض بصره مربَكًا، مُرجِعًا إليَّ وحدي صلاحيَّة الردِّ على استفساراته. وفكَّرت: هل البيطريُّ طبيبٌ فعلًا؟ هل هو اختصاصٌ دُرِّس في كلِّيَّةٍ أو معهدٍ وتُمنح بموجبه شهادةٌ رسميَّة، كما في الطبِّ البشريّ؟ أأناديه «دكتور» وأخبره أنِّي لم أعطِها اسمًا، وأضيف سلفًا وقبل أن يطالبني بمزيدٍ من الاستفسارات، أنِّي لا أعرف عمرها ولا متى بدأ مرضها، لأنَّها ليست قطَّتي في الأصل؟

حملقتُ حانقةً في يوسف الذي كان قد أشار عليَّ بضرورة المجيء لأنَّ البيطريَّ أخذ عيِّنةً من دم القطَّة وطلب حضور صاحبها، «فله معه كلام»، فكان أن ارتديتُ ثيابي مرغمةً، مخمِّنةً أنَّه قدَّر من لكنة يوسف ومظهره، أنَّه غير قادرٍ على دفع كلفة المعاينة والعلاج. وتوعَّدتُ يوسف في سرِّي أنْ سيكون لي معه كلامٌ بعد خروجنا من العيادة، فهو قد بدأ يأخذ راحته معي أكثر من اللزوم إذ ظلَّ يردِّد أنَّها مريضةٌ جدًّا وتئنُّ وتبكي مثل ولدٍ صغير. حتى سمحتُ له بحملها إلى العيادة، فاختار هذا البيطريَّ اللئيمَ لوجوده في الشارع الموازي القريب، إلى حيث يصطحب

الجيرانُ كلابهم وقططهم. كلُّ الحقِّ عليّ! أُشركه في قراراتٍ وقضايا ليس له فيها، ويزيد ولداي الأمور سوءًا عندما يتواصلان معه باستمرارٍ ويكلِّفانه بمهامَّ تمنحه الشعور بوصايةٍ ما عليّ. طلبت أن يسأل الجيران عن بيطريٍّ يعرفونه وقد تحوَّل مواؤها أنينًا متواترًا خفيضًا كأنَّه فعلًا لطفل. لولا صوتُها الذي بلغ الطوابق السفلى، لكان من الممكن تفادي هذه الزيارة، فالحيوانات إذ تمرض، تمرض، وإذ تموت، تموت! تلك هي قناعتي ـ وليس لها أن تذهب إلى عياداتٍ وتُجري عمليَّاتٍ وتتعاطى أدويةً وعقاقير. الحيوانات، لو سئلت رأيها، فهي لن تقبل المجيء إلى من يعبث بها ويشقُّ بطونها ويعطيها حقنات! لكنَّ الجيران نبَّهوا يوسف وشكوا إليه سماعهم نواحَها الذي لا يُطاق، فكان ما كان.

تحرَّكت القطَّة فوق طاولة المعاينة كأنَّها سمعت أفكاري، رفعت رأسها وبالكاد نظرت إليّ، قبل أن تمدَّ إحدى قائمتَيْها الأماميَّتَيْن فتُلقي ذقنها عليها مغمضة العينَيْن. تبدو مريضةً بالفعل، فقد هزلت وتناقص حجم بطنها بشكلٍ ملحوظ. «حقنتُها بمسكِّن»، قال البيطريُّ مطمئنًا، لذا ترونها تتحرَّك بخمول، ثم أضاف خافضًا صوته، متوجِّهًا بكلامه إلى يوسف بعد أن اقترب منه:

ـ جِد طريقةً لإخبار السيِّدة أنَّ قطَّتها مُصابةٌ بسرطانٍ في جهازها الهضميّ، قد يكون بدأ في المعدة وانتشر في الأمعاء. العلاج الكيميائيُّ أو جلسات الراديو لن تنفع، فلم يبقَ أمامها بتقديري سوى أيَّام. أنصح بحقنةٍ تُنهي حياتها وتفديها مزيدًا من الوجع، لكنَّها مكلفة، 50 دولار... يمكنك أخذها الآن، 40

دولار لمعاينة اليوم، مع تحاليل الدم وسواه.

نظر إليَّ يوسف مصعوقًا، ولم أتميَّز إن كانت صدمته ناتجةً عن ارتفاع ثمن المعاينة والحقنة، أم عن خبر إصابة حيوانٍ بأمراضٍ يعاني منها الناس. لم أقل شيئًا ولم يرتسم على وجهي أيُّ انفعالٍ يُفهم البيطريَّ أنِّي سمعتُه. فتحتُ محفظة نقودي وأخرجت ثمن المعاينة، ثم وضعته على الطاولة أمامي واستدرتُ أهمُّ بالخروج، لا يعنيني أن أرقب ردَّ فعله وقد تنبَّه إلى كوني أسمع جيِّدًا ولستُ ثقيلة السمع أو صمَّاء. حمل يوسف القطَّة ليُدخلها في قفصها، بعد أن لحظ استعجالي المغادرة، فهبَّ البيطريُّ واقفًا واقترب منِّي وهو يسدُّ لي الطريق:

ـ رجاءً اعذريني! أنا بيطريٌّ وقد اخترتُ هذي المهنة بطوعي لأنِّي أحبُّها. لكنَّ طريقة تعامل الناس معي ومع حيواناتهم، جعلتني أكرهها وأتمنَّى لو أنِّي أتركها لأيِّ مهنةٍ أخرى.

وقبل أن يتمَّ جملته الأخيرة، كان قد جلب كرسيًّا وأخذني من ذراعي برفق، مقترحًا أن أجلس قليلًا معه لأنَّه يودُّ أن يُخبرني بأمر. يخطئ للمرَّة الثانية فكَّرت، إذ يظنُّ أنَّ ما أخرسني هو حزني الشديد على فراق «طفلتي»، أنا العجوز المستوحدة التي لا سند لها في الحياة. لكنَّه لم ينتظر موافقتي، بل قال متنهِّدًا وهو يسحب مقعدًا دائريَّ القعدة متحرِّكًا من جانب طاولة المعاينة ويستقرُّ قبالتي، قدمٌ على الأرض والأخرى على العارضة الحديديَّة التي تجمع في الأسفل رجلي الكرسيِّ الأماميَّين.

ـ لا تُسيئي فهمي سيِّدة...

ستّ مَيْ! أجاب يوسف مستعجلًا وكأنَّه وجد أخيرًا الوظيفة التي تبرِّر وجوده على هذه الأرض. تشرَّفنا، ستّ مي، أعاد البيطريُّ من ورائه، وقد تلوَّن صوته بلطفٍ مستجدّ، قبل أن يتابع بنبرةٍ يُثقلها الهمّ:

ـ في الآونة الأخيرة، ومع استفحال الأزمة الاقتصاديَّة، بدأ معظمُ الناس يتخلُّون عن حيواناتهم، إمَّا بسبب مغادرتهم البلاد، وإمَّا بسبب فقرٍ مستجدٍّ طاول الجميعَ من دون استثناء. فمن تُراه بقي قادرًا على شراء أطعمة، أو توفير طعوم، أو دفع كلفة بيطريّ، وهذه كلَّها كما رأيتِ تثمَّن بالدولار الذي جعل يرتفع ويرتفع حتى بلغ سقفًا منع الناس حتى من شراء الغذاء لأطفالهم. أعتذر مجدَّدًا عن سوء تصرُّفي، فما أشهده هنا، في هذه العيادة، قرَّفني مهنتي وقلب مبادئي وغيَّر نظرتي إلى الحياة. الأسبوع الماضي مثلًا، جاءني اتِّصالٌ من مكتب رئاسة البلديَّة يدعوني إلى مقابلة الرئيس بهدف استشارتي في موضوعٍ مهمّ. ذهبتُ بالطبع، وبعد سلامٍ وكلام، قال لي: «نحن نواجه مشكلةً كبيرةً مع الحيواناتِ الداشرة التي تتكاثر على نحوٍ فظيعٍ وتهدِّد أمن السكَّان. مؤكَّدٌ أنَّك سمعتَ بالكلبة المستشرسة التي هاجمت طفلةً بعمر السنتَيْن وشوَّهت وجهها لباقي العمر... هناك حملةٌ بدأتها بعضُ البلديَّات بالتعاون مع جمعيَّات الرفق بالحيوان، تُسيِّر شاحناتٍ تجمع الحيوانات التي تجدها في الطرقات، وتحملها إلى ملاجئ مخصَّصةٍ لاستقبالها. لكن هذي الملاجئ فاضت وما عادت تتَّسع للمزيد... ففكَّرنا بطريقةٍ إنسانيَّةٍ للتخلُّص من بعضها، وتحديدًا تلك التي توحَّشت ومرضت وصارت تتهدِّد أمن

الأطفال». وإذ خلتُ أنّي فهمتُ ما يطلبه منّي، سارعت بالقول إنَّ حقن الموت الرحيم، إنْ توفَّرت عن طريق الاستيراد، تبقى باهظة الأثمان وكلفتها تفوق بكثيرٍ كلفة توفير المأوى والغذاء، فنظر إليَّ مستاءً، وقال بصوتٍ يحاول كتم غيظه: «ومن طلب منك موتًا رحيمًا، وعن أيِّ حقنٍ مكلفةٍ تتحدَّث؟ أتريد أن تحصل ثورةٌ أخرى في البلاد؟ ألا ترى أنَّ الناس غير قادرةٍ حتى على مداواة أبنائها أو إطعامها؟» ثم وقف صارخًا لمعاونيه أن يخرجوني من مكتبه على الفور، شاتمًا إيَّاهم أين وجدوني ولماذا جاؤوا بي إليه... أوَتعلمين ما كان غرض استدعائي؟ أن أرشدهم إلى كيفيَّة التخلُّص من الحيوانات الداشرة بالجملة، سريعًا وبأقلِّ كلفةٍ ممكنة. أتى بي، أنا البيطريّ، لأساعده في ارتكاب مجزرةٍ كبرى بحقِّ حيواناتٍ أليفةٍ ذنبها الوحيد أنَّ أصحابها أُفقروا، فرموها إلى الطرقات، فدشرت.

صمت البيطريُّ وقد بدت على وجهه الذي انكمش فجأةً أماراتُ قرفٍ واشمئزازٍ تجعل الناظر إليه يتخيَّله غارقًا وسط أكوامٍ من الجيف مختلطة الأعضاء، تنبعث منها رائحةٌ مخيفةٌ حدَّ تقيُّؤ كلِّ ما في الأمعاء. وقفزت إلى رأسي مشاهدُ من شرائط مصوَّرة بالهاتف الذكيِّ راجت على وسائل التواصل الاجتماعيّ. وتذكَّرتُ واحدًا بعيَنه قامت إحدى القنوات ببثِّه ضمن حملة تشهيرٍ بحفلات تعذيبٍ تُجرى بحقِّ حيواناتٍ على أيدي «حيوانات» ناطقة. كلبٌ صغيرٍ معلَّق من رقبته بحبل، يقوم «فحل» بصفعه لأرجحته. لم يكن عواء الكلب الصغير استجارةً هو المؤذي، وإنَّما منظر «الآدميّ» الذي كان يضحك ملء شدقَيْه، وقد بدا «وحشًا» متقاعدًا

من أولئك الذين تركتهم الحربُ على جوعهم المزمن إلى التعذيب والقتل. أجل، ذات يوم، كانت في بلادنا حربٌ لسنا نعرف إن كانت قد انتهت فعلًا، وثمَّة من ارتكب بأبرياء ما ارتكبه ذلك الفحل بالكلب، فكَّرت وأنا أنظر في وجه بيطريٍّ تشي خطوطٌ قليلةٌ عند زاويتي عينَيْه أنَّه لم يعرفها تلك الحرب، ولم ينعم مباشرةً بأفضالها، وإن تمتَّع بكلِّ ما خَلَفَته. ثم سألتُه وقد باغتني اهتمامي:

ـ وهل وجدوا طريقة؟

ـ زميلةٌ لي تعمل في مأوى للحيوانات في جبلٍ قريب، أخبرتني عن وجود مستودعاتٍ حُوِّلت سرًّا إلى معسكرات إبادةٍ يُرمى فيها الكلسُ بكمِّيَّاتٍ فوق الجثث كي لا تنتشر الرائحة. وإلَّا، فأين اختفت فجأةً كلّ تلك القطط والكلاب التي كنَّا نراها هائمةً في الطرقات؟ اللبنانيُّون يهاجرون اليوم بالآلاف، قلَّةٌ قليلةٌ جدًّا قادرةٌ على اصطحاب حيواناتها معها. لكن، هناك بالمقابل مَن ما زالت في قلوبهم رحمة، يأتون بحيواناتهم إليَّ علَّني أجد لها ملجأ. وحين يكتشفون استحالة الأمر، وبعد تفكيرٍ في المصائر البائسة التي تنتظرها، وإذا كانت إمكانيَّاتهم تسمح لهم بذلك، يطلبون لها الموت الرحيم مخافةَ أن تصبح فرائس سائبةً لحيواناتٍ أخرى داشرة، أو لمجرمين ساديِّين... بالنسبة إلى قطَّتك، ست مي...

وقفتُ متعجِّلةً وقد شعرت بغثيان، فوقف بدوره يعرض المساعدة، فشكرته قائلةً إنِّي أفضِّل الانصراف فورًا، والعودة لاحقًا.

ـ لا تقلقي.. أعرف أنَّ الأمر صعب، لكنَّها لن تشعر بأيِّ ألم، وسيكون الأمر كما لو أنَّها تنام. المشكلة، أنَّ عدد الحقن يقلّ، ولست واثقًا من إمكانيَّة الحصول على المزيد، نظرًا لارتفاع الأسعار وصعوبة الاستيراد. أتريدين أن أحجز لها إبرة؟

سأفكِّر بالأمر، أجبت دونما تفكير، ثم أومأت ليوسف بأن يضع القطَّة في قفصها وخرجتُ كالسهم. لستُ أدري من أين أتتني هذه المقدرة المفاجئة على المشي بسرعةٍ وثبات، وما الذي بعث فيَّ كلَّ هذا النشاط. أخذتُ الرصيف المقابل حيث تضرب شمسٌ قويَّةٌ لم أرد الاحتماء منها، وجعلتُ أثناء تقدُّمي، أتفرَّج على ما في واجهات المحلَّات والدكاكين دونما اهتمام فعليّ. حاولتُ لبرهةٍ التفكُّر بما أشعر به، إن كان حزنًا أو أسفًا أو قرفًا، فلم أقع على شعورٍ واضح، ثم قرَّرتُ أن أنشغل بتسوُّق ما أحتاج إليه، فأقوم لمرَّةٍ بشرائه بنفسي. لكن، لم يخطر لي شيءٌ حتى بلغتُ حانوتَ بائع الخضار الذي اتَّسع متعدِّيًا على الرصيف، ما اضطرَّني إلى التوقُّف أمامه. وبين أن أنزل إلى الطريق، أو أجتاز إلى الرصيف المقابل، قرَّرت التمهُّل أمام ما سدَّ دربي، ورحتُ أتفرَّج على كمٍّ من صناديق بلاستيكيَّةٍ تتجاور وتتخاصر، متَّكئةً إلى بعضها البعض، وهي تحوي، لا بل تفيض بنوعيَّات الخضار والفواكه وقد تخالطت روائحها، وتنافست ألوانها، وبدت طازجةً لامعةً وكأنَّها قُطفت للتوّ.

ألقى صبيُّ البائع مرشَّة الماء التي كان يمرِّرها فوق الصناديق من يده، متعجِّلًا في التقدُّم نحوي وهو يرفع كيسًا بلاستيكيًّا شفَّافًا أزرق، نفخ في طرفه لكي تنفصل طبقتاه، على أمل أن أملأه بما

يحلو لزبونةٍ مثلي لا يوجد في الحانوت سواها، أن تستحلي وتختار. جلتُ بنظري على محتوى الصناديق، راقني لون الفجل الأحمر وأخضر الأعشاب، وألوان فاكهة الصيف، كرزٌ ومشمشٌ وتفَّاح... يحمل أبي الدرَّاقة الكبيرة في يده ويرفعها إلى أنفي لكي أشمَّ رائحة درَّاق بكفيَّا الزكيّ، وكذا يفعل مع يوسف أفندي صور، والطماطم الجبليَّة والنعناع البلديّ. يحاول أن يفتح شهيَّتي، أن يعلِّمني أصول الاختيار، ويضحك حين أغطِّس يدي بين الخضار السابحة في طشتٍ تملؤه مياه الحنفيَّة الجارية دون توقُّف، يلتقطهما معًا ويقرِّبهما من وجهه متسائلًا: ما هذا النوع الغريب من الفاكهة، ثم يفتح فاه وكأنَّه مُقبلٌ على قضمهما، فأسحبهما صارخةً وأنا أتفرَّج عليه يرفع ما اغتسل وانتعش جيِّدًا على صينيَّةٍ من القشِّ يحملها إلى الشرفة، لتتصفَّى وتجفَّ على مهل، كما تفعل عمَّاتي وجدَّتي. كان أبي لا يفوِّت وجبةً دون إرفاقها بسلطة، ولا بدَّ من حضور الخضار والفواكه على مائدة الطعام. يشعره ذلك بنوعٍ من الأمان، فيروح يُسمِّي الڤيتامينات التي تقصَّى عن فوائدها ويحثَّني على الأكل، فيتحوَّل الطعام في عينيَّ إلى موادَّ لتدعيم العظم وتفتيح الذهن وتوفير الكلسيوم والحديد...

نفَض الصبيُّ كيسه البلاستيكيَّ بقوَّةٍ ليستحثَّني على اختيار ما أريد، فاستقرَّت عيناي على بطِّيخةٍ صفراء. هذه، أشرتُ له، فتقدَّم يوسف يهمس أن لا ضرورة لأُتعب نفسي فهو سيرجع وحيدًا متخفِّفًا من القطَّة ـ ومنِّي ـ ويشري لي ما أريد. وضع الصبيُّ البطِّيخة في الكيس، زانها وحدَّد ثمنها، فدفعتُ، وركض

يوسف يحملها بيده الثانية، واستأنفنا المسير.

لِمَ اخترتُ بطّيخًا أصفر وأنا لا أحبُّه ولا آكله؟ لأنَّه لا يحتاج انتقاءً وتجميعًا ويكفي اختيار ثمرةٍ واحدةٍ لا غير، ولأنِّي شعرتُ بغضبٍ مكبوتٍ لا أدري من أين طلع لي، أنا التي تمرَّنتُ طويلًا على العيش بفتورٍ ودونما انفعال، من نوع الحزن أو الغضب أو حتى الحبّ!

لم أُرد ليوسف أن يدخل المصعد معي ليرافقني إلى شقَّتي. أردته أن يبقى في مكانه تحت، وأن يتركني أصعد وحيدةً الطوابق التسعة إلى بيتي. نظر إليَّ مستغربًا، لا، قلت آمرة، ثم أشرت له أن يضع قفص القطَّة أرضًا وأن يُبقي الكيس في يده لأنِّي لا أريد البطِّيخة. لم يفهم ردَّ فعلي، وأنا لم أرِد أن أُفهمَه. لا أدري ما الذي كان يُشعرني بوجود طارئٍ ما وأنَّ عليَّ التصرُّف كما أفعل، فأسبقه إلى رغبتي قبل أن يسبقني إلى تصرُّفه المعتاد. بات يُتعبني! لا أحبُّ حرصَه الزائد وعنايتَه المبالِغة ونظراته الكسيرة كما لو أنَّها لكلبٍ يشعر بتخلِّي سيِّده عنه. أنتَ لستَ كلبًا، يا يوسف! أودُّ لو أصرخ به، ولا يهمُّني ما يكلِّفك به توأماي! لا أريد أن يطالبني أيُّ مخلوقٍ بأيِّ عاطفةٍ أو عطف، أريد أن أشعر أنِّي طليقةٌ وألَّا أحد يقف في مرمى حركتي أو يُعيقها. أريد أن أتصرَّف على هواي، متى شئتُ وكيفما شئت.

أشرت له أن يُغلق الباب بسرعة، ثم كبستُ الرقم تسعة. أفّ، أخيرًا! استدرتُ لأقف في مواجهة المرآة المستطيلة التي تصل حدَّ الخصر، أطلتُ عنقي بأكثر ما استطعت، فما بلغت المستوى المعتاد. بلى، بتُّ أقصر اليوم ممَّا كنت عليه! ثمَّة ما يضيع منِّي يوميًّا، يسقط في سريري، أو في أثناء الاستحمام. يجب أن أزن نفسي، ولن أُفاجأ لو اكتشفت أنِّي لا أقصر فحسب، بل أَخِفُّ أيضًا. التفتُّ إلى القفص بجانب قدمي. القطَّة ساكنةٌ لا تتحرَّك، برغم نقلها وحملها وخضخضتها طوال طريقنا إلى البيت. ستموتين، حكم عليك البيطريّ! أنتِ أيضًا ستموتين، قلتُ للمرأة الواقفة قبالتي في المرآة. هل خمَّن البيطريُّ عمرَك؟ لا أذكر، لا أظنُّك كبيرة السنِّ مثلي. ماذا جاء بك إليَّ أيَّتها المجنونة، عاثرة الحظّ، وهل تراك تدركين معنى الموت؟ على عكسنا، أعتقد أنَّ الحيوانات تتقبَّل الموت وما يترتَّب عليه، فلا تقاوم مصيرها ولا تبحث عن خلاص. تكفي مراقبة أسدٍ جريحٍ يبتعد عن قطيعه، أو قردةٍ مكلومةٍ تجرجر وليدها الميِّت، أو فيلٍ يروح ويجيء حول جثَّة أحد أفراد قطيعه.

دخلتُ شقَّتي وبشكلٍ آليّ، استدرت نحو الصالون بِنِيَّة إيداع القفص في مكانه المعتاد على الشرفة، لكنِّي فجأةً عدلتُ، فذهبت إلى غرفة الجلوس حيث وضعته أرضًا، ألقيتُ حقيبة يدي على المنضدة، ودخلتُ الحمَّام أغسل وجهي المتعرِّق ويديّ. كنت أشعر أنَّ ثمَّة ما سيحصل لا محالة وأنَّ من واجبي أن أستعدّ. أستعدّ، حسنًا، إنَّما لماذا وكيف؟ وشعرتُ وكأنَّ عمري الذي كان يُثقلني وكان متجمِّدًا حارقًا مثل قطعة جليد، قد ذاب فجأةً وتحوَّل

بخارًا وماء. جفَّفت وجهي، وعدت إلى غرفة الجلوس. اقتعدتُ الكنبة التي وضعتُ القفص أسفلها، ثم مددتُ يدي أفتح بابه. لكزتُ القفص بقدمي وانتظرت، فلم تخرج وما تحرَّكت. أتكون قد نفقت؟ منذ أبعد ما أذكر، كنت أشعر أنَّ موت الحيوانات يتهدَّدني، منذ كان أبي يجلب لي عصافير وأسماكًا حمراء وفراخًا صغيرةً صفراء كي أفرح بها، فأعود من مدرستي لأجدها متخشِّبة، ملقيَّةً على ظهورها بقوائم مرفوعة، أو طافيةً على سطح الماء. كنتُ لا أفهم أين تذهب تلك الطراوة وذلك الدفء اللذين كنت أشعرهما في كفّي، وكيف يصير ذلك العصفور الصغير اللذيذ شيئًا قاسيًا وباردًا وميِّتًا إلى هذا الحدّ؟ كنت أبكي قهري وأشعر بالحزن، وكأنَّ الدنيا بأسرها تكاتفت ضدِّي لتسلبني من أحببت، بدءًا من أمِّي، وصولًا إلى أصغر مخلوق. ثم صرت لا أبكي وأجد أنَّ الحيوانات تكرهني وتأتي لتموت في بيتي نكايةً بي، ثم صرت أتناساها وأغضُّ النظر عندما أفطن أنَّ ما نفق في غيابي قد تمَّ استبداله بالسرّ. إلى أن دخلتُ في نوبة غضبٍ ذات يوم، وصرختُ في وجه أبي أنِّي أكره حيواناته وأريده أن يكفَّ عن جلب المزيد. وحدها سلحفاةٌ صغيرةٌ نجت، فلم أحفل بها لأنِّي كنت قد أغلقت قلبي لتفادي كلَّ ما يشكِّل مصدر قلقٍ وعذاب. أجل، تعلَّمتُ ذلك مبكرًا ونجحت إلى حدٍّ ما. إلى أن...

انحنيتُ أتفقَّدها. كانت ساكنة، مفتوحة العينَيْن. مددت لها كفِّي أدعوها إلى الخروج، فحرَّكت رأسها قليلًا، ثم قرَّبت ذقنها وألقَتْه على راحتي. منهكةٌ إلى درجةٍ تمنعها من الوقوف. قمتُ وركعت وأدخلت يديَّ وسحبتها، أنَّت قليلًا، ثم استكانت.

اقتعدتُ الأرض مستندةً بظهري إلى الكنبة، مددت ساقيَّ ثم وضعتها إلى جانبي وألقيتُ كفِّي على ظهرها. تتنفَّس بانتظام. قال البيطريُّ إنَّ أمامها أيَّامًا. ماذا تفعل بأيَّام يتوعَّدك الموتُ في نهايتها؟ الوقت، إذ يكون قابلًا للاحتساب، لا يعود وقتًا. يصير عدَّادًا. شرطُ الحياة الأوَّل أن لا يُحتسب الوقت، وإن يكن في النهاية محتسبًا.

نهضتُ بصعوبةٍ عن الأرض. ركبتاي تئزَّان. ذهبتُ إلى الشرفة وحملت وعاءَي الأكل والماء وذهبت بهما إلى المطبخ. رميت ما فيهما وغسلتهما ثم جفَّفتُهما. فتحتُ خزانة الأكل وتناولت علبة تونة فتحتها ووضعتها في الأوَّل، ثم وضعت ماءً قليلًا في الثاني أذبت فيه حبَّة أسبرين للأطفال نصحني دكتور داود بتناول واحدةٍ منها كلَّ يوم، منعًا لتخثُّر الدماء. لا أعرف إن كان الأسبرين يُفيدها، ربَّما إذا شربَتْه، ثم ذهبتُ إلى غرفة النوم واستللتُ من خزانة البياضات منشفةً مخمليَّةً طويتها أكثر من مرَّةٍ حتى صنعتْ ما يشبه أريكة. سحبتُ البساط الذي أسفل سريري، وعدت إلى غرفة الجلوس. مددتُ البساط ومن فوقه المنشفة ووضعت بقربهما الوعاءَيْن، ثم أخذتُ القطَّة ورفعتُها بين ذراعيّ: جائعة يا...؟ وتذكَّرت أنِّي لم أسمِّها، وتساءلت هل بات عليَّ أن أفعل الآن، قبيل مغادرتها؟ ألقيتُها برفقٍ فوق المنشفة، وملَّست على رأسها، وقرَّبت وعاء الأكل من أنفها علَّه يفتح شهيَّتها، لكنَّها لم تُبدِ اهتمامًا. لا بأس، ماذا عن الماء؟ هيَّا، اشربي، سيريحك الأسبرين. لعقتِ القليل، ثم كوَّرت جسدها وأغمضت عينَيْها.

حين مرضت أمّي، توقَّفتُ عن التعاطي معها. صرتُ أنظر إليها من بعيدٍ ولا أقترب إلَّا مجبرة. وإذ تهدأ الحركة في البيت، أحشر رأسي في شقِّ الباب المتروك منفرجًا كي يتنبَّهوا إلى صوتها إن نادت، وأروح أتأمَّلها ممدَّدةً في سريرها، تحيط برأسها عُصبةٌ قبيحةٌ تخفي صلعَها المستجدّ. كان مرعبًا في البداية أن أراها تسرِّح شعرها الطويل أمام المرآة، فألحظ خصلًا بأكملها تبقى عالقةً في يدها وعلى الفرشاة، خصلًا حاولتُ ذات مرَّةٍ أن أُعيدها إلى رأسها وهي نائمة، فكان أن استيقظت وأبعدتني بعنف، قبل أن تدخل في نوبة بكاءٍ وصراخ. صارت أمّي تُشبه ساحرةً قبيحةً شرِّيرة، أقول لأبي، فتدمع عيناه: سيعاود شعرُها النموَّ من جديد، يقول مختنقًا بغصَّته، متفاديًا ملاحظة الشرِّ في ما أقول. والحقيقة، كنتُ مرتعبةً ممَّا تؤول إليه، إلى درجة رفضها والنفور منها. أرتجف في سريري وأبول تحتي كلَّما فكَّرت أنَّها ستموت. كنتُ على يقينٍ أنَّها ستموت، برغم تأكيدات أبي وجدَّتي وعمَّاتي وكلِّ من جاء للزيارة، وترددهم جميعًا أنَّها ستطيب وتعود إلينا من جديد، فما عليَّ إلَّا أن أُصلِّي للربِّ من أعماق قلبي وهو سيستجيب. أقف أمام شقِّ الباب أرقبها تذوي، وأفكِّر أن لا صلاة ستنفع في حالتها مهما كانت نابعةً من القلب، وأنَّ الربَّ ربَّما يعاقبها على خطأ ارتكبَتْه. تئنُّ في نومها، وإذا ما فتحتْ عينًا أو تحرَّكت، هلعتُ وهربتُ فورًا قبل أن تلحظ وجودي.

ثم تَبَخَّرْت. ما عادت تطلبني أو تسأل عنِّي أو تراني. توقَّفتُ عن أن أكون طفلتها ومكاني، حلَّ مرضُها، أوجاعها، عقاقيرها، خوفها. هي التي لم تكن تُجيد إظهار حبِّها لي كما أبي، كانت

تلاحقني بعينَيْها وتُدثِّرني بهما. كانت أمِّي عينَيْن فقط، نظرات، التفاتات، ولم تكن يَدَيْن وذراعَيْن وحضنًا كما كان هو. وحين مرضت، كأنَّ سحابةً حلَّت فيهما وجعلتهما غائمتَيْن. المرضُ سحابةٌ قاتمةٌ جاءت تُقيم في وجهها الصغير، وما رحلت حتى أمطرت في بيتنا حزنًا ودموعًا.

telegram @
yasmeenbook

عنوة، فُتحت عيناي. لم يكن فيهما أثرٌ لنومٍ أو نعاس، صحتا وكأنْ وحدهما واتَّسعت حدقتاهما لأنَّ الليل كان في تمامه والساعة متأخِّرة.

قدَّرت أنَّها نحو الثالثة. ما الذي فتحهما هكذا، وكأنَّهما منفصلتان عنِّي ولا تأتمران بي. جسدي كلَّه كان نائمًا ما عداهما. أُغلقهما، فيُفتحان من جديد، وكأنَّهما بؤبؤا دميةٍ من زجاج. ما الذي أراه؟ لا شيء، ما الذي أسمعه؟ لا شيء. بلى هناك صوتٌ وليس في الخارج، بل هنا داخل البيت. أصختُ السمع، صوتٌ بعيدٌ خفيض، لا يُفترض أن يوقظ أيًّا كان، ومع ذلك أيقظ عينيّ. استقمتُ في سريري بهدبَيْن لا يرفَّان. سكون. صوت نباحٍ بعيد. رجْع سيَّارةٍ تؤوب من مشوارها... ثمَّة حركة قريبة! هناك شخصٌ يتحرَّك، يسير، يتوقَّف. يا إلٰهي، أتكون هي

قد عادت من جديد؟ ربَّما هي القطَّة تحسَّنت حالها وراحت تجول بين الغرف والممرَّات.

قمتُ من فراشي على مهل، ثم خطر لي ودونما اقتناعٍ حقيقيّ، أنَّ لصًّا قد دخل بيتي. وسرعان ما أزحت الفكرة الغبيَّة إذ أنَّى له أن يدخل متجاوزًا بوَّابة الحديد ويوسف وبوَّابتيْ شقَّتي، الحديديَّة والخشبيَّة، المقفلتَيْن؟ دخلت غرفة الجلوس على رؤوس أصابعي. تفقَّدت القطَّة، ما زالت تتنفَّس مكوَّمةً في مكانها فوق الغطاء. رفعت رأسي نحو النافذة، الهدوء في الخارج مُخيف. من دون كهرباء، لا حركة طبيعيَّة، فقط كائناتٌ صاغرةٌ قلَّما تحرَّكت كي لا تستدعي إليها المزيد من رمالٍ متحرِّكةٍ إذا وقعتَ فيها، وجبَ عليك البقاء دون حراك. فكَّرتُ بإشعال شاشة التلفزيون طلبًا لإنس، أو بالأحرى طردًا لأرقٍ يُنذر بالبقاء. لكن لا، فالشاشة الصغيرة بالوعةٌ كبيرةٌ ينبغي إحكامُ سدِّها كي لا تتسرَّب منها فوضى العالم وروائح تحلُّله.

رحت إلى المدخل. المطبخ عن يميني والصالون في مواجهتي. توقَّفت، لا صوت. هل بدأت حدود الواقع تمَّحي في ذهني؟ العجائز كلُّهم يسيرون في هذا الاتِّجاه، قلَّةٌ منهم تخرج عن هذا المسار والمصير. نفضت رأسي، وإذن ما المخيف في دخولي الصالون الآن والخروج إلى الشرفة لتنشُّق بعض الهواء، كما أفعل عادةً حين يعصى عليَّ الرقاد؟ خطوتُ خطوتَيْن، إلَّا أنَّ قشعريرةً حادَّةً اخترقت ظهري ودفعتني إلى الإمساك بقبضة باب

الصالون وإغلاقه بقوَّة، ومن ثم إدارة المفتاح في القفل منعًا لأيِّ التباس.

إنَّه الخوف، مـمّ؟ لست أدري. كان يجب أن أقف في المطبخ لدقائق، لكي أستعيد رباطة جأشي، فأسكب لنفسي كوبًا من الماء البارد أمرِّره على خدَّي المشتعلَيْن قبل أن أشربه دفعةً واحدة. الآن، أنا أفضل قدرةً على التفكير. أعرف أنَّ ما فعلته غير عقلانيّ، لكنِّي أترك أمر التفكير به إلى الغد. الآن، يجب أن يعود الليل إلى هدأته، رتابته، وأن أعود أنا إلى النوم. لكنَّ حواسِّي صاحيةٌ ومتيقِّظةٌ كقوسٍ مشدود. كوب ماءٍ ثانٍ. الثلَّاجة. الطعام يُعينني في العادة على النوم، وكأنَّ ملء البطن يُفرغ الرأس، في حين يُخدِّر الشبعُ الهواجس ويُشعرنا بلا جدوى القلق وعبثيَّته. ما أتمنَّاه فعلًا في هذه اللحظة، هو فنجان قهوة. في هذه الساعة؟ مستحيل. الليل والقهوة وأنا لا نتوافق. نحتاج ضوءًا وشمسًا ليُظهر لنا البنُّ نكهته الربَّانيَّة.

خرجت من المطبخ بعد أن أطفات نوره، والتفتُّ بالكاد إلى باب الصالون كأنَّما لأتأكَّد من كونه ما زال مغلقًا، ثم مشيتُ مسرعةً نحو الممرِّ الفاصل بين الغرف. لامستُ بيدي الممدودة أمامي المكتبة. لا، لن أشعل النور، ولا رغبة لي أبدًا بالقراءة، ولا حتى العناوين، ثرثرةٌ وحشوٌ وطنين، وقد صرت أرى القراءة نشاطًا مزعجًا يسبِّب لي الضيق ويرمي في عينيَّ أجسامًا غريبةً لا أدري إلَّام يأخذني تفاعلُها معًا، بعد أن كانت أشبه بالجلوس في قاطرةٍ تجرُّ خلفها قاطراتٍ من نعاسٍ سكَّريٍّ لذيذ. مددت ذراعيَّ وتابعت تلمُّس طريقي. أنا أنعم بالكهرباء 24 ساعةً في اليوم

بفضل دولارات توأميّ، لكنّي لن أُشعل النور. أفضّل البقاء في العتمة بغية الاندماج في المشهد العامّ، في تلابيب المدينة المطفأة والهامدة في قلب كهفٍ موحشٍ في بطن الأرض.

الغرفة من جديد. سريري. محاولاتٌ فاشلةٌ لإقفال العينَيْن العصيَّتَيْن والاستهداء إلى النوم. لا أمل، لقد جلس الأرقُ في مقلتيَّ مثل حجرَيْن صلبَيْن. البشر من عناصر أربعة، أمَّا أنا فمن صخرٍ عنيد. مرَّت الدقائق ثقيلة، عاجزة، وبعض طبقات العتمة تبدَّدت، فبدأت أحزر أشكال الأشياء ومواضعها، وحده اللون ما زال غائبًا. في ما مضى، كانوا يظنُّون أنَّ النور هو ما يلوِّن العالم، يأتي قبيل الفجر ويدلق سريعًا ألوانه. في العتمة، يصير العالم مملكة اللّالون. هسيس الليل فقط أو تنفُّسه البطيء. ربَّما لو جلستُ في السرير وبقيت محدِّقةً في الظلام، أتى النعاس من تعب عينيّ. فلأحاول. لا شيء. الأرق المستفحل يُداوى بالمنوِّمات والمهدِّئات، هذا ما اقترحه عليَّ دكتور داود. «خذي دونورميل، منوِّمٌ من الأعشاب خفيفٌ يروح مفعوله نهائيًّا بعد ثماني ساعات. أنا نفسي أستخدمه وآتي به من باريس». رفضتُ. لا أريد لثانية، ولا حتى لعُشر الثانية، مهما ساءت وفرغت وتفهت، أن تفوتني.

لو أمكنني فقط رؤية البحر! لكن لا بصيص نورٍ ترسله السماء، لا قمر يخاطب المياه أو تخاطبه، فقط ليلٌ طويلٌ هجرته الكائنات كلَّها فبقي كاملًا لي وحدي. ماذا لو باشرت حفلة ترتيبٍ أعِد نفسي بها منذ مدَّة، فلا أحد يعرف متى تحلُّ ساعته. أنا أعرف بشكلٍ تقريبيٍّ لأنَّ ساعتي، وإن لم تكن مضبوطةً مئةً

بالمئة، لن تخطئ كثيرًا. بذا يحكي قانونُ الحياة ومنطقُ الأشياء. بعد بلوغ الرابعة والثمانين، يُفترض أن تتهيَّأ للرحيل لأنَّك مبدئيًّا، تكون قد عشتَ ما يكفي وأكثر لكي تَجْهَزَ لحلول نهايتك. مبدئيًّا أقول، إذ قد يطول بك الوقتُ لعقدٍ إضافيّ، وبعضهم ربَّما بلغ المائة. هؤلاء، في العمق، يتكمَّشون بقوَّةٍ بملاءة الأرض لا يريدون إفلاتها. الإنسان طمَّاع، لا يشبع من الحياة، مهما طالت. لكن أنا، ما إن وعدتُ نفسي باختيار لحظة رحيلي إن لم أعد مؤهَّلةً للعيش، حتى شعرتُ بالارتياح لكون الخيارات أمامي متاحة، بدءًا من سمٍّ لانيت، إلى ابتلاع كمِّيَّةٍ من أقراص دواء. تبقَّى أمامي فقط درسُ كلِّ خيارٍ على حدةٍ واتِّخاذُ القرار النهائيّ، ثم التنفيذ في حال بدأتُ ألحظ قصورًا في وظائف الدماغ. ليت الموت يكون مشوارًا يشبه رحلة ذلك الهنديِّ الأحمر العجوز الذي صعد إلى الجبل لملاقاة الموت. كان قد اكتفى من العيش، فقرَّر أنَّ موعد سفره قد حان. اعتلى القمَّة وجلس قبالة الشمس سعيًا إلى الانعتاق. مثله أنا، يمكنني الخروج إلى الشرفة والارتماء في حضن الهواء.

يكفي! سمعتني أقول وأنا أرفع عنِّي الغطاء بعصبيَّة. واضحٌ أنِّي لن أغفو. أشعلتُ الأباجورة الصغيرة التي بقرب سريري، وقمت إلى درفتيَّ من الخزانة الكبيرة حيث توجد مرآة. أنينها لا يُطاق. هو المفصل الأعلى الذي لن أبلغه إلَّا إذا وقفتُ على كرسيّ. جلبتُ قطنةً صغيرةً بلَّلتها بزيتٍ أستخدمه لوجع ركبتي، ثم سحبتُ المقعد حتى الخزانة. رفعتُ ساقي اليمنى وثبَّتُّ قدمي، تمسَّكت بعارضة الظهر، وهممتُ بالصعود... لم تُطعني رُكبتي.

استجمعتُ قوَّتي وحاولتُ مجدَّدًا، فكان جسمي يزن طنًّا وساقاي وكأنَّهما من تبن. شيءٌ مرعبٌ أن لا يتمكَّن المرء من اعتلاء كرسيّ! فعلٌ بهذا السخف ولا يمكنك الإتيان به. سأطلب من يوسف... لا، لن أطلب منه!

كمٌّ من ملابس متحاشرةٍ على الرفوف وفوق التعاليق لم أعد أرتديها. قبَّعات، جزادين، أكسسوارات، وأحذيةٌ أكثرها ضاق على قدميّ. أجل، قدما الإنسان تستمرَّان في النموِّ مع تقدُّمه في العمر، وكذا الأنف والأذنان، بينما تضمر بقيَّة الأعضاء وتنكمش. حتى العمود الفقريُّ يقصر إذ تتقلَّص المسافة ما بين الفقرات. وكأنَّ الجسد يتخفَّف من حمولته كي يسهل عليه الانتقال. نقصر ونصغر، نتناقص ونَقِلّ، وحدها الأشياء تبقى على حالها. لا، حتى الأشياء تشيخ مع تقادم الزمن، ولن يحميها حفظُها في علبٍ مُحكمة الإغلاق. التَّلَف، إنَّه قَدَرُنا ومآلنا الحتميّ!

أغلقت الدرفتين الخاصَّتَيْن بي وفتحت الأخريَيْن المخصَّصتَيْن لزوجي. ألبومات صور، رسائل، ملفَّات أوراق، علب، كراتين، ركنها هنا ولم أمسسها منذ رحيله. ملابسه وحدها ذهبت، أمَّا بقيَّة أشيائه، فلم أجرؤ على لمسها. بعد الرحيل، يتحوَّل الميِّت خزانةً ينبغي إفراغها، هذا كلُّ ما في الأمر. زوجي كان مولعًا بالترتيب والتبويب والتصنيف، ولا يجوز أن أرمي أغراضه هكذا، من دون التحقُّق منها بالتفصيل، فربَّما كانت هناك أوراقٌ رسميَّةٌ ينبغي الاحتفاظ بها للولدَيْن. وأجَّلت ذلك، وما زلت أؤجِّل، حتى صرت في هذا العمر. أغراضي أنا، لست حريصةً عليها، ومن

الممكن تكويمها دونما فرزٍ ووضعها في أكياس نفايات، فلا يبقى سوى ما أحتاجه وما زلت أستخدمه وهو قليل. سبق أن قمت بحملةٍ أولى أبقيت فيها على أغراضٍ معيَّنةٍ وجب أن تؤدِّي دورها كحافظةٍ لبعض الذكريات، كأدواتٍ لاكتساب هيئةٍ آدميَّةٍ يفقدها الإنسان بفعل الوحدة والعمر، كشاهدٍ على بريق حياةٍ أشكِّك في أنِّي عشتها، أو كي لا أنسى أنَّه كانت لي حياة. اليوم أنظر إليها بانفصالٍ تامٍّ ولا أرى سببًا لحفظها بعد.

مجرَّد التفكير بما ينتظرني أشعرني بالتعب، أضف إلى ذلك صعوبة رميي الأشياء. أنا أُجيد التخلِّي، صحيح، لكنَّ التخلِّي لا يعني بالضرورة الرمي، ربَّما لاستمرار وجود رابطٍ عاطفيٍّ والخشية من إغلاق الباب بشكلٍ نهائيّ. ينبغي أن أُفكِّر بالمصير المرعب الذي تؤول إليه أشياؤنا، بعد مماتنا، لأسهِّل الأمرَ عليّ، وكيف تبخس وتُمتَهن وتُذَلّ، بعد أن كانت مميَّزةً بالنسبة إلينا وغاليةً على القلب. ليتنا نسترجع عادة دفن الميِّت مع أغراضه، هكذا تُحمى من عبث الأيادي وتفنى بفناء أصحابها. وأنا، ماذا كنتُ لأختار من أشيائي، لو قُدِّر لي أن أختار؟

عدت إلى خزانتي. في الزاوية الخلفيَّة يختبئ الصندوق الذي سلَّمتني إيَّاه عمَّتي وداد بعد وفاة أبي. ركنته هناك بعد أن فتحتُه مرَّة، ولم أُعِد الكرَّة. كان ملآن بقصاصات مجلَّاتٍ وجرائد، وصورٍ صغيرةٍ وكبيرةٍ بالأسود والأبيض وبالألوان، وأوراق كثيرةٍ مطبوعةٍ وبخطِّ اليد، وأشياء عديدةٍ أخرى تتعلَّق بي كان قد جمعها أبي وحفظها بأن أودعها داخل هذا الصندوق الذي كتب على غطائه اسمي كبيرًا. لا حاجة بي إلى إخراجه الآن لأستعيد طريقة

رسمه الميم على شكل قلبٍ يتركَّز داخله كلُّ حنان الأرض، أو لألحظ في امتداد الياء وعلوِّ ذنبها، فخره الكبير بابنته. لم يعرف أبي المسكين بعد أن غادر، أنَّ مَيْ غرقت في دنيا اللالون، أصبحت كوتشوكيَّة قابلةً للطيِّ واللَّيّ، وأنَّها نامت ذات يوم، لتصحو في حكايةٍ أخرى وكان أن ضلَّت الطريق. . .

II

هِــيَ

ـ أتذكرين، يا مي، كم أحببت المسرح والتمثيل؟

ولم أفهم أتتوجَّهُ إليَّ بسؤالها أم تتكلَّم عن نفسها، أقالت كم أحببتُ أم كم أحببتِ، إنَّما في الحالتَيْن، خبطت جُملتها تلك رأسي كنيزكٍ آتٍ من البعيد، فنقلتني فجأةً سنواتٍ ضوئيَّةً إلى الوراء، فإذا بي صبيَّةً في نفقٍ معتم يقف أبي في نهايته وهو يشير لي من خلال ضوءٍ يحرِّكه رواحًا ومجيئًا، أن تقدَّمي ولا تخافي، ستُرفع الستارة بعد ثوان. وعندما أصل إليه، يُفسح لي المجال متراجعًا، فإذا أنا وحيدةً فوق خشبة مسرح، تحت أضواءٍ تدقُّ مساميرها في عينيّ، شبه عاريةٍ في قميص نومٍ صيفيّ، بشعرٍ هائجٍ منفوش، أتلو بصعوبةٍ نصًّا من توقيع كوكتو.

ولكي تكفَّ هذه المخلوقة الغريبة التي لا أدري من أين نبتت ولا ماذا تريد، عن مناداتي، وأتوقَّفَ أنا عن تجاهلها وادِّعاء العيش وكأنَّ الأمور لم تحِد عن سيرها الطبيعيّ، كان لا بدَّ من

مواجهتها والإقرار أخيرًا أنَّ ثمَّة ما يحدث لي وتحيط به هالةٌ من غرابةٍ وغموض. هكذا اتَّخذتُ القرار بالردِّ على نداءاتها التي راحت تتكرَّر بإيقاعٍ متسارع، لعلَّها تبلغ مبتغاها فأتخلَّص أنا من حضورها المزعج وأستعيد هدأتي وطمأنينتي اللتين تزعزعتا منذ ظهورها المفاجئ في بيتي. ولكي أتشجَّع فلا أواجهها وحيدة، جلبتُ القطَّة التي كانت تتنفَّس بالكاد من غرفة الجلوس، وذهبت بها إلى المدخل، أمام باب الصالون حيث أقف الآن.

أحسَّت الزائرة بوجودي، فاقتربتْ بدورها من القسم العلويِّ الزجاجيِّ المغبَّش يواري أكثر ممَّا يُري، وحرَّكت قبضة الباب لظنِّها أنِّي سأدخل إليها. لكن، على عكس ما توقَّعتْ بقيتُ في مكاني، ثم استدرتُ وألصقتُ ظهري بباب الصالون وانزلقتُ أرضًا حيث جلستُ وفي حضني المسكينة التي لم أسمِّها بعد، ولا بدَّ أن أختار لها اسمًا تودِّع هذا العالم به. كان هذا إيذانًا لزائرتي بأنِّي أعترف بوجودها وسأصغي أخيرًا إليها لو كان لديها ما تقول، فكان أن قامت هي بالمثل، اقتعدتِ الأرض كما فعلتُ، فصرنا جالستَيْن ظهرًا لظهر، وبيننا الباب. لدقائق، بقيتْ صامتةً يصلني صوت تنفُّسها، بعد أن أشعلَت عود ثقابٍ وتسرَّبت رائحةُ تبغٍ إليّ. وتدخِّن الأختُ، عال!

ـ قطَّتك ستنفق قريبًا.

ـ ليست قطَّتي!

ـ لمَ لا تريحينها إذن كما اقترح البيطريّ؟ تذكَّري، الأمل والنكران.

ـ ربَّما . . .

ـ ربَّما ماذا؟

أسكتني ردُّها وقد أشعرني أنَّ ميْ التي افترضتْ أنَّها فوق كلِّ عاطفةٍ تورِّط صاحبَها بأملٍ مستحيل، ما زالت في أعماق أعماقها تؤمن باحتمال حدوث معجزات. قالت صديقتي التي أكل السرطان رئتَيْها؛ «محنة وتزول»! لكن هي مَن زالت من الوجود. أجل، الأمل والنكران، توأمان قاتلان! وأنا أجيبها «ربَّما . . .» وهي تسألني «ربَّما ماذا؟». ذلك أنِّي في العمق، كما صديقتي، أنكر أنَّ السرطان أكل خلايا المسكينة وانتهى الأمر، وأنِّي في سرِّي، كما صديقتي أيضًا، آمل أن تصحو معافاة. ثم هذه التي دخلت بيتي عنوةً ولا أعرف عنها شيئًا، أنَّى لها أن تعرف بأمر تنقُّلاتي وزيارتي للبيطريّ؟

ـ هل أنت هنا لتحدِّثيني عن القطَّة؟ تفضَّلي قولي من تكونين وماذا تريدين؟

ـ ياه، أهكذا نسيتني، يا مي؟ ألهذه الدرجة أُشْعِرُكِ بالعار لتمسحيني كلِّيَّةً من ذاكرتك؟

تلبَّسني الصمتُ وقد راودني شعورٌ غريبٌ وكأنَّه أثرٌ لصورةٍ خاطفةٍ عن شيءٍ أليفٍ سبق أن لمحتُه لستُ أدري متى وأين. شيءٌ مثل نكهةٍ سابقةٍ تتهادى على اللسان، طرف رائحةٍ وقعت على أثرها قبل أن تختفي تمامًا، ومضةٌ تُنير مشهدًا معتمًا لجُزَيْءٍ من الثانية. ثم تحوَّل الشعور ذاك إلى ضيقٍ أعرفه وأعرف مآله إذ سوف يتحوَّل إلى سؤالٍ يطرق رأسي كالإزميل، ولن يلبث هذا أن

يصير صداعًا تحتاج معالجته قدراتٍ ما عادت لديَّ بعد أن فرَّغتُ ذاتي من كلِّ ما يتسبَّب لها بألم أو صداع. رفعت القطَّة عن حضني ووضعتها جانبًا، فماءت متألِّمة، ثم طويتُ ساقيَّ استعدادًا للوقوف. لحظت الزائرة حركتي فسارعت تقول قبل أن أغادرها:

ـ حسنًا، اسمعي يا مي، هذا ليس خطأك، أعرف... سأبدأ معك من الصفر لتستعديني تدريجيًّا، جزءًا تلو آخر:

لقد عشقت المسرح والتمثيل وكلَّ ما فيه، وإن كنت لا تذكرين. أغرق في الكرسي المخمليّ، وحين تنطفئ الأضواء، أشعر وكأنِّي دخلت في مغارة، في بطنٍ كبير، وكأنَّ ثمَّة من أخذني بين ذراعَيْه العملاقتَيْن وغمرني بحنان. من غير محفِّزٍ خارجيّ، أتناسى حاجتي إلى الحبِّ ولا أشتاق وجودَ حبيب، الأحرى أنِّي لا أفقه فعلًا ما معنى أن يكون للمرء شريكُ جسدٍ وروح. في المسرح بلى، في صالةٍ معتمة، في مشهدٍ يُحرِّك داخلي موجةً غامرة، رائحةً أليفة. في ما عدا ذلك، لا وجود لإحساسٍ ملموسٍ بما قد يعنيه الوقوع في الغرام نزولًا نزولًا حتى الارتطام بالقاع. في سنيِّ مراهقتي، كنت أقصد مسرحًا، أكثر ممَّا أقصد مسرحيَّة، وقد لا أستوعب شيئًا من المَشاهد، الأداء، وجوه الممثِّلين، القصَّة... إلَّا أنَّ مجرَّد وجودي هناك، كان يملؤني حبورًا، وأحسُّ أنِّي هنا في حلم، وأنَّ هذا الحلم هو مكاني الطبيعيُّ وقد ألفتُ كلَّ تفاصيله. رائحة المخمل، المقاعد وأزيزها، العتمة الوثيرة المثيرة، الأضواء حين تتقلَّص لتتركَّز في بقعةٍ واحدةٍ فوق الخشبة، الدقَّات الثلاث التي تعلن بدء المسرحيَّة وتجعل قلبي ينبض بسرعةٍ مميتة، رؤوس الحاضرين ونظراتهم

الواجمة، التصفيق والهتاف، الستائر التي تُغلق وتُفتح، انحناءات الممثِّلين وابتساماتهم، تعليقات المشاهدين عند خروجهم من الصالة... نعم، لقد وقعت في غرام هذا العالم المغاير لدرجةٍ جعلتني أصرخ ذات يوم: أبي، سيأتون هنا لمشاهدتي أنا! هذا أيضًا كان حلمًا جميلًا آخر وقعتُ منه.

كبرتُ وذهبت إلى كلِّيَّة الفنون، وتقدَّمتُ إلى مباراة الدخول ونجحت. لم أنجح فحسب، بل جاء ترتيبي الأولى. كانوا ثلاثة أساتذةٍ جالسين في العتمة، رجلان وامرأة. لم أسمع سوى أصواتهم: اسمك، شهرتك، ثم حدَّدوا لي موضوعًا للارتجال: أنتِ في دفن، تدخلين لتقديم العزاء. هذا كلُّ شيء. خرجتُ للحظات، أطرافي كلُّها ترتجف، ريقي جافّ، نَفَسي يكاد ينقطع. اهدأ، يا قلب، هذه فرصتك أمامك، هيَّا اقتنصها الآن! دخلتُ مجدَّدًا. أنا في صالون تجتمع فيه النساء. كلُّهنَّ متَّشحاتٌ بالسواد. نظرت من حولي أبحث عن أهل الفقيد لأتوجَّه إليهم: الله يرحمه، البقيَّة بحياتكم! ووقفت أُفتِّش عن مقعدٍ لي. كلَّما ابتعدتُ عن مجلس أهل الفقيد، كثرت الثرثرة والهمس والقيل والقال. أنا هنا لأداء واجب، وللفرجة أيضًا والتبسُّم باقتضابٍ ردًّا لتحيَّةٍ من هذه أو تلك. ثمَّة امرأةٌ ضخمةٌ دخلت للتوِّ وشدَّت انتباه الجميع. تندب بصوتٍ عال، تصرخ وتلطم، ما اضطرَّ الجميع إلى فتح الجزادين وسحب المحارم ووضعها على العيون أو الأفواه. المرأة الضخمة تقترب، تجلس، لكنَّ الكرسيَّ البائس يميد تحتها فيُلقيها عنه، ظهرها إلى الأرض وساقاها في الهواء. نوبة ضحك، ضحكٍ مكبوتٍ يتفجَّر ويملأ الصالون. دموعي تنزل

على خدِّي، معدتي تؤلمني من شدَّة الضغط عليها، يا للجرصة، أقوم وأغادر جريًا وكأنَّ ألمًا قسم بطني اثنَيْن... أسمع قهقهة المحكِّمين في الصالة، ثم تصفيقًا يرسل لي أجنحةً بها أطير. لقد أعجبتُهم. بطاقة دخولي إلى كلِّيَّة الفنون ـ قسم المسرح باتت في الجيب. افتحوا الأبواب، سارة برنارد الشرق قادمةٌ على بساط الريح!

كم جميلٌ أن تدخلي في جِلْدِ آخَر، يا مي، أن تتبنِّي كيانه، لغتَه، مشاعره، فيكون لك ماضٍ وحاضرٌ فقط، ذلك أنَّ الشخصيَّات لا تملك مستقبلًا، لذا هي مؤثِّرة، مصيرها محتومٌ ولا سبيل للخلاص أمامها. تدخلين في جلدها، كمن يدخل في بحيرةٍ يبتلُّ بمائها، يتقلَّب في طبقاتها، يعيش بين كائناتها، لكنَّه مدركٌ في العمق أنَّه لن يلبث أن يغادرها، يغتسل من مائها ويجفِّف جلده ليستأنف تقدُّمه في جلد آخرين. ليس التمثيل ذوبانًا في آخر أو في شخصيَّةٍ غريبةٍ عنك، فالشخصيَّات هي احتمالاتكِ الممكنة في ظروفٍ وأوضاعٍ أخرى، والتمثيل هو بالدرجة الأولى آليَّةٌ لتظهير هذا الاحتمال أو ذاك، في لحظةٍ تستدعي حضوره. وإلَّا فكيف لنا أن نؤدِّي أو نتماهى مع ما أو من نجهله تمامًا؟

أجل، ثمَّة وجوهٌ كالنجوم تُضيء حيواتنا، وأخرى كالثقوب السوداء تسحب منها نورها. لكن، أنَّى لنا أن نميِّز بين هذه وهاتيك؟

منذ رأيتُه... لا، لم أره في البداية. سمعتُ صوته في الهاتف لأوَّل مرَّة، ولم أرتَح له واستغربتُ أنَّه بلا طابع واضح، كأنَّه عالقٌ بين درجتَيْن موسيقيَّتَيْن، أسير بين منزلتَيْن. ولمَّا انخرط في الكلام، تأفَّفتُ في سرِّي من دفق جمله وودتُ لو أُقفل الهاتف. الآن أفكِّر، ليتني فعلتُ. كم فكَّرت بذلك لاحقًا، حركةٌ بسيطةٌ كان يمكن أن تفديني مصيرًا حالكًا، حياةً مجهَضة، فكان ندمي باتِّساع محيط. لمَ ترانا لا نُصدِّق كائننا الداخليَّ الصغير جدًّا، ذاك الملاك المختبئ في مكانٍ ما في ذواتنا، يحاول تنبيهنا وتحذيرنا ممَّا نحن مقبلون عليه. يصرخ ويقفز ويخبط بيدَيْه وقدمَيْه على جدران نفوسنا كي يبلغ مسامعَنا، لكنَّه صغيرٌ جدًّا في داخل

عملاقٍ نزقٍ متعجرفٍ لا يعيره انتباهًا. نضع أيدينا في النار، ثم نتندَّم كيف أنَّنا أسكتناه وأطلقنا في وجهه صخب العالم لكي يُخفيه.

اتَّصل يسألني أمرًا ما، رقمًا ما، ما عدتُ أذكر، ذلك أنَّ صديقًا مشتركًا نصحه أن يلجأ إليّ. أذكر أنِّي كنت مستلقيةً في غرفتي، حدقتاي معلَّقتان في السقف أتحسَّس دبيبَ حشرات الضجر فوق جلدي. رنَّ الهاتف الأسود الضخم في الصالون، لا أحد في المنزل سواي. لا أريد أن أنهض، لا أريد أن أُجيب. انقطع الرنين لحظاتٍ ثم عاد، أيكون أبي المتَّصل لأمرٍ مهمّ؟ قمت ملهوفة، آلو؟ صوتٌ غريبٌ ارتعش بدايةً حين نطقتُ وكأنَّه لم يكن يتوقَّع إجابة. سألني رقم شخصٍ بعد أن قدَّم نفسه صديقًا لصديق، وأنا وافيتُه سريعًا بما طلب، ثم هممت بإقفال الخطّ. لكنَّه لم يسكت وقال إنَّه سيزعجني ببعض أسئلةٍ يستفهم منها بعض الأمور. أمري لله! وراح يحكي ويحكي والأسئلة المرجوَّة لا تجيء، ولم أفهم ما الذي جعله يُطيل هكذا ويدور ويلفُّ ويُكثر من كلامٍ طائشٍ يروح في كلِّ الاتِّجاهات. إلى أن وضعتُ له حدًّا متذرِّعةً بموعدٍ تأخَّرتُ عليه. أفّففففف! قلت بصوت عالٍ بعد أن ألقيت السمَّاعة من يدي. من مكالمته تلك لم يعلق في ذاكرتي سوى صوته الذي بدا صوتًا مصطنعًا غير أصليّ، وفيضان ثرثرته التي فارت وفاضت في أذنيّ.

أسابيع، ثم ظهر من جديد. كانت اتِّصالاتٌ عديدةٌ قد تكرَّرت لا يعلن المتَّصل فيها عن هويَّته. أرفع السمَّاعة، ثوانٍ ثم يُقفَل في وجهي الخطّ. لم يرد ببالي أن يكون هو المتَّصل

المجهول. أفكِّر أنَّهم أولاد ضجرون يتسلُّون بطلب أرقام عشوائيَّةٍ ويرتعبون حين أُجيبهم. إلى أن تجرَّأ واتَّصل وخاطبني بكلامٍ غائمٍ عن نصٍّ مسرحيٍّ يكتبه ويودُّ لو نلتقي ليقترح عليَّ أداء الدورِ الرئيسيّ. استيقظ فضولي:

ـ ولِمَ أنا ومن أين تعرفني؟

ـ رأيتك في الكلِّيَّة، كنت تؤدِّين «الصوت الإنسانيّ» لكوكتو...

تنشَّط فضولي حينها وفتح عينيَّ على اتِّساعهما.

ـ حسنًا... والإنتاج؟

ـ متوفِّرٌ بالطبع، وإلَّا ما كنتُ اتَّصلت.

كان هذا إغراءً فوق طاقة أيِّ ممثِّلٍ على المقاومة، ولم أكن يومها سوى طالبةٍ في بداية عشرينيَّاتها وقد أدَّيت بعض الأدوار الثانويَّة في مسرحيَّاتٍ متواضعة، أو في مشاريع تخرُّج طلَّابٍ في كلِّيَّتنا، وكنت أتوق لدورٍ مميَّزٍ أؤدِّيه، لا لدور بطولةٍ دفعةً واحدة! تواعدنا. وحرتُ في ما أرتديه، ثم بعد تجارب فاشلة، قرَّرت أن أذهب كما أنا، من غير إضافةٍ تُظهر أنِّي بذلت مجهودًا إثارةً لإعجابه. فليرني على حالي، «في عصيري» كما يقولون، وليكن على بيِّنةٍ كاملةٍ مع من يتعامل. أنا لم أكن فائقة الجمال، صحيح، لكن كنت مميَّزةً وذات حضورٍ قويّ. كان شعري قصيرًا، كما درج في بداية الستِّينيَّات، أرتدي تنُّورة حتى الركبة مع قميصٍ وحذاءٍ واطئ.

وصلت، فوجدت رجلًا يقوم من على كرسيِّه في الزاوية وهو

يبتسم لي ابتسامةً عريضة. كان المقهى شبه فارغ وقد واعدته عند الحادية عشرة صباحًا، لأنَّها ساعةٌ لا توحي بأيِّ خصوصيَّةٍ ولا تفسح المجال أمام أيِّ افتراضات، سوى أنَّه موعد عملٍ صريح. صافحني وجلسنا وحار أين يذهب بابتسامته وأين يضع عينَيْه. بدا لي أنَّه من أصولٍ ريفيَّةٍ لم يبتعد عنها كثيرًا منذ سكنه في بيروت. شبَّانٌ كُثُرٌ من أصولٍ ريفيَّةٍ ومن كلِّ المحافظات يفدون العاصمة للانتساب إلى الجامعات أو طلبًا للرزق. أخال أنَّ أهله ما زالوا هناك، وأنَّه من جيل أوَّل تعلَّم. أعرف ذلك وأميِّز بين القادمين والمقيمين الأصليِّين لأنِّي ابنة بيروت، أبًا عن جدّ.

جلس مرتبكًا حائرًا بيدَيْه، وأنا بقيت صامتةً أتفرَّج عليه. لم أرغب بمساعدته بفتح الحديث معه أو برفع الكلفة. كنت في بداية عشرينيَّاتي وهو في بداية ثلاثينيَّاته على ما قدَّرت. أحببتُ أنَّه يرتدي قميصًا أبيض بكمَّيْن مرفوعَيْن مكويًّا بإهمال، ويحمل محفظة كتفٍ جلديَّةٍ بنِّيَّة اللون علَّقها على يد الكرسيّ. دائمًا كان لديَّ ضعف حيال الرجال الذي يرتدون قمصان بيضاء بأكمامٍ مرفوعة. هذا عائدٌ لطفولتي ولا ريب. يقال إنَّنا نحن النساء ننجذب إلى الرجل الذي يجسِّد صورةً من الطفولة مختبئةً في لاوعينا. طلب فنجان قهوةٍ سادة، وطلبت كوب شوكولا ساخن. استأذن أن يدخِّن إن كنت لا أمانع، فهززت رأسي نفيًا. قال إنَّه عائدٌ من أوروبَّا الشرقيَّة حيث درس الكتابة الدراميَّة، وإنَّ أوَّل ما فعله لدى عودته كان زيارة كلِّيَّة الفنون الجميلة التي كان فرع المسرح فيها قد تأسَّس حديثًا، ليتعرَّف إلى أساتذتها ويلتقي طلَّابها. قدَّرت أنَّه سافر بمنحةٍ وفَّرها له حزبٌ يساريّ، إذ كان

بيِّنًا أنَّه من بيئةٍ متواضعة. ثم أضاف أنَّه وجدني ممثِّلةً من طينةٍ نادرةٍ بعد أن حضرني في الكلِّيَّة أكثر من مرَّة، إلى حيث كان يأتي مستمعًا حرًّا، ولم أكن قد لحظته أو انتبهتُ إليه، مكرِّرًا أنَّ أدائي الأخير لنصِّ كوكتو كان استثنائيًّا. ثم سألني إن كنت قد عرَّبتُ النصَّ بنفسي وهل هي فكرتي أن أختمه بقراءة وصفة إعداد حساءٍ لشخصَيْن؟ ولم يفته أن يسألني كم عمرك لتتمكَّني بهذه البراعة من أداء دور امرأةٍ مكتملة النضج، يتركها عشيقها معلنًا لها أنَّه سيتزوَّج بامرأةٍ أخرى.

كنت ما زلت أذكر جيِّدًا كم عملتُ على هذا النصّ، حتى إنِّي اصطدمتُ بأستاذي في أثناء التدريب لأنِّي لم أكن مقتنعةً بشروحاته وتوجيهاته. الشخصيَّة وحيدةٌ على المسرح، بيدها هاتفٌ بشريطٍ طويلٍ يُتيح لها التنقُّل في غرفتها. هي تتكلَّم وتقول أيَّ شيءٍ في السمَّاعة لتُبقي حبيبها على الطرف الآخر من الخطّ. العشيق لا نسمعه ولا نراه، فقط هي. أستاذي يريدني أن أركِّز على تعلُّقها الجسديّ به، هي التي قامت بمحاولة انتحار، وأنا أراها من زاويةٍ مختلفة. المرأة كادت أن تموت، هو أكثر من ذلك بكثيرٍ بالنسبة إليها، إنَّه بمثابة الأكسجين لحياتها! غضب الأستاذ وقال تدرَّبي وحدك وسأُعلم أعضاء اللجنة الفاحصة بالأمر. وهكذا كان. عرَّبت النصَّ وأدَّيته وقام الأستاذ بنفسه يعانقني والجميع من حوله يصفِّقون...

يا إلٰهي، من أين له هذا الكمُّ من الكلام، لكن ما أجمل عينَيْه، وما أحلى خجله، وما هذا المغناطيس القويُّ الذي بدأ يشدُّني إليه. أستمع بالكاد إلى ما يقول ليُبهرني، وأفكِّر أنَّه ليس

نوعي المفضَّل من الرجال، وأنَّ فيه من خشونة الفلَّاحين ونزقهم الطفوليّ، ومع ذلك، أقسم لك يا مي، أنَّ قوَّةً ما راحت تسحبني نحوه، وأنِّي كنت مضطرَّة، وأنا جالسةٌ على كرسيّ، أن أثبِّت قدميَّ في الأرض وأتمسَّك بالطاولة التي بيننا، لكي لا أرتفع عن مقعدي فألتصق به. لم أكن أُدرك يومها أنَّ الوجوه التي تجذبنا نوعان، نجومٌ مضيئةٌ تُنير قلوبنا، وثقوبٌ سوداء قادرةٌ على إطفائنا. ولكي أضع حدًّا لجلسةٍ طالت وبدأت تُشعرني بالضيق وبفقداني السيطرة على زمام الأمور، سألته بجفافٍ عن موضوع المسرحيَّة التي يكتبها ومن أجلها اجتمعتُ به، فقال إنَّ فكرتها تدور حول امرأةٍ فقدت جزءًا من ذاكرتها، وإنَّ الجزء المفقود موجودٌ في حفرةٍ كبيرةٍ أمامها تدور من حولها مرعوبةً من النزول إليها. فاجأتني الفكرة، وأعجبتني جدِّيًّا، وعندما سألته في أيِّ مرحلةٍ من الكتابة بات، قال إنَّه يبحث عن صوتٍ أُنثويٍّ يساعده في ملء حفرته تلك!

شعرتُ بالفخر أنَّه اختارني أنا بالذات، ولست أدري إن كانت الفكرة هي سبب اقتناعي بالتعاون معه، أم أنَّني كنت أبحث عن ذريعةٍ عمليَّةٍ تُبرِّر في نظري استمرار التواصل بيننا. وهكذا كان، بدأت علاقتنا من نقص، ومن حفرةٍ غامضةٍ ينبغي لنا مَلؤها معًا، بل ينبغي لي ملؤها وحدي كما اتَّضح لاحقًا، إذ لم يكن هناك نصٌّ كما وعد، وإنَّما مجرَّد فكرة. لا بأس، سيمنحني ذلك فرصة أن أُظهر موهبتي أيضًا ككاتبة.

صرنا نلتقي لنعمل، وأكتفي أنا بهذه الحدود معه، فلا أبقى بعد التمارين ولا أُتيح له أن يدعوني إلى غداءٍ أو عشاءٍ نواصل

خلاله نقاشنا، كما اقترح أكثر من مرَّةٍ وتهرَّبت. كنتُ حذرةً ممَّا بدأ ينشأ بيننا، حريصةً على أن لا يتطوَّر إلى علاقة، وأنا أراه يبدِّل أساليبه ويُكثر من الذرائع التي تُبقيني وقتًا أطول. ويحكي، ويمدُّ حبل الكلام، ويلفُّه، ويعقِّده، ويلعب به، ويقفز فوقه. وكنت آنذاك أظنَّه يفعل إعجابًا بي، لا ليضمن مساهمتَه في نصٍّ لم يشارك في كتابته فعلًا، بقدر ما كان يشرف على تأليفه.

وفي أثناء التمارين، صرت أشعر فجأةً بالغثيان ويضيق نَفَسي، إذ كيف أكشف روحي أمام شخصٍ أعرف أنَّه في مكانٍ ما، يتحايل كي يعلِّقني به من دون أن يتورَّط، ويغشُّ حيث لا يقدر عليّ، حتى صرتُ بدوري أغشُّ حيث لا أقدر عليه: هو في عملنا الذي سيطرتُ عليه من غير قصدي، وأنا في علاقتنا التي كانت تسحبني نحوه من غير إرادتي، بعد أن خطَّط ومهَّد لها طويلًا. وإذ ترتسم الأمور واضحةً للحظاتٍ في ذهني، أعتذر هاربةً إلى الحمَّام حيث أقف مغمضة العينَيْن ليصفو ذهني، قبل أن أغسل وجهي لأعود مجدَّدًا إلى تماريني معه، فأجده وقد ارتدى وجهَه الآخر، وجه العاشق المقهور غير القادر على البوح.

بقينا لأشهرٍ نكتب «نصَّه». أنا أرتجل، وهو يضع ملاحظاته ويسجِّل ارتجالاتي على آلة، ليعود في اليوم التالي بنصٍّ مدوَّن. أنزل في الحفرة وأبتدع قصصًا، مواقف، ذكريات، أستدعي أشخاصًا، حالات، وهو يوجِّه، ويصحِّح، ويُضيف أو يُنقص، إلى أن صار بين أيدينا نصٌّ مكتمل، وقال إنَّنا سنقدِّم ما يشبه عرضًا أوَّلًا خاصًّا أمام مجموعةٍ من الناس من بينها ممولِّون محتملون قد ينتجون مسرحيَّتنا.

ـ محتملون؟ ولكنَّك قلت إنَّ التمويل مؤمَّن!

وكالعادة، ومثلما فعل حين لم يكن هناك نصٌّ مكتمل، تهرَّب وراوغ ولم أفهم منه سوى أنِّي واقعةٌ في ورطةٍ وأنَّه ما عاد ممكنًا لي الخروج منها. صحيحٌ أنِّي كنت فرحةً بما أُنجزه وبقدراتي في التمثيل وقد تكشَّفت لي عندما جعلتُ أحفر في داخلي طبقاتٍ تذهب أعمق فأعمق. لكنِّي كنت في الآن نفسه امرأةً في خطر، لأنَّ الذي أمامها لا يني يحفر ويخطِّط لكي تقع. أين؟ في حبِّه! حسنًا، ولكن لِمَ لا يتقدَّم ويُفصح، لِمَ يتحايل ويدور ويلفُّ ويطلع وينزل؟

هنا كان خطأي القاتل، يا مي، أنِّي رأيتُ في سلوكه هذا أمارات حبٍّ لا يجرؤ على الاعتراف به، ولماذا؟ ورحت أفكِّر وأحلِّل وأقدِّر وأتساءل وأزن، لقد رمى إليَّ بسلوكه لغزًا، لغمًا، انكببت أنا على تفكيكه: ألا يكون متزوِّجًا، مرتبطًا، لا يحبُّ النساء، معقَّدًا نفسيًّا، طبقيًّا، جنسيًّا...؟ ما هي بداية الحبِّ يا مي أكثر من أن يستولي من تحبِّين على فكرك وعقلك وخيالك، بل ما هي الورطة؟ لم يخطر لي يومًا أنَّ هذا لا يسمَّى حبًّا، أو ربَّما كان حبًّا مشوبًا بألف عقدةٍ جعلته داءً يتمدَّد بهدوءٍ ويستوطن كلَّ خلايا الجسد.

أثملنا نجاحُ مسرحيَّتنا، وصفَّق لنا المشاهدون والنقَّاد وأهل المهنة. تحدَّثوا عن مولد مخرجٍ وكاتبٍ مسرحيٍّ فذٍّ وعن ولادة نجمة.

وكم أعجبني نجاحنا معًا! يلتمُّ من حولنا الأصدقاء والمهنِّئون والمعجبون في نهاية كلِّ عرض، ويصرُّون أن نخرج لكي نحتفل. لكنِّي أشعر بارتباكه وضيقه، وآخذ المبادرة بالرفض متذرِّعةً بالتعب، فيبدِّل خطَّته: حسنًا، عودي لترتاحي وأنا أذهب معهم ولن أُطيل. ويطيل. ولا يعود إلَّا عند الفجر ثملًا حتى الموت، ويحشر نفسَه فيَّ يريد أن أحبَّه. وأوقع نفسي بنفسي، فأبرِّر أنَّه يغار عليَّ من نظرات رفاقه وإعجابهم بي، ولا أقبل أن أعترف لنفسي أنَّه يغار منِّي وأنَّ وجودي يُزعجه ويمنعه من أخذ راحته في التكلُّم عن عبقريَّته ككاتبٍ مسرحيٍّ أيضًا. هل يُعمي الحبُّ إلى هذه الدرجة، أم أنَّها أنا وقد سرى السمُّ في أعضائي وأعمى بصيرتي وصار صعبًا

أن أبرأ منه. حسنًا، يريدني أن أتصرَّف على أنَّه السيِّد البارع، وأنَّ نجاحي من دونه غير ممكن؟ لك هذا، فنحن في نهاية المطاف رجلٌ وامرأة، والرجل يحبُّ أن تؤكِّد له امرأته أنَّه سيِّدها.

كيف فكَّ عقدة لسانه واعترف بحبِّه لي ثم طلب منِّي العيش معه؟

لم يفعل! وما كان ليفعل لولا أنِّي أخذت المبادرة حين اعتقدتُ أنَّه يشكو من عدم القدرة على البوح، أو من عقدة أن يتعرَّض للرفض. كم كنت ساذجةً غير مدركةٍ للعبته، أو لتكتيكه في اللعب. المشكلة هي أنا، فقد تورَّطت كحمارةٍ في حبِّه، وأوقعتُ دفاعاتي كلَّها مثل طفلةٍ غير مدرَّبةٍ على التحايل والمواراة. وكنتُ أظنُّ أنِّي القويَّة، أو أنَّني في موقع القوَّة، وأنَّ عليَّ أنا أن أستلم زمام الأمور. هكذا، ذات مساء أحدٍ وكنت سيِّئة المزاج وقد فاض بي منه ومن تصرُّفاته، ومتعبةً بعد عرضيْ «ماتينيه وسواريه»، نظَّفت ماكياجي، وبدَّلت ثيابي، وخرجت من الباب الخلفيِّ جهة الكواليس، فوجدته واقفًا هناك يدخِّن سيجارة. التفتَ إليَّ باسمًا، وقال ممازحًا: كمشتك! أتهربين هكذا من دون كلمة وداع؟ فلم أبادله الابتسامة ورددت بجفافٍ أنِّي هلكانةٌ ولم ألتفت إليه. نادى، مي! فتوقَّفت، ولم أستدر نحوه، تقدَّم خطواتٍ ثم ربَّت على كتفي: توك توك! درت نحوه وبنبرةٍ عدائيَّةٍ وصوتٍ غاضبٍ صرخت في وجهه: أنت! ماذا تريد منِّي؟ تراجع خطوتَيْن رافعًا ذراعَيْه ثم قال: ما بك؟ فقلت غاضبة: أنتَ ما بك؟ ثم من دون إنذار، انفجرتُ في وجهه وأخرجت ما كبتُّه في صدري من حممٍ طوال أشهر.

وقف يُصغي إليَّ صاغرًا في الأرض، وفي زاوية فمه شبه ابتسامة، وعلى جبهته علامة تعجُّب. وأنا أحكي وأقول إنِّي لا أفهم لعبته، وما عدت أحتمل تلميحاته ولغته المزدوجة وغموضَه، ثم ختمتُ خطابي الطويل بأن سألته: خلِّصني! أتحبُّني، نعم أم لا؟ وانهرت باكية، دموعي تسبقني وقهرُ العالم كلِّه يتكوَّر في حنجرتي. صمت قليلًا، ثم اقترب وطوَّقني بذراعَيْه وأخرج منديلًا ومسح به دموعي. وعندما مدَّ يده ورفع ذقني، قال: وأنت، أتحبِّينني؟ دونما تفكير، هززت رأسي أن نعم، أحبُّك، أحبُّك، ألم تفهم بعدُ يا بغل! ثم عانقني وراح يقبِّلني فرِحًا لا تسعه الدنيا، فرحَ الفائز والمنتصر.

عندما أتفكَّر في ردِّ فعله وبتفاصيل تلك اللحظة التي أنبتت لي جناحَيْن حملاني عاليًا عاليًا، أفطن متأخِّرةً جدًّا للأسف، إلى كونه لم يُجب على سؤالي ولم يعترف أنَّه يحبُّني. لقد طوَّقني بالحبال في عنقي وأطرافي، كما يطوِّقون الجياد البرِّيَّة لترويضها، وحين أُنهكتُ تمامًا وما عدت قادرةً على المقاومة، ربَّت على ظهري وكافأني بأن عانقني وقبَّلني وأعلن رسميًّا استقبالي كعاشقة. هكذا استدرجني وورَّطني وحمَّلني لوحدي قصَّتنا، فهو لا يُبادر وإنَّما يتلقَّى، هكذا قلب الموقف وبتُّ أنا الطرف الذي طارد وحاصر وأحبّ، إلى أن استجاب هو لي.

انتقلنا للعيش معًا بعيدًا عن بيروت، كان هذا اقتراحه، في شاليه متواضعةٍ على شاطئ عمشيت، نصلها عبر طريقٍ فرعيَّةٍ ترابيَّة، حيث لا جيران من حولنا يضعون أنوفهم في حياتنا. كانت أشبه بكوخٍ مكوَّنٍ من غرفتَيْن فيهما أقلُّ ممَّا يصنع بيتًا في حدِّ

أدنى. لكنّي بدَّلتُ حالها، فأصلحتُ عطوبها الكثيرة وجبرتُ كسورَها وأكملتُ نواقصها، وأضفتُ عليها أثاثًا، بل كلَّ ما تحتاجه من أثاثٍ لكي تصبح عشًّا زوجيًّا دافئًا جميلًا ننعم بالعيش فيه. وكم أحببتُ أن أؤدِّي معه دورَ الزوجة وربَّة البيت، تمرينًا على ما كنت أراه مستقبلنا لا محالة.

لكن، كلَّما تقدَّم الوقتُ بعلاقتنا، راحت تبرز فيه جوانب وطباعٌ لم أكن قد لحظتُها من قبل. صار ينهض متعثِّرًا بعبوسه ومزاجه، مستاءً في معظم الأحيان، لا يحبُّ أن يسمع صوتًا آدميًّا قبل حلول الظهر. لا بأس، أقول لنفسي، أضع ذلك على حساب مزاجه كفنَّانٍ يحتاج فضاءه الخاصّ، ولا أعتبره إساءةً موجَّهةً ضدِّي بأيِّ شكلٍ من الأشكال. أعدُّ له قهوته، فيخرج بها وحيدًا إلى الشرفة حيث يستقبله المدى الأزرق، فيما أبقى أنا في الداخل أنجز أمورًا يوميَّةً وأقرأ نصوصًا مسرحيَّةً بدأت تُعرض عليّ. يرقبني بطرف عينه حين يشعر أنِّي انشغلتُ عنه، وكعادته لا يقول الأشياء مجاهَرة، بل يوحي بها وعليَّ أنا أن أحزر من تلقاء ذاتي ما الذي يبتغيه. فإذا أخبرتُه عن نصٍّ جميلٍ أقرأه، يشير بحركةٍ من يده أن ليس الآن، أو يعلِّق متهكِّمًا أنِّي أصبحت نجمةً عالميَّة، أو يلتهَّى عن سماعي بالعبث بأيِّ شيءٍ في يدَيْه، ما يجعلني أأنف المتابعة، فأصمت وأقوم. وإذا به يسألني ببراءة: إلى أين؟ ولِمَ توقَّفتِ؟ فأدَّعي أنِّي تعبتُ، وسوف نتابع لاحقًا.

كنت أُجرح من ملاحظاته تلك، ومن قلَّة اهتمامه بي منذ تساكنَّا، مقابل تركي كلَّ شيءٍ للاستماع إليه، وعدم مللي من دعمه ومساندته وتشجيعه. وإن تركتُه لحاله، لا يتركني هو، بل

يناديني بابتسامةٍ ماكرةٍ وحركةٍ من يده، فأتقدَّم سعيدةً وأنا أُحرِّك ذَنَبي ككلبٍ طائع، لاهثةً متدلِّية اللسان. أجل، كنت كلبه المطيع وهو صاحبي مطلق السيادة عليّ. يُجلسني على فخذَيْه ويروح يتأمَّلني في أدقِّ تفاصيلي كأنِّي زائرةٌ غريبةٌ وقد باشر اكتشافي للتوّ، وأشعر بشيءٍ من الرضى والفخر إذ أوقن أنِّي بجسدي، ما زلت متمكِّنةً منه. يطلب منِّي أن أقف، فأقف، أن ألتفَّ على ذاتي، فألتفّ، يصفع مؤخِّرتي بقوَّةٍ ويقوم. لقد انتهت فرصتي لهذا اليوم، وعليَّ أن أعاود كفاحي من أجل عودته إليّ، أن أبقى مُهيَّأةً بانتظار التفاتةٍ أخرى تُثبت دونما لبسٍ أنَّ علاقتنا واقفةٌ على تجاذبٍ جنسيٍّ قويّ، ولا شيء سواه. كنَّا كشجرتَيْن متقابلتَيْن لا تلتقيان، ومع ذلك، فقد كانت جذورهما الخفيَّة متشابكةً ومتداخلةً بشكلٍ عصيّ، وهي لن تنفصل ما لم تأتِ عاصفةٌ عاتيةٌ تقلتعها، أو ما لم تُعمل فأسٌ حدَّها القاطع في الجذعَيْن.

أصغي وأناقش وأقترح الأفكار بلا حساب، ثم أكتب وأقرأ وأنقِّح وأطبع على الآلة الكاتبة، كأنَّ كلَّ شيءٍ نابعٌ منه. وفي أحيان، أراه ينظر إليَّ نظرةً فزِعةً مُفزعة، وكأنَّه يرى فيَّ عدوًّا أو خطرًا كامنًا لن يلبث أن يطعنه في الظهر، فيزيد من صعوبة اختباراته لي، عساني أنزلق، أُخطئ، أُظهر أدنى نيَّةٍ سيِّئةٍ ورغبةٍ بالمحاسبة، ليتَّهمني بعدم حبِّي له. لكنِّي كالبلهاء، أزداد عطاءً وتنكُّرًا لذاتي، كي أثبت له مدى حبِّي وشدَّة تعلُّقي به، فيطمئنَّ قلبُه الشكَّاك أنِّي ما زلت ذاك الكلب المطيع المتعلِّق بسيِّده.

حلقةٌ مفرغةٌ وقعت فيها يا ميْ، كنت طفلةً ساذجةً وفي أوَّل عهدي بالحبِّ والعلاقات، فحسبت أنَّه يعاني من نقصٍ عاطفيّ،

وأنَّ من واجبي أن أسدَّ هذا النقص. والحقّ، أنَّ كلمة واجبٍ لا تقع في مكانها الصحيح، فقد كنت مدفوعةً برغبةٍ جارفةٍ كي أريه المسافة الهائلة التي قطعتُها في حبِّه. كنت أظنُّه حبًّا متبادلًا، بالقدر نفسه، فيما كان الأمر لديه مصلحةً وانجذابًا جسديًّا وحساباتٍ لم أفقه بعضها إلَّا متأخِّرة. وإلَّا فما هو ذاك المغناطيس الذي أبقانا معًا برغم اعتلال علاقتنا التي خُلقت معطوبةً منذ البدء؟

يشتهيني بشدَّةٍ تربكه وتخربط ميزانه، فيبتعد عنِّي ويعاقبني على رغبته، على أنوثتي الفائضة في عينَيْه، تكوَّر ثدييَّ وامتلاء فخذيَّ واستدارة مؤخِّرتي. ما هذا؟ يقول، وهو يصفع الأمكنة التي تثيره، يضغط ويقرص، فأعضُّ شفتي كي لا أصرخ، فتنقطع عنِّي شهوتُه. ثم صار يتركني في منتصف توقي إليه، سمكةً عالقةً بصنَّارة، نصفها في الهواء، نصفها في الماء، يُشعلني ثم يغادرني ليُفرغ شهوته بعيدًا، مع أخريات، وما عاد يتكبَّد عناء إخفاء الأمر عنِّي، وصولًا إلى مغازلتهنَّ أمامي... وأنا، كيف أتحمَّل الأمر؟ باعتباره اختبارًا عليَّ أن أنجح فيه، فأثبت له إخلاصي وحبِّي الأزليّ. قرَّرتُ التجاهل، فلا أخرج معه ولا أتيح له المجال أن يغار، أو أن يعذِّبني بافتعال غيرتي عليه. من دون آخرين، نحن في سلام. ظننتُ أنَّنا في سلام.

نحن لا نغيِّر أحدًا، يا مي، كلُّ ما في الأمر أنَّ الآخر يُخفي وجهَه الحقيقيّ، يُمسكه برسنٍ إلى أن يجيء وقت إفلاته. هل تحصل الأمور بتخطيطٍ مسبق، أم أنَّها تسير تبعًا لقانونٍ يفاجئ الآخر كما يفاجئنا نحن؟ هل هي طبيعة العلاقة، طبيعة الشخص؟

كنت أحيانًا أُفكِّر باحتمال أن أكون أنا من حوَّلته ثقبًا أسود، في حين قد يكون مع أخرى نجمًا منيرًا؟ ألا تتفاعل الموادُّ في ما بينها بطريقةٍ مختلفةٍ في كلِّ مرَّة، فلا ينبغي أن يقرب الكبريتُ النارَ مثلًا، في حين تموت قدرته على الاشتعال لو قارب الماء؟ والقاتل، حين لا يُعطى فرصةً، أتراه يُقدم على القتل؟

يتركني لساعاتٍ وحدي، أنتظر وأحترق ولا يمكنني مكالمته أو الوصول إليه. يغيب ولا يُعطيني عذرًا أو سببًا لغيابه، ولا يُبلغني حتى. وبعدما توقَّفت غياباته المتكرِّرة عن أن تكون مدعاة قلقٍ عليه وخوفٍ من أن يكون قد أصابه مكروه، صرت أخرج بدوري وأطيل السهرَ خارجًا بنيَّة أن لا أعود إلَّا بعد إيابه. هكذا أعلنتُ حرب «مَن فينا سيغيب أكثر فيجعل الآخر يعود منكسرًا فيرمي سلاحه طلبًا لهدنة». وفي ذلك، نجحتُ مرَّةً أولى إلى حدٍّ ما، إذ وجدته ممتقع اللون يسأل أين كنتِ ومع مَن، فتقصَّدتُ في ردِّي الغموضَ ـ «كنتُ مع أصدقاء» ـ ولم أُفصح أكثر لكي أُشعره أنِّي أُفلت منه، فيتذكَّر أنِّي حبيبته التي شقي لينالها ويعود إليَّ نادمًا معتذرًا.

لم يدم مفعول مناورتي طويلًا، فصعَّدتُ الهجوم في مناورةٍ ثانية، عندما عدت متأخِّرةً ورائحةُ الكحول تفوح منِّي، فوجدت شخيرَه يملأ المكان. في الصباح، سألني متهكِّمًا إن كنت قد أمضيتُ سهرةً سعيدة، معبِّرًا عن روعة النوم مجدَّدًا في سريره، لوحده. لم أستسلم. قرَّرتُ إطلاق مناورةٍ ثالثةٍ أستخدم فيها أقوى ما لديَّ من أسلحة. غبتُ الليل بطوله، في فندقٍ صغيرٍ في بيروت. ومضى ليلٌ ومضى نهار. ولم يسأل عنِّي. ولم يقلق

عليّ. ولم يخفْ أن تكون شاحنةٌ قد صدمتني. ولم يتَّصل بأصدقائنا ليعرف أين أنا وما سبب غيابي. كانت خطوةً ناقصةً ارتدَّت عليَّ وقد أعلن بسلوكه الواضح الجارح ذاك، أنَّه لا يكترث بي ولا يريدني معه، وأنَّ عليَّ اتِّخاذ قرار الرحيل بذاتي، طالما أنِّي في مكانه ومن العيب أن يطردني منه. كافَّة خطواتي باتِّجاهه كانت ناقصة، ومنها أنِّي أعلنت حربًا بحساباتٍ جاءت كلُّها خاطئة. أيريدني أن أرحل فعلًا؟ أيكون قد توقَّف عن حبِّي ببساطة، فقطع الحبل وتركني داخل بئر؟ هل استمات لأعلق به، ليعود فيرميني بعيدًا عنه؟

اليوم، لو أردتُ استحضار وجهه، لا تحضرني ملامحه حيَّةً متحرِّكة، بل جامدةً ومجتزأةً وذات تعبيراتٍ لا تستدعي لديَّ أيَّ مشاعر أو ردود فعل. أراه كما نرى صورةً أو صورًا متكرِّرة، وأتساءل هل هذا هو نفسه الذي غرقت من أجله وكدت أموت؟ والحقيقة، ليس وجهه هو ما يُشعرني بالضيق، بل وجهي أنا حين يُريني كم كنت ذليلةً في حبِّي وتعلُّقي، وكيف كان هو كلِّيَّ الحضور حتى في غيابه، وكأنَّه محفورٌ في بؤبؤيّ. كنتُ وأنا في جحيم عشقه، إذ أقفل كل المنافذ وأغمض عينيّ، يتسرَّب إليَّ وجهُه مثل غازٍ سامٍّ يشلُّ أطرافي ويطرد من عقلي كلَّ ما عداه، إلى أن يجتاحني ندمٌ حارق، عقيم، فأبقى أستعيد اللحظة الملعونة التي بدأ منها كلُّ شيء، وكم كان سهلًا تفاديها، وكم كان محتملًا أن لا تحدث لو...

أعود إلى ذاتي في حياتي السابقة عليه، وأتمنَّى لو تعود تلك الفتاة لتأخذ بيدي في اللحظة الحاسمة وتحيد بي قبل أن تأتي

الشاحنة وتدهس حياتي، جاعلةً منها كتلةً بلا شكل. لحظةٌ تافهةٌ قصيرةٌ تكفي لإهلاكنا، يا مي، لحظةُ تخلٍّ تحرفنا عن مسارنا الآمن، لحظةٌ لئيمةٌ بقيتُ أتفكّر طوال سنواتٍ لو أنَّها مرَّت ولم تلتفت صوبي، لو أنَّها تجنَّبتني وراحت في سبيلها، فواصلتُ أنا طريقي بأمان. كأنْ يرنَّ الهاتفُ فلا أُجيب على اتِّصاله وأتركه يرنّ. كأن أُجيب وبجفافٍ وبسرعةٍ أُقفل الخطّ. كأن أتبَّع حدسي وصوتي الصغير الذي قال لي منذ البداية، لا تذهبي إليه. كأن أذهب وألقاه وحين أكتشف أنَّه كذب بشأن نصِّه المزعوم، أعتذر وأنصرف بلامبالاة وبما يتواءم وطبعي أساسًا. كأن أُصرَّ على قراري الانسحابَ بعد أن علمتُ أنَّه غشَّني وكذب أيضًا بشأن وجود تمويل. كان مثل سمكةٍ مرنةٍ ممرَّنةٍ على السباحة في بحرٍ من التدويرات والتلفيقات والأكاذيب، في حين كنت أنا شيئًا نما في وضوح اليابسة وانكشافها. كيف اجتمعنا؟ لستُ أدري، ربَّما كنت أحتاج قليلًا من بلل، وهو شيئًا من جفاف.

أُرجع بَكَرةَ علاقتنا إلى الخلف، أحذف كلَّ المشاهد المتعلِّقة به، ما زلتُ تلك الصبيَّة القويَّة المقبلة على الحياة، بوسعي أن آكل الكون، أحلامي لا تُحصى، كلُّ ما في أيَّامي اعتياديّ، مشاكلي قابلةٌ للحَلّ، لا عقارب في رأسي ولا سمَّ في عروقي، لا معدة تصرخ وجعها أو تتقيَّأ قهرها منذ الصباح، لا قلب يعلو ثم يهبط وكأنَّه رُمي من عَل، لا مرارة وحرقة في الفم، لا رغبة في الاضمحلال، لا ألم غير قابلٍ للوصف... باختصار، لا هو! وإنَّما عالمٌ برمَّته خالٍ منه!

حتى اليوم وبعد مرور كلِّ تلك السنوات، ثمَّة سحابة عارٍ

وإحساسٍ بالمذلَّة ما زالت ترافقني أينما اتَّجهت. ولا يكفي أن تكون خفيَّةً على الآخرين، طالما أنَّها تظلِّل أيَّامي. وحدها استعادةُ اللحظة التي سبقت وقوع الكارثة، ورؤية ملامحي هانئةً مبتسمةً غير مدركةٍ لما سيحلُّ بي، تساعدني على التطهُّر لحين، من إحساسي ذاك بالتعفُّن والاهتراء. أحفر وأنقِّب جاهدةً لأستعيدها لحظة ما قبل الكارثة تلك، فلا أنجح دائمًا، بل إنَّما يحضرني هو إحساس الخوف وانعدام الأمان، وحدسي بخديعة، بطعنةٍ قادمةٍ لا محالة.

تلومينني حتمًا، وتتساءلين لِمَ لم أتركه طالما أوصلني إلى هذه القمم من العذاب؟ لكنِّي فعلت! تركتُه ولا أدري كيف أتتني القوَّة لأعترف أخيرًا بأنَّ الخشية التي تلبَّستني منذ تعرَّفت إليه، لم تكن وهمًا، بدليل فشل علاقتنا واكتشافي فشلي أنا كامرأةٍ ما كانت لتعتقد يومًا، ولا في أسوأ كوابيسها، أنَّها قد تبلغ هذه الدرجة من تحقير الذات. ويجب أن أعترف أنَّه ساعدني إلى حدٍّ كبير، عندما أوصل الأمور إلى نقطة اللارجوع.

أماسي الخميس، كان يشارك أصحابَه سهراتٍ يقيمونها للعب الورق، تلفتُ مداورةً على بيوتهم. يومَ جاء دورُه لاستقبالهم، أبلغني بذلك، فأعددتُ المقبِّلات وكمِّيَّةً من السندويشات، وأودعتُ الثلَّاجة عددًا من زجاجات البيرة التي يحبُّون، وملأت صحونًا بالمكسَّرات والخيار والجزر المقطَّعين، ونظَّفت الشاليه ورتَّبته بحيث تتَّسع لهم. أردتُه أن يفتخر بي أمام رفاقه: أرأيتم امرأتي الصغيرة المُحبَّة كيف تعتني بي؟ لكنَّه أتى بصحبة أشخاصٍ لم أرهم من قبل، تجمَّعوا مباشرةً حول المائدة وفلشوا الأوراق

يستعدُّون لمباشرة اللعب. كانت جولات بوكر سريعة، واللاعبون متمرِّسين ورهاناتُهم مرتفعةً على غير العادة. راح رجلي يخسر، ويشرب، ويضاعف رهانَه علَّه يستعيد ما خسره. ولمَّا نفد رصيدُه من المال، استأذن ودخل إليَّ حيث كنت في الغرفة المجاورة، مضطجعةٌ على السرير أقرأ. انحنى فوقي وعانقني بحرارة، ثم قبَّلني بلهفة. استغربتُ وابتسمت له ورحت أتفحَّص ملامحه: هه، ربحت؟ سأربح، أجاب، وسألني أن أساعده لكي يستردَّ كلَّ ما خسره وهو كثير. لكن، ليس معي مال، قلتُ، وأنت تعرف ذلك، فبدا موافقًا ومتفكِّرًا، قبل أن ينظر إلى ساعتي:

ـ أستعيرها منك للحظات، لا تخافي، ورقي قويّ.

سكتُّ، فأخذ يدي وقبَّل راحتي، ثم أمسك بمعصمي وفكَّ سوار الساعة، وخرج. جلستُ في السرير وبكيت. لم أبكِ ساعتي الأوميغا الذهبيَّة الجميلة التي هي تركة المرحومة والدتي ـ وكنتُ على يقينٍ أنِّي خسرتها، بل بكيت استباحته إيَّاي ومعرفته أنَّ بإمكانه أن يأخذ منِّي أيَّ شيء. هل يسمَّى حبًّا هذا الذي يهدر من عمري سنواتٍ من دون مقابل؟ وهل يسُمَّى حبًّا ذاك الذي يُفرغ الشخصَ من ذاته، ليملأه بما لا يشبهه ولا ينتمي إليه؟ قلت ذات مرَّةٍ لممثِّلةٍ صديقةٍ زارتني تريد الاطمئنان عليَّ بعد ابتعادي عن الوسط، قلت لها وأنا أزن كلماتي حرفًا حرفًا وأنقِّيها بعنايةٍ كما تفعل ربَّة بيتٍ بحبوب عدس:

ـ تصدِّقين؟ لو طلب كليتي، عيني، لوهبتُهما له...

وإذ سمعتُني أتلفَّظ بذلك، أرعبني مدى صدقي واستعدادي الموت من أجله علَّه يستوعب أخيرًا كم مضيتُ بعيدًا في حبِّه. لم

أكن أغالي، كنت مسكونةً به. إلى أن جاء يومٌ أدركتُ فيه أنّي أقف وحيدةً على الخشبة، أؤدّي بطولةً صنعتُها لنفسي من غير شاهدٍ أو شريك.

وما هي إلّا دقائق، حتى بلغني صوته مخنوقًا يناديني، فخرجتُ مسرعةً إليه. أشار أن أقف بجانبه، فتقدَّمتُ ووقفت إلى جانبه بعد أن حييتُ الحاضرين. رفع ساعده وأحاط بخصري، ثم هزَّني قائلًا لمن يقابله على الطاولة حيث تجمَّعت أموالٌ ومن فوقها ساعتي:

ـ هي لك لو ربحتَ...

تبسَّمتُ على مضضٍ لمزحته السمجة تلك، ثم حاولت التملُّص منه ومن رائحة عرقه ورائحة فمه العابق بالكحول، فشدَّ ساعده حولي وثبَّتني في مكاني. نظرتُ إلى الحاضرين أبحث في وجوههم عن علامة عبثٍ ما، فما ضحك أيٌّ منهم، بل جعلوا يتأمَّلونني بوجوهٍ عابسةٍ وأوداجٍ متهدِّجة، ويروز بعضُهم ثمن الغرض المعروض، فيما يغضُّ آخرون الطرفَ حرجًا. مستحيل! مؤكَّدٌ أنَّه ضرب مزاحٍ أو مقلب، جعل رأسي يحلِّل، فهو يغار عليَّ من كلِّ غريبٍ وقريب: «لا تجلسي بالمايوه على السطيحة»، فأجيبه أن لا أحد يراني، فيُكمل، أنا أراك! وعندما اتَّضح لي أنَّ الأمر ليس عبثًا، وأنَّه بعد خسارته كلَّ رهاناته، يعرضني للبيع كعاهرة، انهرت. ثم صرتُ أرتجف خوفًا. ثم انفلتت دموعي حتى كدت أختنق بها. فما كان من شريكه في اللعب إلّا أن انتفض بعصبيَّة، فرمى ورقه مشمئزًّا قبل أن يقلب الطاولة بما فيها ويخرج غاضبًا شاتمًا، يتبعه الآخرون.

وقف الحقير مترنِّحًا من السُكْرِ، ساخرًا: حتى في هذا لم تنفعي! قبل أن يدخل الحمَّام ليُفرغ مثانته من أكثر من عشر زجاجاتٍ على الأقلّ. وبالفعل، أنا لم أعد ذات نفع، فعملي كان قد توقَّف لكثرة ما رفضتُ عروضًا كانت تأتي من سواه، ومقدرتي على الابتكار والكتابة من أجله جفَّت تمامًا، حتى موهبة التمثيل باتت ورائي وقد خصَّصت كامل طاقتي له. كلُّ ما حصَّلتُه منه، كان قهرًا وكبتًا وسُمنةً تفشَّت تحت الجلد، كأن لتحمي داخلي منه. وبما أنَّني لم أعد مثيرةً جنسيًّا في عينَيْه، ولم أعُد منتجةً في كتابة نصوصٍ ينسبها له، فما العائق أمام طرحي فيشة لعبٍ أخيرةٍ على طاولة قمار؟

عاد من الحمَّام واستلقى على الكنبة. شخيره يعلو ويهبط طوال الليل، فيما أنا جالسةٌ على طرف السرير أتفكَّر في الخيارات المتاحة أمامي. وفي الواقع، لم يكن أمامي إلَّا خيارٌ واحدٌ أوحد: الرحيل! الخروج ما إن ينحسر الليل لأتمكَّن من تميِّز خُطاي، وقطع كلِّ صلةٍ به.

وهكذا كان. حملت أغراضي القليلة وخرجت مشيًا في الدرب المتعرِّج الفرعيّ، حتى بلغتُ الطريقَ المستقيم.

عدت إلى بيتنا، مكسورة الجناح، مطحونةً كسيَّارةٍ تعرَّضت لحادثٍ خطير. بدا واضحًا على ملامحي أنِّي لست قادرةً على التلفُّظ بحرف، وأنَّ ما أحتاجه بشكلٍ طارئٍ وفوريّ، هو حضنٌ وفراشٌ وصمت. لم تكن عائلتي تلك العائلة البرجوازيَّة المنفتحة لكي تسمح لصبيَّةٍ في عشرينيَّاتها أن تغيب عن المنزل عامَيْن، ثم تعود فجأةً من دون طلب السماح، تقديم أعذار، أو إعطاء أيِّ تفسير. لكنَّ رحمةً زرعها الربُّ في قلوب الأهل، جعلتهم يتفهَّمون بمجرَّد رؤيتي، أنَّه لا بدَّ من عمليَّة إنقاذٍ سريع، على أن يجيء لاحقًا وقت الكلام. كلُّ ما عرفه أهلي عنِّي بعد اختفائي هو أنِّي ما زلت على قيد الحياة، وأنِّي أتساكن ورجلٌ سأعلن قريبًا زواجي منه. لم أترك لهم مجالًا كي يعترضوا، يستفسروا، غبتُ ولم أُخلِّف أثرًا، باستثناء كلمةٍ صغيرةٍ تقول ما قلت.

غرقت في النوم ثماني وأربعين ساعة ـ أتهادى على حافَّةٍ فاصلةٍ بين عالـمَيْن، ورائي ضجيجٌ وزحامٌ وأصواتٌ وبشرٌ يتراكمون ويتزايدون كتلالٍ من أسماك السردين العفنة، وأمامي صحراء خاويةٌ برمالٍ بيضاء، وسكونٌ هائلٌ وغياب. نصفي هنا، ونصفي الآخر هناك، وثمَّة ما يتفسَّخ في داخلي ويتفتَّق بالتدريج، كفستانٍ ضيِّقٍ تتقطَّع قطبُه بفعل قوَّتَيْن جاذبتَيْن متعاكسَيْن. عندما صحوتُ مغسولةً بعرقي، مخدَّرةً بألمي، كان الوقت حائرًا محيِّرًا، فلم أعرف إن كان وقت غروبٍ أو شروق، وقد زاد من حيرتي سكونُ البيت الذي بدا فارغًا. قمت واستحممتُ طويلًا وناجيتُ الماء المنسكب على رأسي أن يغسلني من قرفي وممَّا علق بي من بصمات رجلٍ ما عدتُ أكنُّ له أيَّ شعور، أو هكذا اعتقدت.

لم أكن أعرف أنَّ والدي كان طريح الفراش في المستشفى، وأنَّ السرطان جعل يأكل كبده مع أنَّه لم يكن يشرب إلَّا في المناسبات، ومناسباتنا كانت قليلة، والمحزنة منها كانت أكثر من السعيدة، فلمَ يمرض كبدُه بالذات؟ ربَّما لأنَّه موضع تخزين الكدر والأحزان، وقد اختبأ غيابي غير المبرَّر، في كبده حتى أتى عليه. ثمَّة رجالٌ رهاف القلوب، يموتون بفيض الحبّ، في حين يُظلِّلنا حنانهم مثل شجرةٍ وارفةٍ في السماء. أخبروني كم طلبني بإلحاح، وعندما حاولوا الاتِّصال بي، لم يجدوا لي أثرًا. كنتُ مأخوذةً بحبِّ ساحرٍ يمارس ألاعيبه عليَّ ـ بل إنَّني كنت أنا بطلة سحره ـ بما فيها شطري نصفَيْن وقطع رأسي وإخفائي بغتةً من أمام أعين الجمهور. إلَّا أنَّ مرض والدي قوَّاني لا أعرف كيف، وساعدني

على قطع الحبل والتخلُّص منه. عدتُ أنا، ابنة أحنَّ رجلٍ في العالم أحبَّني وسيبقى يحبُّني مهما فعلت. أجلس إلى جانبه في السرير ملقيةً رأسي على صدره، تتساقط دموعي ولا أشعر بها تسيل، يرفع رأسي وينظر إليَّ ولا يقول شيئًا. يحدِّق في وجهي كأنَّه لا يصدِّق أنَّه يراني، ثم تتحوَّل نظرته إلى سؤال، لا عمَّا جرى لي، وإنَّما إلى متى ستبقين على هذه الحال، وما جرى قد جرى، فانسيْ وعودي إلى حياتك من جديد. يفهم من دون أن أشرح له أنَّ ثمَّة من اختطف قلبي، كسر جانحي وخذلني، وأنِّي أحتاج وقتًا لأبرأ منه. يصلني قوله من دون حكي، فأهزُّ رأسي موافقةً وأبتسم له.

ـ سنُشفى يا أبي، سترى، ونعود معًا، كما كنَّا من قبل.

لم تمضِ أيَّامٌ حتى فارقنا أبي. وحيدةٌ كنت معه في الغرفة، يده في يدي، لا أدري أتمسكني أم أمسكها. ثم جعلت أشعر بانسحاب الدفء منها، برعشتها الأخيرة قبل أن تسقط في كفِّي عصفورًا صغيرًا في نزعه الأخير. هَمَدَتْ تمامًا، فانحنيت أقبِّلها وأمرِّغ وجهي بها وأضعها على رأسي.

ـ غدرني الوقتُ يا أبي، وأنا غدرتُ بك. أعرف أنَّ خسارتي إيَّاك ستغطِّي خساراتي كلَّها، الماضية والقادمة على السواء، وأنِّي، مهما فعلتُ، لن أُشفى ممَّا فعلتُه بك. كان يجب أن تربِّي مخالبي، يا أبي، أن تنبِّهني إلى أنَّ من هم في الخارج، ليسوا جميعًا مثلك، وأنَّ بينهم من هم أشرارٌ بل شياطين. أخبرتك مرَّةً في مراهقتي كيف كنت أتعجَّب من اللواتي يحكين

بحقدٍ عن آبائهنَّ وقسوتهم وتعنيفهنَّ، وأخاف أن أحكي عنك أمامهنَّ، فأبقى صامتة. ويريحني أن يعتقدن أنَّك الأقسى من بين كلِّ الآباء، بدليل عجزي عن الكلام. لقد أفسدتني يا أبي وخرَّبت ذوقي في الرجال، وقد ظننتهم جميعًا مثلك أنت!

دفنتُ أبي، يا مي، ولم تصلني منه تعزية. وما كنتُ أريد أن أعرف عنه أيَّ شيء، إذ كنتُ أشعر في قرارتي أنَّ مرض أبي كان بسببه هو. وبقيتُ مدَّةً أحلم أنِّي عدتُ إلى البيت لأجد أبي مريضًا، مجرَّد رشحٍ بسيط، وأنِّي ما إن أُعطيه حبَّتي أسبرين، حتى يرتاح. وألوم في سرِّي كلَّ من قالوا لي إنَّه السرطان وقد تفشَّى في كبده، ومنه إلى جسده كلِّه. حبَّتا أسبرين من يدي، وها هو يستعيد صحَّته ويقف مثل حصان. ثم أراه وقد تحوَّل حصانًا بالفعل، يعدو في حقولٍ لم أر مثلها من قبل، صفراء ذهبيَّةٍ تتمايل فيها سنابل القمح. وأُفكِّر ليتني أستطيع الركض إلى جانبه، فيتطاير شعري كما يتطاير شعره. ثم أجدني أركض، بل أقفز في الهواء قفزاتٍ كبيرة كلَّما خبطتُ قليلًا بقدميّ، وأحبُّ أنِّي أعلو ثم أهبط بلطف. وفي لحظةٍ أنظر ورائي لأُخبر أبي عن مقدرتي المستجدَّة على الارتفاع عن الأرض، فلا أجده، ولا أجد الحصان، وأستفيق والغصَّة في حلقي بحجم كرةٍ والجفاف يكاد يسلخه.

منذ رحلتُ، لم يعد الوحش يظهر في ليلي على شكل كوابيس، وقد حلَّ مكانه أبي الذي راح يزورني كلَّما احتجتُ أن أُحادثه في أمر، فيرفع كمَّي قميصه استعدادًا كعادته، ويُصغي بصمت. وعندما أُفرغ جعبتي، يقف ويعانقني قائلًا إنَّ عليه

الانصراف. ذات ليلة، تقلَّبتُ كثيرًا في منامي، وصحوتُ على صوتي يتلو عاليًا مقطعًا من مسرحيَّة فيدرا المجنونة بحبِّ هيبوليت، ابن زوجها المحرَّم عليها، الشابُّ الجميل البريء المغرم بأريسي ابنة الأعداء:

ـ «أراهُ، أحمرّ، أشحبُ لمرآه؛ ويعلو اضطرابٌ في روحي المتيَّمة».

قمتُ مسرعةً إلى مكتبتي واستلَّيت منها نصَّ المسرحيَّة كما كتبه راسين اقتباسًا عن يوريبيدس. كنت مغرمةً بالمسرح الإغريقيّ، أحبُّ عظمة أدواره ومآسيه. فيدرا تفعل المستحيل لاستدراج هيبوليت بالإيحاء لا بالتصريح، إلى أن تعترف له بحبِّها صراحة، إثر انتشار خبر مقتل والده، زوجها الملك. لكنَّ هيبوليت يُصدم باعترافها ويرفضها بشدَّة، فهي زوجة أبيه وهو الشابُّ البريء المغرم بابنة الأعداء. تتدخَّل مربِّية فيدرا، فتكذب وتُخبر الملكَ الذي كذَّب شائعة موته بعودته، أنَّ هيبوليت اعتدى على فيدرا، فيقرِّر أبوه نفيه، إلى أن يموت في البحر... يا لبؤسك يا فيدرا، الشعور بالذنب، الغيرة، الحقد، ثم الاعتراف بالذنب، والموت انتحارًا. هذا هو قدرها وقد قرَّرته الآلهة، وقدر العشَّاق أن يذيب أسيدُ الحبِّ الحارق أفئدتهم.

ـ «أريان، يا شقيقتي، بأيِّ حبٍّ جريحٍ مُتِّ على الضفاف حيث تُركتِ!».

وهل هناك حبٌّ لا يُهلك؟ وهل تصبح العاشقات بطلاتٍ إلَّا لأنَّهنَّ متنَ عشقًا. أجل، الحبُّ القاتل مغوٍ، مهمَّته سلب الروح

بعد طول عذابٍ وقهر. أجل، الحبُّ لعنة، ومن لا يُبتلون به هم المحظوظون المباركون ورثة الأرض وأبناء الحياة الأبرار. قلَّةٌ هم الذين يدركون طبيعته القاسية المتلوِّنة بألف لون، المنقلبة إلى عكسها كلَّما عصف واشتدّ، المتحوِّلة ذُلًّا، غِلًّا، حِقدًا، رغبةً بالانتقام. مثل ساعة رملٍ لا تني تُفرغُ ما فيها من خلال قلبها رأسًا على عقب، قلبتُ أنا حياتي علَّني أفرغ منه.

على رأسي وقفتُ حين قبلتُ العمل مع مخرجٍ مسرحيٍّ عرض عليَّ أداء دور فيدرا الذي تحلم بأدائه كلُّ ممثِّلة. أقوى مآسي الحبِّ على الإطلاق، منذ الإغريق. هناك «ميديا» ليوريبيدس، اللبؤة الجريحة والعاشقة العنيفة التي قتلت ولدَيْها انتقامًا من خيانة والدهما، معشوقها الذي وعدها بالزواج قبل أن يخون الوعد ببساطةٍ وخفَّة. إيمَّا بوفاري، آنَّا كارينينا، ومَن أيضًا؟ لا يُحكى إلَّا عن حبٍّ يُعمي، يعرُّ تحت الجلد، يجعر كحيوانٍ مفترس، ينسف الروح، يضلِّل العقل، يغلي في الداخل كبركان. نذهب إليه مفتوناتٍ بعتيِّه ومدركاتٍ في أعماقنا أنَّه الوحيد الحقيقيُّ المستحيل، وأنَّه لا خلاص! ذاك هو حبُّ فيدرا الممنوع، وحبُّ ميديا الانتقاميّ، الحبُّ غير المتكافئ الذي ينتهي إلى خذلان، والحبّ الذي يعِد ولا يفي، ويناور ويراوغ ويطعن في الظهر ويخون في أقلَّ تقدير. الحبُّ الملوَّن بالغضب، الملوَّث بالذنب، الممسوخُ بالندم والحُرقة، والذي لا فكاك منه إلَّا بالموت.

أترين الرجال قادرين على مثل هذا الحبّ؟ إنَّه هبة السماء للنساء ولعنتها لهنَّ في آن. ومع ذلك، فقد كان أبي طيِّبًا محبًّا إلى

أقصى الحدود، وكذلك زوجك، لكنَّهما وأمثالهما ليسوا ذكورًا ـ إنَهم من نوع ثالث، نادر الوجود. أمَّا الكثرة الكثيرة، فهي لأولئك الصيَّادين الشرسين، عديمي الإحساس، يُطلقون نيرانهم في كلِّ اتِّجاه، لتسقط طرائد قلَّما لملموها، مخلِّفين إيَّاها لأنياب القهر والعذاب.

ثم عاد إلى الظهور! كنت واقفةً على الخشبة أثناء التمارين النهائيَّة قبل موعد العرض بأيَّام. الصالة معتمةٌ والضوء في عينيّ، لكنَّ طيفًا ظهر عند الباب وبقي في مكانه، جعل ركبتيَّ تصطكَّان وكلِّي يرتجف. صمتّ. وقف المخرج: ما بك، هل تشعرين بضيق؟ ثم طلب أن تضاء الصالة ويوافوني بكوب ماء. إنَّه هو! حزِرتُهُ من قبل أن أراه لأنَّ ثمَّة رائحةً مسمومةً تسلَّلت إليّ، ذبذبات، لا أعرف. اعتذرتُ ودخلت الكواليس. تبعني المخرج. صرخت:

ـ لا أريد أحدًا في الصالة، لا أريده هناك، امنعه من الحضور!

ـ حسنًا، جعل يقول المخرج مطمئنًا، ثم طُلب إليه أن يُغادر الصالة، وما عاد.

أيَّامًا بقيتُ أحاول محو أثر صدمتي باقترابه منِّي مجدَّدًا، بعد أن فعل كلَّ ما فعل وعانيت كلَّ ما عانيت للتخلُّص منه. إلى أن استوت الأمور وانشغلت بعروضي التي أعادتني أخيرًا إلى وسطي، عنصري الطبيعيِّ والمكان الذي يمدُّني بالقوَّة. ساعدتني فيدرا، أخرجتْ بصوتها وكلامها ما اهترأ في داخلي، أبرأتني من

غضبي الدفين على نفسي وعليه. عالجتني وجعلتني أنتقم لنفسي بنسيانه، فبات ذكرى من ماضٍ أقفلت عليه بمفتاحٍ رميته تحت سابع أرض. كان إحساسي بالخفَّة مماثلًا لشعور من يخرج من الأسر بأعجوبة، من يستعيد حواسَّه كلَّها دفعةً واحدة، ويمشي هانئًا معافى لا يُثقله همّ. أتوجَّه إلى المسرح قبل العرض بثلاث ساعات. يجب أن أقوم بتمارين الاسترخاء وتمارين الصوت، وأن أرتدي ملابسي وأضع ماكياجي، وأنتظر في مقصورتي حلول الساعة. وإذ أبدأ أسمع أصواتًا قادمةً من الصالة، أشقُّ الستارة المخمليَّة الحمراء قليلًا لأسترق النظر إلى المقاعد تمتلئ تباعًا. وأفاجئ نفسي في لحظة قلقٍ من أن أرى وجهه ما بين الوجوه، فأترك مكاني سريعًا لأحتمي في مقصورتي. مستحيلٌ أن يأتي لحضور العرض بعد أن طُرد مثل مجذوم. ثم أفكِّر: معه، ليس من مستحيل، هذا النرجسيُّ الأنانيّ. لا بدَّ وأنَّه يغلي غضبًا من فكرة طرده. لا، فأمثاله يجدون أنفسهم مهما عتوا وتجنُّوا وأخطأوا وآذوا، في موقع المظلومين المُساء فهمُهم. أطرد صورته من رأسي، وأعود إلى تماريني التي تسبق العرض.

المسرح يمتلئ كلَّ مساء، يا لها من نعمة! يأتون لمشاهدة الممثِّلة الشابَّة الصاعدة التي افتقدوا حضورها أزيد من عامَيْن. نخرج بعد العرض إلى سهرات الاحتفال والنقاش واللقاء بأصدقاء المسرح من فنَّانين ونقَّادٍ ومخرجين وممثِّلين وهواة. بيروت في تلك الحقبة، ماسةٌ مشعَّةٌ تبرق بألف لون، والمسرح الناشئ الذي بدأ يرمي بذوره في الأرض، كان أحد وجوهها اللامعة. يا الله، كم تناقشنا، وتصايحنا، وضحكنا وتحمَّسنا وتظاهرنا وهتفنا...

كانت أبواب الحلم مشرَّعةً على مداها، لا يحدُّها حدّ، وما عليكِ سوى الدخول حيث ستتعثَّرين بآلاف الحالمين من أمثالك، مواطنين وغرباء، عربٍ وأجانب، وكلَّه يصبُّ في هذه البقعة الصغيرة حيث يعوِّض البحر بمداه الشاسع ضيق الأمكنة.

لقد أنهضتْني بيروت من وقعتي، يا مي، رفعتني من الأرض، كانت أُمًّا حضنتني وغذَّتني ودعمتني بالمقوِّيات والمحفِّزات، وأنا أتعافى وأنمو وتمتدُّ جذوري وتتفرَّع أغصاني، حتى لتطاول السماء.

ـ هل غفوتِ يا مي؟ منذ ساعاتٍ وأنا أحكي، وها قد هبط الليل وأنت لم تنبسي بعد بحرف. أنا حتى لا أسمع مواء قطَّتك...

ـ ليست قطَّتي!

ـ ياه... صوتك متورِّم، لقد أبكيتك!

ـ تابعي...

كنتُ قد نظفتُ تمامًا، وما عدتُ أُفكِّر بكيفيَّة أخذ جرعتي اليوميَّة منه. أتكلَّم كمدمنة، لأنَّ الحبَّ من صنف المخدَّرات، بل هو أسوأها على الإطلاق، لا مراكز لعلاجه، لا أدوية، لا شيء. تضعفين أمامه، ولو بعد امتناعٍ طويل، فتسقطين في الإدمان من جديد. بل ثمَّة من يزعم أنَّ الإدمان غير قابلٍ للشفاء، وإنَّك متى وقعت في شركه مرَّة، فلن تتخلَّصي نهائيًّا منه، حتى ولو فُطمت خلال عقود. وما سامحتُ نفسي أبدًا لكوني ارتميتُ بمحض

إرادتي في أتون النار، النار نفسها التي سبق أن أحرقتني وذقت ألمها. بيروت تصفِّق لي، والصحافة تتحدَّث عنِّي نجمةً صاعدة، وأهل المسرح يحتفون بي، وروحي تعلو خفيفةً كمنطاد. أنتظر الليل لأغفو فأُخبر أبي عنِّي كلَّ شيء، وأفكِّر أنِّي أُريحه بذلك لأنَّ روحه معي، تحميني وتسهر عليّ. في يمِّ من الوحشة والخوف، أنت تتمسَّكين بأيِّ شيء، وأنا كنت متشبِّثةً بثوب ملاكٍ اخترعتُه ويُدعى أبي.

لا أعرف كيف صادني من جديدٍ وكيف تمكَّن من الإيقاع بي. أم أنَّني كنت على يقينٍ أنَّني لملمتُ شتاتي واسترجعتُ قوَّتي بحيث أستطيع المجازفة دون خوف؟ والحقيقة أنا لم أتَّخذ قرارًا بالعودة إليه، وإنَّ ما حصل كان فعل انزلاقٍ تدريجيٍّ لم أعِ خطورته في البداية. أردت أن أُريه كم انفصلتُ ونأيتُ، وكأنَّني ما التقيته أبدًا، وما تعرَّفتُ إليه، وما هدرت بسببه عامَيْن كاملَيْن. أنت الفاشل التعِس، أردت أن أُفهمه، وها أنا بدونك أستعيد جناحيَّ وأحلِّق عاليًا، والآتي سيكون أفضل بكثير.

باقة وردٍ وجدتها في مقصورتي مع بطاقةٍ صغيرةٍ تقول: «أحضركِ كلَّ يوم. من دونك، أنا لا أتنفَّس. عودي». انفجرت بضحكةٍ هستيريَّةٍ حين قرأت بطاقته. مجنون! أنت لا تستوعب أنِّي نجوتُ، وتريدني أن أعود؟ خلتُها مشاعر واضحة، رفضًا قاطعًا، وكنت على ثقةٍ تامَّةٍ بأنَّه قد افتُضح وما عاد يعني لي. ومع ذلك، فقد رمى لي صنَّارة احتمال أن يكون في الصالة بين الحضور. «أحضرك كلَّ يوم». هل فعلًا يحضرني كلَّ يوم؟ بدأت الفكرة تحفر في رأسي، تزعجني، ولكنِّي أقاوم. وذات ليلة، وبينما كنت

أنا فيدرا أتمزَّق لوعةً على انتقامي من هيبوليت حين علمت أنَّه مغرمٌ بأخرى، وندمًا على تسبُّبي بموته، للحظة، لجزءٍ صغيرٍ من الثانية، لمحتُه بين الحضور. يا إلٰهي، إنَّه هنا! ارتعشتُ واضطربت روحي وانحلَّت ساقاي. بمقدرة قادر، تمكَّنتُ من إكمال العرض الذي، ما إن انتهى وفرغت الصالة، حتى ارتديت ملابسي بسرعةٍ وتوجَّهت كالصاروخ إلى قاطعة التذاكر:

ـ كاميليا، هل لاحظت شخصًا تكرَّر حضوره المسرحيَّة أكثر من مرَّة؟

ـ بلى، ثمَّة رجلٌ يأتي عدَّة مرَّاتٍ في الأسبوع، وفي المرَّة الأخيرة أرسل لك باقة ورد. معجبٌ كبيرٌ على ما يبدو!

ختمتْ كاميليا جملتها ضاحكة، بينما كانت الدماء تنسحب من عروقي. يرمي لي طُعمًا يُخبرني عبره أنَّه، من جانبه، لم يقطع حبل العلاقة، أنَّه ما زال يحبُّني ويريدني أن أعود، وأنَّه بمجيئه المتكرِّر يتوسَّلني أن أراه لكي يعتذر منِّي... أترين يا مي؟ نحن نفسِّر سلوك الآخر بما يتوافق وفهمنا نحن للأمور، لا بحسب رؤيته وسلوكه اللذين، برغم معاشرتي إيَّاه عامَيْن كاملَيْن، سوف أكتشف لاحقًا أنِّي ما زلت أجهل عنهما الكثير. بعد أيَّام، رحت إلى كاميليا وسألتها:

ـ هه؟ أما زال يأتي؟

ـ أجل، أظنّ..

ـ إذن قولي له أن يأتي إلى مقصورتي، بعد العرض.

دخلت الكواليس بعد إقفال الستارة، ولم أُزل ماكياجي ولم

أغيِّر ملابسي، وتركت نورًا شاحبًا صغيرًا في زاوية مقصورتي، وانتظرت. أريده أن يراني مدجَّجةً بعتادي، ممثِّلةً باشرت صعودها المحتوم، فهذا كافٍ كي أقيم بيننا المسافة التي أحتاج لأقول له ما سأقول، وما أمضيتُ ليالٍ أحيكه في رأسي، أعيده وأعدِّل فيه، إلى أن اكتمل الخطاب.

قُرع الباب، فأذنتُ بالدخول. زملاء يعرضون أن نمضي بقيَّة السهرة معًا. اعتذرت. ثم انتظرتُ نصف ساعةٍ أخرى، فيما الدقائق تزحف ثقيلة، بطيئة، دبقةً كالبزَّاق. ولم يأت. وأمضيت ليلي أقلِّب الأسئلة على جمر حيرتي. كنت غاضبةً على نفسي بسبب قلقي وتوتُّري، وأريد أن أنهي الأمر بسرعةٍ ليعود إليَّ سلامي الداخليّ. لم أر في ردِّ فعلي انزلاقًا خطيرًا غير محسوب العاقبة، وإنَّما ضرورة إفهامه بشكلٍ حاسمٍ ونهائيّ، قطعي العلاقة وقراري أن لا أرى وجهه بعد الآن. في العمق، كانت رغبتي كاسحةً بردِّ الطعنة إليه، بالانتقام لكبريائي الجريح، ووضع نقطة الخاتمة، وشمًا بين عينَيْه.

جاء اليوم التالي، فقدمت باكرًا إلى المسرح ولم تكن كاميليا قد وصلت بعد. وحدها تستطيع إخباري إن كان قد حضر أم لا، أو إن كان قد حضر وجبُن عن مقابلتي، وهذا هو الأهمّ. بعد ساعةٍ ظهرت كاميليا، اقتحمتها بسؤالي:

ـ هل رأيته يوم أمس؟

استغربت قاطعة التذاكر لهفةً بدت واضحةً في نبرتي، وسؤالًا طرحتُه مباشرةً من غير إلقاء التحيَّة، فأجابت بهزَّةٍ من رأسها بأن

لا، لم يحضر الليلة الفائتة. شكرتها وانصرفت وأنا أشعر بخيبةٍ تسرَّبت إلى روحي. كنتُ قد حضَّرت نفسي لمونولوغٍ طويلٍ ألقيه عليه مثل صفعة. في يدي قنبلةٌ موقوتةٌ يجب أن أرميها في وجهه، وإلَّا انفجرت بي. كنَّا في الأسبوع الأخير من تقديم العروض، وقد جعلت أنتظر دخوله كلَّ ليلةٍ إلى مقصورتي، إلى أن فهمت: لقد جاء مرَّةً أخيرةً ليرمي الكرة في ملعبي، على أمل أن ألتقطها وأردّ.

ولم أردّ. هل كنت قد أغلقت كلَّ المنافذ، وتشظَّيتُ كالزئبق، ثم أعدت لملمة أجزائي، ونجحت في التعافي، وعاودتُ الوقوف على قدميّ، ليجيء هو وببطاقةٍ صغيرة، ينسف كلَّ ما بنيت من قلاع؟! لكنَّه، وبعد مرور أشهر، أي بعد أن فككت عتادي ودفاعاتي وتوقَّفت عن الاستعداد له، عاد وظهر. هكذا هو، يرمي طعمًا ثم يغيب. لكنَّ السمكة لن تعلق هذه المرَّة وقد تحوَّلت قرشًا يعضّ. أو هكذا ظننت. ماذا تسمِّين هذا، يا مي؟ مؤامرةً من القدر، سوء حظّ، لعنةً محتومة كلعنات التراجيديا الإغريقيَّة يستحيل النفاد منها والفرار؟

سعيدةً بنجاحي في مسرحيَّة فيدرا، أردت العودة إلى الكتابة، وكنت بالصدفة قد وقَعتُ على رسالة فريدا كاهلو إلى زوجها دييغو ريفيرا، تخبره فيها إنَّهم يستعجلونها في المستشفى لدخول غرفة العمليَّات حيث ستُبتر ساقُها. لكن، مصرَّةً على إكمال رسالتها، كتبت تقول: «. . . *أعترف أنِّي تعذَّبت، في كلِّ مرَّةٍ خنتني فيها، وليس فقط مع شقيقتي وإنَّما مع نساءٍ كثيرات. . . كيف سقطن في شباكك، لا أفهم؟ . . . لم أستطع أن أفهم أبدًا*

ما كُنتَ تبحث عنه، وما الذي أعطينك إيَّاه ولم أهبه أنا. لنكن صريحين، عزيزي دييغو، لقد أعطيتك كُلَّ ما يُمكن أن يقدِّمه إنسان، وكلانا يعرف. لذا، أودُّ لو أفهم الآن بحقِّ الجحيم، كيف تمكَّنت من إغواء كلِّ تلك النساء، بينما أنت ابن عاهرة؟... أكتب لأُخبرك بأنَّني سأطلق سراحك وأنَّني سأبترك أيضًا مثل قدمي. كُن سعيدًا ولا تبحث عنِّي مرَّةً أخرى. لا أُريدك أن تسمع أيَّ أخبارٍ عنِّي، ولا أُريد أن أسمع عنك أيَّ شيء. إذا كان هُناك ما سأستمتع به قبل موتي، فهو عدم رؤية وجهك اللعين المقيت وهو يجول في حديقتي. هذا كلُّ شيء. أستطيع الآن أن أرحل بسلام. الوداع من تلك التي أحبَّتك بجنونٍ متهوِّر. فريدا».

شعرت بتماهٍ كبيرٍ معها. أنا أيضًا أستطيع أن أبتر أيَّ عضوٍ من جسدي تحتمي أنت به، شرط أن أتخلَّص منك. مستعدَّةٌ لاقتلاع عينيّ، قلبي، على أن يقتلعك البترُ من حياتي. أتأمَّل في صورتهما معًا، فريدا وديبغو، هي أشبه بفراشةٍ ملوَّنةٍ تلتصق بوحش، وهو الضخم، هائل الحجم، بكرشٍ فظيعٍ ووجهٍ قبيح، يمكنه سحقها بقبضة يده. تلتصق وتغلُّ به كمن يطلب حماية. لماذا تحتاج نساءٌ مثل فريدا، قويَّات، حسَّاسات، فنَّانات، مبدعات، إلى رجالٍ مثل دييغو يغتذون باللحم الطريِّ ولا يشبعون؟ أم أنَّها طبيعة الرجال، موتورةٌ وغير قابلةٍ للإصلاح؟ كيف تُخان امرأةٌ تمنح كلَّ هذا الحبّ، تذوب عشقًا بالمعنى الحرفيِّ للكلمة، في حين يكتفي من تحبُّ بما هو أدنى بكثيرٍ لدى سواها؟ هل يفعل إثباتًا لفحولته، أم هو المُطلَق، لطالما أغوى النساء وأرعب الرجال؟

أحاول التفكير بأبطالٍ ماتوا حبًّا. ليسوا كثرًا، هناك قيس وروميو وفيرتير الصغير... لكن، لو أتيح لأولئك العشَّاق المتيَّمين أن يعيشوا مع معشوقاتهم، أما كان اختلف الأمر؟ لو تزوَّج روميو جولييت وعاشا معًا، هل كان ليستمرَّ في حبِّه ويبقى وفيًّا؟ يا إلٰهي، لماذا لا يُفهموننا ذلك منذ نعومة أظفارنا: ستغرمين وتُخانين وتخيبين، ومفاده، لن يحميك الجمال ولا العشق ولا الإخلاص ولا حتى التضحية بالذات، فكوني على بيِّنة، واعلمي أنَّه ليس لك الخيار!

قلَبَ مائدة الفطور بعنف، ثم رفع يده وجمَّدها أمام وجهي مرتجفًا. اضربني! اضرب اضرب! رحت أصرخ مقتربةً منه، إلى أن لكمني على فمي فبصقت الدم. ضرب بقوَّةٍ أخرستني، لأنَّها كانت ابنة احتقانٍ قديم، وريثة قهرٍ وكبتٍ وكره، وها هي قد انفجرت أخيرًا في وجهي. وقفت مصعوقةً، لا من اللكمة بحدِّ ذاتها، وإنَّما من الوجه الذي ظهر لصاحبها، مرتعبةً ممَّا انفلت فجأةً في داخله. أعاد الكرَّة فوقعت على ظهري، فجلس فوقي وراح يلكم كيفما اتَّفق، كيسًا من لحم ودم حتى فجَّر عظامي. وحين لم تبقَ لديه طاقةٌ إضافيَّةٌ على الضَرب، وقف وسوَّى شعره وثيابه، وقال مهدِّدًا:

ـ إذا لم تفعلي ما قلتُ، قتلتُك!

بعد خروجه، بقيت في الأرض لوقتٍ أحاول لملمة نفسي. تركتني دموعي فلم أبك، لأنَّ ما جرى كان أكثر بكثيرٍ من أن

أستوعبه: أيُّ زلزالٍ ضربني الآن؟ أيُّ مدمِّرةٍ فجَّرتني وبعثرت دماغي نتفًا صغيرةً التصقت بالجدران. عاجزةً عن التفكير، عن إتيان ردِّ فعل، جلُّ ما استطعت فعله هو التوجُّه إلى الحمَّام حيث غسلت وجهي بالماء البارد وبصقت الدماء المتجمِّعة في فمي. في المرآة، بدوت أشبه بلوحةٍ تكعيبيَّةٍ لرسَّامٍ فاشلٍ عديم الذوق. عيناي متورِّمتان، شفتي السفلى مشقوقةٌ تنزف، ملامح وجهي زرقاء حمراء تداخلت في بعضها لتصنع بقعًا ليلكيَّة. كيف أذهب غدًا إلى تماريني المسرحيَّة وكيف أبرِّر كلَّ هذه الكدمات؟ كنتُ، كما أخبرتكِ من قبل، أعمل على مسرحيَّة «فريدا». أنهيتُ صياغة النصّ، ووجدتُ مُخرجًا معروفًا، وبدأتْ التمارين. لكنَّ الوغد عاود الظهور من جديد. وجدته في المساء بعد يوم عملٍ طويل، متكوِّمًا أمام باب شقَّتي، مثل متسوِّلٍ فقير. ارتعبت في بادئ الأمر، ثم سمعت صوته يتلفَّظ باسمي، قبل أن يستغرق في نوبة بكاء. لم أفتح بابي، بقيت على سفرة الدرج أتأمَّل ما آل إليه: رجلٌ منكسر، مهمل، طويل الذقن والشعر في معطفٍ متَّسخٍ تفوح منه رائحة كحولٍ خانقة.

ـ سامحيني... ذنبي لا يُغتفر!

يقول كلماته تقطعها دموعٌ غزيرةٌ تنهمر على خدَّيْه، في حين تتراكم فوق رأسي طبقاتٌ من صمتٍ ثقيلٍ لا رغبة لي بتبديده. كان بإمكاني أن أبقى هكذا لساعات، أتفرَّج على تلعثمه، تفكُّكه، لولا أن سمعتُ خطواتٍ تصعد الدرج، فاضطررت إلى أخذه من ذراعه لأساعده على الوقوف، ثم فتحت باب الشقَّة وأدخلته بانتظار أن يعبر القادم. لكنَّه تسمَّر في المدخل لا يقوى على

الوقوف، فنزل بثقله على الأرض، مسندًا رأسه على ركبتَيْه. لن أقوى على رفعه، ولن يتحرَّك معي مهما حاولت. يشبه كتلة رصاصٍ ثقيلةً محترقةً ملتصقةً بالأرضيَّة. تركته في مكانه واتَّجهت إلى غرفتي. لم أشعل الضوء. ألقيت حقيبة يدي على المنضدة، خلعت حذائي وجلست على طرف السرير. شعرت بإرهاقٍ كبير، وبرغبةٍ عارمةٍ بعدم التحرُّك من مكاني. فليبقَ! وليرحل عندما يتمكَّن من الوقوف على قدمَيْه. لم تتحرَّك في داخلي أيُّ عاطفة، ولا حتى شفقة، ولا أيُّ شعورٍ آخر له علاقةٌ ببقيَّةٍ قليلةٍ باقيةٍ من الحبّ. رفعت الغطاء، وبثيابي انزلقت في السرير.

الآن، أريد شيئًا واحدًا: أن أناااام.

حين استيقظت صباحًا، لم أجده. ترك مكانه على كنبة الصالون، ورقةً ممزَّقةً من دفترٍ صغيرٍ كتب عليها كلمةً واحدة: أحبُّك، وعلى قفاها كلمةً ثانية: تزوَّجيني! أخذتها ودونما اكتراث، وكما لو كانت ورقةَ دعاية، جعلتكها ورميتها إلى سلَّة المهملات. ثوان، وعدت إلى السلَّة ورفعتها منها، جلست على الكنبة وأعدت فردَها. تأمَّلتُ خطَّه، ليست كتابة سكران فكَّرت، قبل أن أمزِّقها نتفًا صغيرةً جمعتها في يدي وأسقطتها فوق زبالة المطبخ حيث اختلطت مع قشور الفاكهة والخضار وبقيَّة النفايات، ثم قمتُ إلى المطبخ لأصنع قهوتي وأباشر صباحي من جديد.

مرَّت أيَّام، وكانت عاديَّةً لا تُشير إلى ما يستدعي التفكير بحدثٍ بسيطٍ أكثر ما يمكن أن يُقال فيه إنَّه عبر بسلام. غرقت في عملي وفي إعادة كتابة بعض المَشاهِد بعد عملِنا عليها، المخرج وأنا، حذفًا وتعديلًا. وكنت متعجِّلةً لحفظ النصِّ الجديد. ها هي

فريدا تخرج من جسدها المخدَّر المضطجع تحت مباضع الجرَّاحين المنكبِّين على بتر ساقها، تستذكر وتروي قصَّتها كاملةً مع دييغو، فيما هي ترسم لوحةً عملاقةً لجسدها المستلقي وفوقه مجموعة قفَّازاتٍ بلاستيكيَّةٍ بيضاء، تعلوها لوحةٌ بأنوارٍ قويَّة. ما تشعره فريدا في المسرحيَّة، نقلته أنا لها: انفصالٌ تامّ، كأنَّها واحدةٌ أخرى تشاهد تلك التي كانت، بحيادٍ مطلق، فراغٍ كلِّيّ، وقد انقلبت مثل قنِّينةٍ دلقت كامل محتواها، نقطةً إثر نقطة...

لم يُطل غيابه، لكنَّه عاد آخر، حليقَ الذقن بشعرٍ مسرَّحٍ بالماء كما عرفته في أوَّل أيَّامنا. شهر في وجهي باقةً كبيرة من ورودٍ حمراء، وفي اليد الأخرى علبةً يقف داخلها خاتمٌ ماسيّ. فاجأني منظره الكوميديّ، فضحكت ولم أتمالك نفسي أمام مظهره الغبيّ، فرأى في ذلك ليونةً شجَّعته على المضيّ. راح يُخبرني بسرعةٍ يُجيدها لسانُه عند الانفعال، أنَّه مرَّ بأزمةٍ قوامها الشعور بالفشل والتشكيك في موهبته وإفراطه في شرب الكحول. الآن، وقد لملم ذاته واستعاد ثقته بعد أن وجد من يموِّل له عملًا جديدًا، عاد يطلب السماح علَّني أقبل طلبه للزواج، فأنا حبُّ حياته وأمنيته الوحيدة أن يعوِّضني عن كلِّ ما فات.

ـ صدِّقيني، أنا لم أكن أنا!

قال هذا وشرقط كشريطٍ كهربائيٍّ أصابه مسّ، وراح يقبِّل يديَّ وينفضهما وهو يرجوني راكعًا أن أسامحه، ويعِد، ويُقسم، وسوف ترين، وإن لم أَفِ بوعدي، إلخ. دخلت في ذاتي بحثًا عن بقايا شعور، فلم أجد إلَّا صورًا غائمةً مغبَّشةً عن بداية لقاءاتنا وعناقاتنا الأولى وارتعاشاتي بين ذراعَيْه، ثم تذكَّرت رفضه

الحديث في موضوع الزواج، في بداية علاقتنا، واعتباره «مؤسَّسةً برجوازيَّةً تافهة»، وقوله «أنا لم أحقِّق ذاتي بعد»...

لم أقل له شيئًا. لكن، وفيما أستمع إليه، قفز إلى رأسي أنِّي بلغتُ السنَّ الذي ينبغي أن يكون لي فيه بيتٌ وأولاد. ووجدتني أرى الأمر من زاويةٍ مغايرةٍ وقد انقلبت الآيةُ فأصبح هو العاشق وأنا المعشوق. هل خفتُ من العنوسة؟ هل أردت أن أُرزق بطفلٍ وأن أصير أمًّا؟ وبما أنِّي حلَّلت لنفسي التملُّص من إعطاء أيِّ وعد، باستثناء أن نجرِّب مرَّةً ثانيةً وأخيرةً ونرى، أعني وأرى، فقد بقي على دماثته وحبِّه لأسابيع. لكنَّ موضوعة الزواج ما عادت تُذكر، بطبيعة الحال، وإن ذُكرت فبشكلٍ عَرَضيٍّ ومرفقةً بـ: بعد انتهاء تمارينك، ثم بعد انتهاء مسرحيَّته، ثم ما هذه المؤسَّسة التافهة البرجوازيَّة، ثم هل نحتاج ورقةً تُجيز لنا أن نتضاجع ونحبّ؟

تغاضيت عن الأمر، فالزواج لم يكن همِّي الأوَّل، بل الطفل. أريد طفلًا منك، أقول بغنج، فيُجيب: ننجبه متى شئت، ماذا تريدين، صبيًّا أم بنتًا؟ فأضحك، فيُضيف: وبطنك حين ينتفخ، وفريدا، كيف ستفعلين؟ حتى بدأت أقتنع في قرارة نفسي أنَّه تغيَّر فعلًا، فرحت أصدِّقه من جديدٍ وأفكِّر بعقله هو، وأتبنَّى شروحاته وتبريراته. أسابيع عسلٍ طويلةٌ عشتها معه، حلمٌ أحياه بعينَيْن مفتوحتَيْن أخشى إن أغلقتُهما، أن يتبدَّد. أتركه في البيت يعمل وأذهب أنا إلى تماريني. نعود فنلتقي في المساء. نحكي، نأكل، نضحك، يُحبُّني بقوَّةٍ تقطع أنفاسي، وأغفو مطمئنَّةً بين ذراعَيْه. بلى، لقد تغيَّر، أهمس لذاتي، «أنا لم أكن أنا»، صدِّقي ما قال.

وحملتُ.

برغم تناولي حبوب منع الحمل، وتحقُّقه من كوني أتناولها كلَّ صباح، علق في رحمي شيءٌ منه غصبًا عنِّي وعنه. تأخَّرت عادتي الشهريَّة أكثر من خمسة أسابيع، ثم أكَّد لي الطبيب أنَّ في بطني جنينٌ سيتأكَّد ثبوته في الشهر الثالث، أي بعد خمسة أسابيع. انتظرت أن يعود لأُخبره، فلم يأتِ ردُّ الفعل الذي انتظرت. وقف فجأةً لا يدري ما يقول، ثم استعجل الخروج متذرِّعًا بموعدٍ ينتظره. وبقي طويلًا في الخارج، ولم يعد إلَّا مغسولًا بالكحول وروائح عطور نساءٍ رخيصات. ادَّعيتُ النوم. سقطةٌ واحدةٌ لا تعني أنَّه لم يتغيَّر. كان يبدو تعبًا منذ أيَّام، وحين أسأله، يُجيب بأنَّ الأمور على ما يرام. أتكون مسؤوليَّة الطفل القادم قد ضعضعت توازنه وأقلقته؟ ألا يُقال إنَّ الرجل، بعكس المرأة، لا يصبح أبًا إلَّا بعد ولادة الطفل؟ غفوتُ على فراش هذه الفكرة القطنيَّة الدافئة، وحلمتُ أنَّه يعتذر لي ويعانقني طويلًا، لساعات.

صحوتُ بمزاجٍ رائق. أعددت فطورًا لذيذًا وضعته على طاولة المطبخ بعد أن مددتُ عليها شرشفًا أبيض. ما زلتُ أريد احتفالي بالنبأ السعيد، فلا بأس إن جاء متأخِّرًا يومًا واحدًا. كانت الابتسامة تدغدغ وجهي، وأنا أقف على النافذة المطلَّة على البحر، وأفكِّر بصبيٍّ صغيرٍ يركض عاريًا على الشاطئ، أو ببنتٍ تصرخ كلَّما بلَّلتها المياه، وتلوِّح لي من البعيد.

استيقظ بمزاجٍ عكر، وتأفَّف من رائحة البيض المقليِّ عند الصباح، ثم اقترب منِّي، ففتحت ذراعَيَّ استعدادًا لعناق، لكنَّه

أنزلهما مبقيًا يديَّ في يدَيْه: لقد فكَّرتُ وقرَّرتُ، ستُجهضين! لا يمكننا الآن استقبال طفل، نؤجِّل المشروع. لماذا؟ قلت بهدوء، محاولةً السيطرة على أعصابي، وتابعت: سبق أن ناقشنا الموضوع.

ـ لقد تغيَّرت الظروف!

ـ أيُّ ظروف، أنا لا يهمُّني أن أؤدِّي دور فريدا بنفسي، ثم إنَّ العرض لن يدوم أكثر من شهرَيْن. معي وقتٌ قبل أن يظهر عليَّ الحمل.

ـ وضعنا المادِّيُّ لا يسمح... لماذا تجبرينني على التوضيح... لقد فقدت عملي، المنتج انسحب، بح مشروع... بح مولود...

كانت عروقه قد بدأت تحتشد بالدماء، وحدقتاه تسودَّان. أفلتُّ يديَّ منه وتراجعت خطوتَيْن: لن أجهض! ولو أطبقت السماء على الأرض! لم أكد أتمِّم جملتي تلك، حتى طارت الأطباق متساقطةً على الأرض. سحب الشرشف بما عليه، ثم قلب الطاولة بعنف، واقترب منِّي رافعًا قبضته في وجهي. تراجعت خوفًا ورفعت ذراعي أحمي وجهي، فتراجع هو الآخر، كاتمًا غيظه، وقال بهدوءٍ مصطنع: نناقش الأمر هذا المساء.

لن أجهض، كنتُ أردِّدها لنفسي طوال النهار، وحين يأتي المساء، سوف أتفادى فتح الحديث معه. أسابيع قليلةٌ ويصير هذا الكلام بلا معنى، وتكتمل الشهور الثلاثة. ثم أين أذهب ونحن غير متزوِّجَيْن، والإجهاض ممنوع؟ أشحذ حججي استعدادًا

لإقناعه، في حين حسب هو أنّي مقتنعةٌ أنتظر منه فقط تدبير الأمر. إلى أن جاء ذات مساءٍ ببباقة زهر، فقبَّلني وقال إنَّه وجد طبيبًا آمنًا وإنَّنا ذاهبان إليه غدًا صباحًا لإنهاء الموضوع.

ـ أيُّ موضوع؟ هل تعتبر الطفل في بطني موضوعًا؟ ألم أقل لك إنّي لن أجهض.. أنا سأتكفَّل به وبمصروفه، ولن يترتَّب عليك أيّ...

لست أدري، هل أنا من وضعت له المفتاح بالباب ليدخل ويعيث فيَّ خرابًا، أم أنَّه كان مفتوحًا بالأصل؟ لأنَّ موضوع الضرب والتعنيف صار اللغة والحرف.

ـ أو تجهضين، أو أجهضك بالقوَّة!

أحيانًا لا أفهم ذاتي، إذ لِمَ تراني بقيت ولم أنجُ بنفسي؟ هل كنت أريد دفعه إلى أقصى حدود القسوة؟ هل كنت أريد إجاباتٍ على أسئلتي: لِمَ عدتُ إليه؟ أو أين اختفى الرجل الذي يُحبُّني ووعدني أن لا يغضب، أن لا يصرخ، أن لا يؤذيني، وكيف نبت فيه هذا الوحش الأشدُّ بطشًا من ذاك الذي كان؟ هل أوثقتني تلك النطفة به ومنعتني من بتره؟ يضرب ويركل ليتأكَّد أنّي فقدت الطفل، وحين يكتشف أنّي ما زلت حاملًا، يعاود الضرب. ضربني لدرجةٍ جعلتني لا أتعرَّف إلى نفسي لو رأيتها في مرآة. ثمَّة شرٌّ مرعبٌ تحكَّم بنا نحن الاثنَيْن، شرُّه المطلق، وشرِّي الصغير الذي راح يكبر في داخلي يومًا بعد يوم، بعد أن اكتشفت ذات ليلةٍ أنّي قد فقدتُ الجنين. تدفَّقت الدماء بين فخذيّ، وسقطت قطعةٌ حمراء لزجةٌ عرفت أنَّها ما كان يتكوَّن في داخلي. جمعتُها

عن الأرض ووضعتها في كيس، ثم في لفافة قماش، وذهبت إلى الشاطئ حيث حفرت وأودعتها الرمل. كنت كمن يدفن قطعةً حيَّةً منه، مدركةً أنَّ التي سترجع إلى البيت، لن تكون هي نفسها أنا.

عدت إلى الشاليه، مسحتُ كلَّ الآثار، واستحمَّيت. لم أحزن على فقد الجنين، فهذا كان مقدَّرًا، لكنِّي لم أُرد له أن يعلم أنِّي أجهضت، كي لا أمنحه فرصةٌ أن يتبدَّل أو يبدِّل سلوكه معي. أردته أن يبقى هذا المسخ الذي جعل يزداد وحشيَّةً وعنفًا كلَّ يوم.

انطفأت روحي. شعرت بها تلفظ آخر أنفاسها، فقصصتُ شعري حدادًا عليها، ثم عدت وحلقته على الصفر. حلقت حاجبيَّ أيضًا. لا أريد أن أشعر بوجود أيِّ شعرةٍ في بدني كلِّيِّ الدنس. عندما رآني على هذه الشاكلة، كفَّ عن ضربي. أعتقد أنَّه خاف، أو أنَّه تأكَّد أنَّ طفلًا لن يعيش في حوض امرأةٍ مثلي، وما هي إلَّا مسألة وقت. ثم صار يغيب كثيرًا، ويبيت خارج البيت. ربَّما يتوقَّع لي أن أنتحر، وهو لا يريد أن يحصل ذلك في أثناء تواجده. ثم خطر لي أنَّه يغيب على أمل أن أرحل، كما سبق أن فعلتها مرَّة، فيعود كي لا يجدني. كان حلًّا سهلًا بالنسبة إليه، أن أرحل، لذا أردت أن أموت في بيته، أن أشعره بالذنب، أن أحيل حياته عذابًا أبديًّا. نويت أن أكتب رسالةً تقول إنَّه قاتلي، سبب موتي، وأن أوقع لعنةَ البشر والآلهة عليه.

لكنَّ اللعنة فضَّلتني أنا، إذ رحت أنزف لأيَّام لأنَّ الإجهاض تمَّ بشكلٍ جزئيّ، وكان لا بدَّ من طبيبٍ يتمِّم العمليَّة بحضوره هو، وبعد توقيعه، مع إبراز ما يُثبت أنَّنا متزوِّجان. لا أعرف

كيف تدبَّر الأمر، شهادة زواجٍ مزوَّرةٌ سمحت للطبيب بتنظيف رحمي من بقاياه، وبنقل وحداتٍ من الدم إلى شراييني الملوَّثة به. ثم جاء وقت خروجي من المستشفى. كان منظري يستدعي الشفقة وقد بدا عليَّ أنِّي من عشيرة المصابين بالسرطان الذين يفقدون شعورهم من العلاج الكيميائيّ، فكان كلَّما صادفني أحدُهم، يدعو لي بالتعافي متوجِّهًا إليه: «الله يشفيها!».

وقَّع القاتلُ أوراق خروجي وأخبرني في طريق العودة، أنَّه اضطرَّ إلى استدانة كلفة المستشفى من زميلٍ ألحَّ أن يُعيد إليه المبلغَ في أقرب وقت. هززتُ رأسي مؤكِّدةً أنِّي سأُعيد إليه ما يتوجَّب، ثم عرضت عليه بهدوءٍ أن يرافقني إلى الشاليه، فهذا سكنه في نهاية المطاف، وأنا سأغادر صباح الغد، ولا بأس إن تصافينا معًا وافترقنا على وفاق. نظر إليَّ مشكِّكًا، لكنِّي أضفتُ أنَّنا سنطلب شيئًا جاهزًا للعشاء، ثم أحاسبه بما دفع. وإن أراد المغادرة بعد ذلك فلا بأس، سأترك له المفتاح تحت الجرن الحجريِّ الذي إلى يمين المدخل. وهكذا كان. أعتقد أنَّه قبِل اقتراحي لأنَّه أراد التحصُّل على ماله قبل كلِّ شيء، فلا بأس من مجالستي قليلًا، ثم الانسحاب.

جلسنا متقابلَيْن أمام باب الشاليه حيث وضعنا طاولةً صغيرةً مددنا عليها ما طلبنا من طعام. لم ينتظر طويلًا حتى بدأ يأكل بنهم، وبدأتُ أنقد كالعصفور مسايرةً له، ثم وقفت ودخلت المطبخ وأخرجت من خزانته زجاجة ويسكي شبه ملآنةٍ ومن البرَّاد ثلجًا، وصببتُ لنا كأسَيْن، عدت بهما احتفالًا بنهاية علاقتنا. رفع كأسه في وجهي وقال متصنِّعًا الابتسام بأسًى، أو ربَّما كان شيئًا

من أسًى فعليّ، لا أعرف، إذ من لا يحزن ولو قليلًا على مفارقة كلبٍ أخلص لسيِّده كما فعلت:

ـ عفا الله عمَّا مضى... بشرفك، أترينا فعلًا جديرَيْن بتربية طفل؟

ابتسمتُ لنكتته السمجة موافِقة، وأنا أعيد ملء كأسَيْنا. فتابع:

ـ الآن على الأقلّ، ستعودين إلى التمثيل... فريدا؟

ـ لا أعرف. أرتاح أوَّلًا، ثم أقرِّر. وأنت؟

ـ جاءني عرضُ عملٍ في الكويت. قريبًا أوقِّع العقد...

مبروك، قلت محشرجة، فشكرني وانطلق يحكي دون توقُّف، كما تكون حاله عندما يتحمَّس لأمر. سينشئ هناك مجلَّةً جديدةً تختصُّ بشؤون المسرح والفنون المشهديَّة في العالم العربيّ. المشروع مهمٌّ والراتب سخيّ، هكذا يجمع مبلغًا يُتيح له أن يموِّل مسرحيَّاته لاحقًا، عندما يعود...

ما عدت أصغي. غاب صوته. سيسافر هكذا ببساطة، بعد أن قضى عليّ. وراح ريشُه ينتفش وصدرُه ينتفخ، وجعل يصبُّ لنفسه الويسكي كأسًا تلو الآخر، وأنا صامتة، ثابتة الملامح، أتأمَّل في تعابير وجهه كيف تتلوَّن وتتبدَّل، تقسو وتلين، تغلظ وتنعم. أنظر إلى أكلٍ عالقٍ بين أسنانه، إلى صفار الدخان يبقِّع أصابعه، بداية الصلع في أعلى رأسه، أظافره المقلَّمة كيفما اتَّفق، قميصه المفتوح على صدره، اعتداده بنفسه، وكمَّي قميصه المرفوعَيْن على ساعدَيْه.

تقدَّم الليل، وحين فرغت زجاجة الويسكي تقريبًا، وقف مترنِّحًا يودِّعني. ثم بعد خطواتٍ قليلةٍ خطاها بصعوبة، صفن لثوانٍ في الأرض، قبل أن يستدير ويقول:

ـ معك حقّ، سأنام هنا على الكنبة، وأنت في غرفة النوم.

ـ لا، نم في سريرك. سأرحل باكرًا وأريد أن أتحرَّك براحتي.

حسنًا، أجاب، ثم اقترب وقبَّلني على خدِّي وهو يلوك تحت لسانه الثقيل الخَدِر عبارة تصبحين على خير. وبهشاشة خرقةٍ بالية، ارتمى بثيابه فوق السرير وغرق في نومٍ عميق.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

غَرَقٌ.

حين، بعد عراكٍ مع الأمواج وهلعٍ وتشبُّثٍ بفكرة الخلاص بأيِّ ثمن، ترخين حياتك من يدَيْك وتستسلمين. أنت، في هذا الفاصل النهائيِّ القصير، ما زلت حيَّة، سمكةً غريبةً تهبط عاموديًّا نحو القاع. قلبُ البحرِ رائق، لا موج، لا صوت، الرؤية غائبةٌ وأنت تسلِّمين ذراعَيْك المفتوحتَيْن إلى جنِّيَّات البحر اللاتي قدمن لاستلامك، ملكةً متوَّجةً بطحالب شعرك المتماوج. وفيما أنت تخرجين من فمك آخر زفراتك على شكل بالوناتٍ صغيرةٍ تغادرك صعودًا، تدركين أنَّك على حافَّة ثقبٍ أسودٍ لا عودة منه، بينما هو نائمٌ في الداخل، يشخر بأمان من لم يرتكب ذنبًا، ببراءة طفل، بسعادة مسافرٍ تهديه الحياة فرصة محو ماضيه الآثم، والبدء من جديدٍ بسجلٍّ نظيف.

قمتُ بشكلٍ آليٍّ ورفعت الأكل وجليت الصحون، ثم خرجتُ أتنسَّم الهواء. مفاصل أطرافي كأنَّها نُزعت منِّي فحوَّلتني نوعًا من الرخويَّات. ناداني الموج، فاقتربتُ، بلَّل أطرافي، بطني، صدري، ثم شدَّني إليه وجعل ينُزلني إلى عمقه ببطء. استسلمتُ. ميِّتة، هذا ما أنا عليه، بعد أن حشر مأساتي في حلقي حتى خنقني. غريقة، هذا ما سأكون عليه غدًا ما إن ترفع العتمةُ ستارَها وتدفعه هو إلى التملُّص ممَّا ارتكبه بحقِّي. فرغ كلُّ ما في صدري من هواءٍ تقريبًا، وفي لمحةٍ خاطفة، ظهر أمامي، وجهه في وجهي، فمه في فمي، يريد تزويدي بقليلٍ من أوكسجين صدره... لا، يريد أن يسرق آخر أنفاسي، قبل أن يضع يدَيْه على كتفيَّ ويضغط نزولًا، مستعينًا بحركته تلك للصعود. كنت في نزعي الأخير، ولست أدري إن كان مرآه قد شحن غريزتي للبقاء بطاقةٍ انطفأت مع فقدي الجنين، أم أنَّها روحي خرجت من جسدي الغريق، واتَّجهت صعودًا نحو سطح الماء.

خرجتُ من الماء ورجعت إلى الشاليه. السكون يسيطر على المكان، حتى أمواج البحر بدت هادئةً أكثر من المعتاد. جلستُ، أو هي روحي التي جلست على كرسيٍّ أمام الباب. كنت قد رأيتُ بوضوح، خلال سيري القليل من الشاطئ حتى العتبة، كلُّ ما سيكون، لذا فلم أكن أشعر بارتباكٍ أو بتوتُّر من سيُقدم على ارتكاب فعلٍ حاسم ونهائيّ. قمتُ وفتحت البابَ، واتَّجهت نحو المطبخ. ملأت كأسًا كبيرًا بالماء البارد وشربت حتى ارتويت. هل يشعر الغرقى بالعطش كما كنت أشعر أنا؟ خطر لي أن آكل

شيئًا يُعيد إليَّ قواي، لكنَّ العطش هو ما كنت أشعر به، لا الجوع. تركت المطبخ إلى الصالون، ومنه إلى غرفة النوم. غطيطه سيطغى على كلِّ صوتٍ أُصدره، لذا تراني فتحت الخزانة برغم أزيز مفاصلها، والدُّرجَ الكبير العالق باستمرار، ورحت أجمع ثيابي، عند قدم السرير. ملابس الشتاء والصيف، قطعي الداخليَّة، شالاتي، أحذيتي، أوراقي... كأنَّ الهدف كان إفراغ الخزانة ممَّا فيها، لا جمع أشيائي استعدادًا للرحيل. اكتمل الأمر، فجلست على طرف السرير وكان شخيره يعلو ويهبط بانتظام، قرَّبت وجهي منه كي أتأمَّل ملامحه مرَّةً أخيرة، لكنَّه كان مضطجعًا على بطنه، فلم أر منه الكثير، وكان هذا لخيري لكي لا يفاجئني أيُّ تردُّدٍ أو رغبةٍ بالتراجع.

غادرت غرفة النوم، نحو السطيحة حيث كان يضع أشياء متفرِّقةً منها غالون أزرق من الزيت المخلوط بالكاز يستخدمه لإشعال الفحم في موقد الشواء، حملته وعدت به إلى كومة الثياب فأشبعتها بالمزيج حتى فاحت رائحةٌ خانقةٌ في المكان. كنت أتحرَّك كطَيْف، كلعبةٍ آليَّةٍ مبرمجةٍ على فعل ما تفعله. كان رأسي معطَّلًا، كنت روحَ غريقةٍ عائدةٍ تطلب الانتقام. اقتربت من السرير حيث وضع علبة سجائره، وتناولت القدَّاحة وأشعلت طرف ثوبٍ من الأثواب. حين أخذتِ النار في الكومة، أطبقتُ النافذة، ثم بابَ الغرفة، ثم أقفلت البابَ الخارجيَّ بالمفتاح، وابتعدتُ إلى الشاطئ حيث جلستُ على الرمل أنتظر ابتداء العرض.

شاهدتُ ألسنة النار تعلو في غرفة النوم، ثم رأيت اللهب يتراقص خلف زجاج النافذة الصغيرة، قبل أن يهشِّمه محاولًا

الإفلات. إلَّا أنَّ هواءً هبَّ أعاده إلى الداخل حيث سمعتُ صوتَ سعالٍ قويّ، تبعه صراخ استغاثةٍ ومحاولات قرعٍ على الباب، تلاها خبطٌ ورفسٌ قويَّان سعيًا لفتحه.

لم أتحرَّك من مكاني. كنت كأنِّي أُشاهد فيلمًا سينمائيًّا وأنا كمتفرِّجةٍ غير معنيَّةٍ بما يدور فيه. لكنَّ «البطل» نجح في كسر الباب، وطلع مختنقًا، تكاد رئتاه تخرجان من بين فكَّيْه. وحين لمحني جالسةً على الرمل أبحلق فيه، انتابه ذعرٌ حقيقيّ، فتراجع متعثِّرًا بخطاه، قبل أن يفرَّ هاربًا إلى حيث يبدأ الطريق العامّ.

لقد رأى القاتلةَ التي فيّ، وهي بالفعل كانت هناك.

ودخلت في غيبوبةٍ هي أشبه بموتٍ معلَّق. أنا، والحبل في رقبتي وقدماي على بعد ملليمتراتٍ من الكرسيّ، ومن لحظة الإعدام. . .

لم يرفع بحقِّي دعوى تتَّهمني بمحاولة قتله عن سابق عمدٍ وتصميم، وقد شعر أنَّ جنوني قد يلحق به إلى نهاية الأرض. لقد كان هذه المرَّة هو الضحيَّة، والضحيَّة قلَّما اشتكت أو حاولت الانتقام، ذلك أنَّ هدفها الأوَّل والأخير هو التخلُّص من سبب قهرها والابتعاد ما أمكن عنه. حضرت الشرطة واصطحبتني إلى مقرِّها لتحقِّق معي. فبرغم أنَّه أسقط حقَّه، بقيت دعوى الحقِّ العامّ. طرحوا عليَّ أسئلةً دوَّروها وعلكوها وكرَّروها، ولم يصلوا إلى نتيجة. لكنَّه، خلال التحقيق معه، نعتني بالجنون وأخبر كيف كنت أتحوَّل وأفقد السيطرة على سلوكي، خاصَّةً بعد خسارتي الجنين وعلمي أنَّه مسافرٌ إلى الكويت. قال إنَّ هذا اضطرَّه إلى

الابتعاد عنّي، إذ بات يخشى على حياته.

أمَّا الأطبَّاء الذين كشفوا عليّ، فقد نسبوا فعلتي إلى انهيارٍ عصبيٍّ حادٍّ واضطرابٍ في الوعي وفي المقدرة على التمييز بين الخطأ والصواب، ما يجعلني خطرًا على نفسي وعلى الآخرين. أصدرت المحكمة قرارًا بنقلي إلى سجن «العصفوريَّة»، مستشفى الأمراض العقليَّة والمجانين آنذاك، حيث أشبعوني حبوبًا مهدِّئة، مع أنّي كنت ما وراء الهدوء، وعلاجاتٍ بصدماتٍ كهربائيَّة، وكنت ما بعد الصدمات، وتحليلاتِ أطبَّاء نفسيِّين تناوبوا على حالتي وهم يتنافسون على مَن سيُخرج منّي حرفًا قبل الآخر.

لذتُ بالصمت. دخلت فيه كمن يدخل في رحم، ولاءمني المكان برغم نوبات الجنون التي كانت تصيب رفاقي من النزلاء الآخرين حين يبدأون بالصراخ، بنتف شعورهم وضرب رؤوسهم في الجدران، أو بالتضارب في ما بينهم. كنَّا عدَّة مجموعاتٍ نرطن بلغاتٍ عجيبةٍ مختلفة، فهناك مجموعة المغتربين العائدين، وهؤلاء كانوا يعانون من صدمة الاغتراب والعودة إلى البلاد بعد فشلٍ ذريعٍ في تحقيق أحلامهم، ومجموعة المرضى النفسيِّين المفصومين والمكتئبين والمتأخِّرين عقليًّا، ومجموعة المجرمين والقتلة وكنت مصنَّفةً من بينهم. وقد أنقذني من خلافاتهم وشجاراتهم، كوني فاقدة اللسان أشعر في داخلي أنّي بلا رأس، وقد نجحتُ مثل الساحر الشهير المدعو داهش، في أن أودعه في مكانٍ ما، دون أدنى رغبةٍ بالعودة لاسترجاعه. وبالفعل، كنت مقتنعةً أنّي أقف جسدًا من دون جمجمة، فلا أرى ولا أسمع ولا أفكِّر بأيِّ أمر. غياب، خلوٌّ تامّ، خواءٌ وفراغ.

مضت أيَّامي هكذا، إلى أن صدر قرارٌ بنقلي من قسم المرضى الخطرين، إلى قسم آخر يشبه المشفى أكثر ممَّا يُشبه سجنًا. كان صاحب القرار طَبيبًا جديدًا تخرَّج من إنكلترا، وأراد العودة إلى وطنه ليعالج مواطنيه. قيل إنَّه قدم بأفكارٍ وأساليب علاجٍ نفسيَّةٍ جديدة، وأنَّه بعد دراسة حالتي ومقابلتي أكثر من مرَّة، ارتأى أنِّي لا أمثِّل خطرًا، فقرَّر أن يباشر علاجًا طويلًا أدَّى إلى إخراجي من العصفوريَّة، إلى العالم من جديد. الطبيب هذا كان ملاكًا أرسله والدي المرحوم، يا مي، لا أشكُّ لحظةً في ذلك، فقد أحاطني واهتمَّ بي وعالجني ورفعني من الأرض. ثم أحبَّني، لا أفهم لِمَ أو كيف. بعد خروجي، طلب يدي، وأنا لم أُشف بعد. تزوَّجتُه. كان قد صار حضوره إلى جانبي أليفًا، جزءًا من روتيني اليوميّ، رفيق وجعي وصمتي وانفراطي. وانتفخ بطني، ووَلدتُ وأنا لمَّا أسترجع بعدُ رأسي الذي كنتُ قد أودعتُه لا أدري أين، ثم نسيتُه...

أطلتُ عليك. هذي الحقيقة كلَّها وقد صرتِ تعرفينها، يا صديقتي. حان وقت رحيلي، أتركك ولن أعود لمضايقتك بعد الآن. سامحيني، يا مي!

III

يوسف

أدخلت المفتاح في ثقب الباب متوجِّسًا، شعرت بقشعريرةٍ وارتجف قلبي، فهذه لم تزل عندي، شقَّة الستّ مي.

الداخل معتمٌ والكهرباء مفصولةٌ منذ أكثر من ثلاثة أعوام. وقف العريسان الجديدان الزائران خلفي بعد أن طلبت منهما البقاء في المدخل بانتظار أن أفتح النوافذ والأباجورات. هذه هي الزيارة الثانية هذا الأسبوع. كان التوأمان قد أوكلاني رسميًّا ببيع الشقَّة وحدَّدا سعرًا لم يُغرِ الشُراة. الشُراة اليوم يبحثون عن «لقطة» بعد الأزمة الخانقة وانهيار الليرة وانفجار المرفأ وسرقة ودائع الناس. مسكينة لبنان، لا أدري أيُنا الأسوأ حظًا، نحن السوريِّين أم اللبنانيِّين. «لبنان دكر»، ينبِّهني سكَّان البناية بلؤم أحيانًا، فأصحِّح ضاحكًا: كلُّ هذا الجمال وترونه ذكرًا؟! المهمّ، بقيت اللافتة الكبيرة التي أوصيت عليها لدى خطَّاط، معلَّقةً لأشهرٍ على درابزون الشرفة، بحيث يراها الغادي والذاهب. وصلتني عدَّة

اتِّصالات، لكن، ما إن أُسأل عن سعر البيع، حتى يشكروني معبِّرين عن لامعقوليَّته. بعضهم يستفيض بالكلام ويروح يشرح لي عن عروض بيعٍ أخرى «بتراب المال» كما يقولون، وآخرون يسألون عن لهجتي السوريَّة ويُشيرون إلى ابتعادي عن الواقع في طلبي مثل هذا المبلغ الخياليّ، فأضطرَّ لأن أشرح أنِّي وُكِّلت بالبيع من قبل ابنيْ صاحبة الشقَّة، وأنَّه توكيلٌ ممهورٌ بتوقيع كاتب العدل فلان الفلانيّ. حاصله.

عندما أخبرت التوأمَيْن أنَّ الشراة قلائل في أيَّامنا هذه، وأنَّ بيع الشقَّة يقتضي إحراقَ سعرها وهذا حرام، أو التريُّث حتى عودة الأمور إلى طبيعتها حيث ينبغي أن «تشوط» الأسعار ـ هذا على الأقلِّ ما كنتُ أسمعه من السكَّان القلائل الذين كانوا ينوون البيع بداعي السفر، قبل أن يعدلوا فيتركوا شققهم مقفلةً حتى إشعارٍ آخر، طلبا مهلةً للتفكير قليلًا، ثم عادا إليَّ بقرار تأجير الشقَّة بانتظار فرصةٍ مؤاتيةٍ لبيعها. بكم، سألتهما، فطلبا مهلةً ثانيةً للتفكير، قبل أن يُجيباني: 600 دولار؟ وكان هذا سؤالًا أكثر منه جواب، فقلت أجل، سعرٌ معقول، نجرِّب ونرى. هكذا أعدت صنع يافطةٍ جديدةٍ عند الخطَّاط وعلَّقتها على درابزون الشرفة، ليراها الغادي والذاهب.

رفعت أباجور الشرفة بواسطة رافعته التي عاندت في يدي لقلَّة استعمالها، فدخل النور وقحًا يُعمي العينَيْن، ثم فتحتُ الباب الذي انزلق بصعوبةٍ ربَّما بسبب الأتربة المتراكمة في سكَّته. يجب أن آتي بدلوٍ وممسحةٍ وشفَّاطة، فأشطف الشقَّة كلَّها وأُزيل منها

الغبار المتراكم والأتربة. بحياتي لم أرَ مدينةً تتَّسخ بالسرعة التي تتَّسخ فيها بيروت. أكنس درج العمارة وأمسحه، أنظِّف المصعد وألمِّع مرآته، ثم أمسح باب المدخل وزجاجه، وأشطف الفسحة الفسيحة حيث تقف السيَّارات. وما إن أطرف عيني وأعود، حتى تغافلني طبقةٌ جديدةٌ من الغبار والأوراق السارحة، هذا حين لا يكون سخامًا أسود يتطاير في الجوِّ بفعل إحراق النفايات المنتشرة هنا وهناك.

ـ والله، إنِّي أنا يوسف، وربَّات البيوت في هذه البلاد، نخوض حربًا شرسة أخرى، هي حرب الحفاظ على حدٍّ أدنى من كرامةٍ تمنحها لنا النظافة بعد أن انهار كلُّ شيء.

هذا ما قالته لي السيِّدة المحامية من الطابق الثالث، وهي تمدُّني بصناديق فيها كمِّيَّاتٌ من موادّ التنظيف وأدواته. «اسخَ يا يوسف، ولا تهتمّ، وحين تنتهي هذه، أوافيك بغيرها». وهكذا فعلت، حتى اشتكى بعض السكَّان من رائحة الديتول والمنظِّفات والمطهِّرات الأخرى التي أضعها في دلاء الماء. فهنا، ثمَّة ولعٌ بالتنظيف لم ألحظه في المناطق الأخرى، بل إنِّي أجده حتى مبالغًا به، كأنَّما هو يخفي أكثر ما هو من كراهية القذارة. حسنًا، أنظِّف الشقَّة سريعًا لأنَّ قصَّة الإيجار تبدو أكثر سهولة، ونظافة الشقَّة سترفع من قيمتها.

دخل العريسان وراحا يجولان في الغرف التي رحت أفتح نوافذها تباعًا. البيوت الفارغة تُشعرني بالرهبة، لا أحبُّ دخولها في غياب أصحابها. حتى الشقق الأخرى التي يترك لي السكَّان المسافرون مفاتيحها، لا أزورها بسهولة، إلَّا اضطرارًا، أو حين

يسألني أصحابها: «طلّيت عالشقّة، يا يوسف؟» أو «بليز ما تنسى تسقي الزرّيعة»، أو «خلّي الشبابيك تتنفّس، أحسن ما تبجّ بشي انفجار». المفاتيح التي أحملها في خصري أشعرها ثقيلة، ولست أدري إنْ كان ما يطلبه منّي السكّان، يُعتبر من ضمن مهامي، وأكثرها ثقلًا على قلبي هو دخول الشقق الفارغة. شقّة الست ميّ، لم أزرها لمدّة. وحتى حين كنت أنظّف سفرة الدرج أمام بابها، كنت أشعر بطيفها حاضرًا يرقب ما أفعل، كما أشعر به اليوم ينظر إليَّ بعَيْنٍ عاتبة: أهكذا تُدخل غرباء إلى شقّتي، يا يوسف؟! وأجدني أُجيبها والغصّة في حلقي: ليت القرار عائدٌ لي، ستّ مي، فأنت تعرفين.

تركت الزائرَيْن يتهامسان في ما بينهما، وعدت إلى المدخل أنتظر أن ينتهيا من جولتهما، لأُعيد إقفال الشقّة. شاهدت صرصورًا يركض على البلاط الأبيض ويدخل من تحت الباب إلى الصالون. أردت دهسه، ثم غيَّرت رأيي. في زوايا السقف، عناكب غزلت خيوطها. هذي أيضًا يجب أن أُزيلها بعصا وقطعة قماش. حسنًا أنَّها لا ترى شقَّتها الآن. كانت مجنونة نظافة، تأتيها شاميلي، الخادمة السيريلانكيَّة كلَّ سبت، وتنعف البيت فلا تترك فيه ذرَّة غبار. مسكينةٌ شاميلي، كم بكت حين عرفت ما آلت إليه الستّ. لا أظنُّها فعلت لأنَّها فقدت زبونةً ثابتة، لقد حزنت عليها حقيقةً لأنَّها كانت تحبُّها برغم عنادها وطبعها المزاجيّ. قبل استقدامها، أو بالأحرى قبل أن تتقبَّل فكرة وجود من يساعدها في تنظيف البيت، قلت لها بعتب:

ـ ولو يا ستّ مي، تأتين بغرباء وأنا هنا على بُعد أمتار؟

فنظرت إليَّ من فوق نظَّارَتَيْها وكانت تمسك كتابًا أو مجلَّةً ما:

ـ وهل ستحمِّمني أنت وتطبخ لي؟

اشتعلت النار في وجهي، كما كانت تفعل أمِّي حين كانت توقد للطبخ، وارتبكتُ وتلعثمتُ وتأتأت، ثم انصرفتُ مستعجلًا الإفلات من بسمتها الهازئة بي.

الإنترفون المعلَّق إلى يساري، كان وسيلتها المفضَّلة للتواصل معي. فهي ما أحبَّت يومًا الهواتف الجوَّالة التي كانت تُسمِّيها آلات التجسُّس يرسلها التوأمان ليُبقياها تحت مراقبتهما. تدَّعي أنَّها أوقعت الهاتف من يدها فتعطَّل، أو أنَّه معقَّدٌ لم تفقه فيه شيئًا. آيفون برو ثرتين، درَّة الهواتف، أبقته في علبته ولم تأخذ عناء فتحه حتى. أقول لها إنَّه آخر صرعةٍ وتحفةٌ تقنيَّةٌ وينبغي أن تفتح العلبة لأُريها كيف يعمل فيصلها بالعالم كلِّه، فتُجيبني بتهكُّم:

ـ كأنَّ لُعابك سال، يا يوسف، أتريده؟ خذه، إنَّه لك!

كانت سيِّدةً مجنونةً بالفعل، ولم أكن أستوعب كيف تكون بهذا الكرم وبتلك القسوة في آن. أذكر كيف بقيت تعاندني أيَّامًا حتى قبلت باستقبال قطَّةٍ اعتقدتْ أنَّها وُجدت صدفةً أمام بابها. هي لا تعرف أنِّي أنا من أصعدتها إليها، بعد أن تركتها تجوع. أردتها أن تدخل حياتها، أن تؤنس وحدتها، فالعجائز كافَّةً يحبُّون رفقة حيوانٍ في أواخر حياتهم، وثمَّة من يتعلَّقون به، كما لو كان ولدًا. إلَّا هي! حتى إنَّها لم تختر لها اسمًا، وأبقت إقامتها على

الشرفة، وأولت أمر الاعتناء بها إليّ. وحين تراني واقفًا في الباب وبيدي كيس رملٍ نظيفٌ وآخر فارغٌ لأخذ الفضلات، تنظر إليَّ باشمئزازٍ متأفِّفة، متلفِّظةً بكلمةٍ وحيدة: استعجل! اعتقدتُ أنَّها ستألفها مع الوقت، وتتعلَّق بها وتأخذها رفيقةً لها، ثم فكَّرت أنَّها ربَّما تدَّعي كراهية القطَّة أمامي، بينما في غيابي، تعطف عليها وتهتمُّ بها وتُعطيها الطعام والماء. وإلَّا، فما الذي أجبرها على تحمُّلها كلَّ تلك الأيَّام؟

حين مرضت القطَّة المسكينة وذهبنا لزيارة الطبيب البيطريّ، رأيتُ الستّ مي تلين للمرَّة الأولى، أعني أنَّها بقيت على مزاجيَّتها وعصبيَّتها، لكنِّي رأيت في عينَيْها حيرةً وحزنًا، بدليل أنَّها بقيت منعزلةً في بيتها لا تردُّ على اتِّصالاتي عبر الإنترفون، ولا تستقبل أحدًا، بمن فيهم شاميلي التي بقيت نصف يومٍ كاملٍ أمام الباب، تنتظر أن تفتح لها.

خفنا نحن الاثنَيْن أن يكون قد جرى لها مكروه، لا سمح الله، كأن تكون وقعت وغابت عن الوعي، أو شيءٌ من هذا القبيل. قالت لي شاميلي بعد تفكير: يوسف، أنت تملك مفتاحًا بديلًا، لا؟ ضروريٌّ أن تفتح الباب ونتأكَّد من سلامتها. لكنِّي، ما إن استدرتُ مقتنعًا برأي شاميلي السديد، حتى سمعنا صوتها من وراء الباب تقول غاضبة:

ـ يوسف، أكسرُ يدك إن تجرَّأت وفعلت! أنا مشغولةٌ جدًّا، اتركاني في حالي.

جمدنا أنا وشاميلي مرتبكَيْن، ثم انشقَّ ثغرانا عن ابتسامةٍ

عريضةٍ جدًّا بلغت تدريجيًّا طرفي الفكَّيْن، قبل أن تتحوَّل إلى قهقهةٍ مكتومةٍ بكفَّيْنا، كما لو كنا صغارًا نخشى العقاب. وهمستُ لشاميلي: هي بخير، وسوء طبعها المعتاد هو خير دليل. ثم دعوتها لشرب كوب شايٍ في غرفتي الضيِّقة أسفل العمارة، فقبلت، ونزلنا معًا وأبقيتُ الباب مفتوحًا إذ لا يجوز أن أغلقه احترامًا لها. وكان موضوع حديثنا بالطبع، الستّ مي وسبب رفضها استقبالنا، وعمَّا قد يكون سبب انشغال سيِّدةٍ جاوزت الثمانين. حكينا أيضًا عن مرض القطَّة، وأخبرتها عن زيارة البيطريِّ وكلِّ ما قاله عن طلب رئيس البلديَّة ومجزرة الكلاب والقطط الداشرة، فقطَّبت شاميلي حاجبَيْها ورجتني أن أصمت لأنَّ معدتها «قلبت» على ما قالت. استغربتُ ردَّ فعلها ووجدته مبالغًا بعض الشيء لمن اعتاد أكل القطط والكلاب والجرذان وأنواع أخرى من الحيوانات، فارتاعت شاميلي واستنكرت وقالت لا، وهي تلوِّح بيدَيْها ورأسها بعنف:

ـ لا، يوسف! نحن التاميل لا نؤذي الحيوانات، ديانتنا تمنعنا من ذلك.

ثم انتقلتُ أُحدِّثها عن مجزرةٍ أخرى ارتكبت في بحمدون منذ يومَيْن ضدَّ الكلاب، حيث وُجدت 27 جثَّةً تمَّ تسميمها بسمِّ اللانيت، فعلَّقت شاميلي بكلمة حرام ممطوطة، فأضفت من خلفها أنَّه لم يعد في قلوب الناس أيُّ رحمة. كنت سعيدًا بوجودها، وتمنَّيت في قلبي لو تبقى وقتًا أطول، ورحت أسألها عن بلادها وأحوالها، وفهمت أنَّهم هم أيضًا في بلادهم عاشوا حربًا قاسية استمرَّت 26 عامًا، وأنَّها برغم السلام، رفضت

العودة إلى البلاد. «خلص أهل هناك، أنا سأموت هنا بلبنان». المسكينة، فكَّرت، هي أيضًا عاشت حربًا، مثلي ومثل الستّ مي!

غادرت شاميلي بعد أن شكرتني على كوب الشاي والكعك بيانسون وحبَّة الملبَّس الفوَّار التي ترسلها لي والدتي في أكياس من سورية، مع سائقي التاكسي الكثر الذي يجتازون الحدود يوميًّا بين البلدَيْن، ووعدتْ أن تعود السبت المقبل، كما العادة. رافقتها حتى الطريق، وأنا أُفكِّر أنَّ استقدام السيريلانكيَّات والسيريلانكيِّين كان أفضل ما حصل للبنان. شعبٌ نظيف، لطيف، أمين، دائم التبسُّم وشغِّيل، وأنَّ المستقدمات حاليًّا من الحبشيَّات والأفريقيَّات شيءٌ آخر تمامًا. وتلك الشاميلي بالذات كانت من آخر من بقي ومن أحلاهنّ! طويلة، مرتَّبة، حلوة الملامح، شعرها حرير، خفيضة الصوت، خجولة. أقسم، لو أنَّها كانت أقلَّ سوادًا بقليل، لأسلمتُها وتزوَّجتها على سُنَّة الله ورسوله، برغم أنف أمِّ يوسف وقسمها أن تزوِّجني ابنة أختها الحولاء! إلَّا أنَّ سؤالًا خطر ببالي فجأة: كم عمرها يا ترى، وهل ما زال بإمكانها إنجاب الأولاد؟

حاصله. جاء العريس إلى المدخل حيث كنت أقف، وكان شابًّا في ثلاثينيَّاته يرتدي نظَّاراتٍ شمسيَّة ويخشخش باستمرارٍ بمفاتيح سيَّارته المرسيدس، وسألني إن كنت أمانع بإبراز الوكالة التي تُبيح لي تأجير الشقَّة، فوافقت بالطبع على أن أُريها له في الزيارة القادمة. لكنَّ الشابَّ طلب بلطفٍ أن أُريها له الآن، إذا أمكن، مضيفًا أنَّ الأهل سيتبعونه لزيارة الشقَّة، وبذا لا حاجة للتأجيل، إذ سيدفع عندئذ عربونًا يضمن له حجز الشقَّة التي أعجبت العروس. هزَّت العروس الطويلة الشقراء رأسها بحماس،

وبابتسامةٍ زائدة اللطف، دفعتني إلى النزول إلى غرفتي لجلب الوكالة.

أبقيتُ باب المدخل مفتوحًا ووقفت أنتظر وصول المصعد، فيما كان الشابُّ يتَّصل بذويه ويدعوهم بصوتٍ عالٍ إلى القدوم بسرعةٍ لزيارة الشقَّة. يجب أن أطلب منه صورةً عن هويَّته وأن أرسلها للتوأمَيْن، فهذا يرفع عنِّي أيَّ مسؤوليَّةٍ لأنَّ القرار يبقى لهما في النهاية. لا أدري ما الذي أشعرني بضيق، نوعٌ من الغصَّة علقت في بلعومي وصعَّبت عليَّ ابتلاع ريقي. وكأنَّ مجيء هذين العروسَيْن الشابَّيْن سيطرد من الشقَّة كلَّ وجودٍ للستّ مي ويمحو أثرها تمامًا، بما فيه اسمها الذي ما زال مقيمًا في جرس الباب وعلى لوحة إنترفون البناية.

دخلتُ غرفتي الصغيرة وجلست على السرير. وفاجأت نفسي أفكِّر بخطَّةٍ تمنعهما من استئجار الشقَّة، وبسببٍ مقنعٍ يُنفِّرهما ويُبعدهما. هما حتى لم يناقشا إمكانيَّة خفض قيمة الإيجار كما يفعل الجميع، ومعناه أنَّ الشقَّة راقتهما فعلًا ويعتبرانها «لقطة»، لذا يستعجلاني لحجزها. سخرتُ من أفكاري الغبيَّة، أنت فعلًا ساذج، يا يوسف، معها حقُّ الستّ مي حين كانت تقول: حكَّ دماغك قليلًا! كانت سيِّدةً ذكيَّة، تقرأ وتفهم في عدَّة أمور، وكانت كريمةً طيِّبة القلب، على الرَّغم من خشونتها الظاهرة. أذكر يوم رنَّت بإلحاحٍ على الإنترفون، عقب انعزالها الذي دام أيَّامًا طويلة، ورفضها مقابلتي أو استقبال شاميلي:

ـ يوسف، هناك امرأةٌ تنزل في المصعد الآن، استوقفها سريعًا وقل لها أن تعود إليّ.

ـ لكنَّ المصعد لا يتحرَّك، ستّ مي.

ـ بلى، بلى، لقد نزلت فيه الآن، ثوانٍ وتصل إليك.

ـ لكنِّي لم أَرَ أحدًا يدخل أو يخرج، والساعة تجاوزت العاشرة ليلًا، والمصعد مطفأ.

ـ . . .

بدت لي غريبةً يومذاك، ضائعةً وصوتها متورِّمٌ وكأنَّها بكت طويلًا، أو كأنَّها ناهضةٌ من نوم عميق. هل رأت في منامها سيِّدةً زارتها وتوهَّمت أنَّها حقيقيَّةٌ وأرادت أن تمنعها من الذهاب لتستكمل حديثها معها؟ هذا قد يحدث للجميع، أن يخلطوا ليلهم بنهارهم، واقعهم بأحلامهم.

ـ ستّ مي، أتريدينني أن أصعد إليك؟

ـ اتركني الآن، أريد أن أنام.

قلقتُ عليها. ليس ككلِّ المرَّات. أحسستُ أنَّ ثمَّة ما يجري وخطر لي أن أتَّصل بالطبيب داود. سبق أن طلبتني ليلًا عندما أحسَّت بوجودٍ في المنزل. صعدت إليها جريًا، وخفت أن يكون لصٌّ قد أتى للسرقة، وكانت أخبارٌ كثيرةٌ تتردَّد عن حوادث تعدٍّ على عجائز وقتلهم بغرض السرقة، كما يحدث كثيرًا هذه الأيَّام، ولم أُفكِّر حينها بمنطق، إذ من أين سيدخل وكيف؟ أيهبط من السماء؟ حاصله، فتَّشت كلَّ زوايا الشقَّة وغرفها، ودعوتها أن تخرج من غرفتها حيث احتبست. كانت تثق بي وتطمئنُّ لوجودي الدائم في العمارة، جاهزًا لخدمتها متى طلبتني أو احتاجتني. ليس للمال الذي كان ولداها يُرسلانه أيُّ علاقةٍ بحرصي عليها،

بل هي الأصول التي أُنشئتُ عليها وتعلَّمتها منذ صغري، وتقضي باحترام كبار السنِّ واعتبارهم بركة، مع ضرورة إعانتهم متى احتاجوا، وهي كانت تحتاجني وإن لم تكن تعترف بالأمر.

أتذكَّر يوم رافقتها إلى المرفأ بعد انفجاره. لن أنسى ذاك المشهد ما حييت، مع أنِّي كنت معتادًا ككلِّ السوريِّين على رؤية الدمار والخراب. لكنِّي، لسببٍ ما، شعرت بالخجل والذنب مختلطَيْن، إذ كنتُ على درايةٍ بما يُقال عمَّن هو المسؤول المحتمل عن تفجير نصف بيروت، ممَّن كانت لهم صلةٌ قويَّةٌ بالنظام السوريّ. فأنا كنت أحيا في الجانب الآخر من العاصمة، ذاك الذي تضرَّر بشدَّة، والعمارة كما الأبنية المجاورة، لم تسلم من تهشُّم الزجاج وتخلُّع بعض الأبواب الخشبيَّة والحديديَّة على السواء. رافقتُ يومها الستّ مي مرغمًا، فما كان ممكنًا أن أتركها تذهب وحدها، ثم إنَّها كلَّمتني وطلبت منِّي مرافقتها، الأحرى أنَّها أمرتني.

كنت أظنُّ أنَّ مناظر الدمار في سورية قد استهلكت كلَّ طاقتي على الأسى والقهر، وما كنت لأشكَّ لحظةً أنِّي قادرٌ بعدُ على الشعور بغصَّاتٍ تنفذ إلى بلعومي مثل خناجر مسمومةٍ جارحة، وتطبق على صدري. ثم إنَّ ملامح الستّ مي وهي تنظر إلى الدمار من حولها، فينسحب لونها، ويتسارع إيقاع نفسها، وتتقيَّأ سائلًا أصفر فتُصاب بدُوارٍ كاد أن يلقيها أرضًا، جعلني أشعر أنِّي أشبه بحمارٍ مكسور الظهر. بلى، عدتُ وتحرَّكتُ وسندتُها، ثم أقعدتها على حافَّةٍ وركضت أجلب لها ماءً تغسل به وجهها. وما زاد من انفعالي وتأثُّري، أنِّي لم أرها قبلًا ضعيفةً

وكسيرةً هكذا، بل إنَّني حتى لم يسبق أن فطنتُ إلى سنِّها المتقدِّمة فعلًا، وذلك لطبعها المشاكس وحيويَّتها. فما شعرت إلَّا ودموعي تبلِّل وجهي، فنادتني أن أجلس بقربها، وأبكاني مزيدًا أن تضع يدها على كتفي، كأنَّها أذنت لي أن أفلش حزني. وقد أراحني أن لا تنظر إليَّ كغريب، بل كبني آدم معنيٍّ بما يجري من حوله، وما كان اللبنانيُّون جميعًا ينظرون إلينا بهذه الطريقة، نحن السوريِّين، وإن كانوا محقِّين في أنَّ نظامنا وجنودنا أذاقوهم المرَّ وفي أنَّنا، بعد خروج جيشنا من لبنان، جئنا نازحين وغطَّينا بعض المناطق مثل الجراد... الحقيقة، أنا ليس لي في السياسة، ولا أهتمُّ إلَّا بشؤوني، وأتمنَّى الخير للجميع.

حاصله، بدت الستّ مي متأثِّرةً لتأثُّري، وربَّما تذكَّرتْ أنَّه في بلادي أيضًا دارت حربٌ وسخة، فكانت تلك هي المرَّة الأولى التي تحادثني من دون كلفة، وتطرح عليَّ أسئلةً خاصَّةً تشي باهتمامها بي: من أيِّ منطقةٍ أنت؟ وهل أنت هنا لأنَّك فارٌّ من الجنديَّة؟ وما هي طائفتك؟ وقد أجبتها أنِّي هاربٌ من الحرب، والحقيقة الحقيقيَّة هي أنِّي أيضًا هاربٌ من الشقاء والبؤس والأصابع المهدِّدة المرفوعة في وجهي منذ أن جئت هذه الدنيا الظالمة، ومن صفعاتٍ وركلاتٍ كنت أتلقَّاها من أبي، وأمِّي، وأولاد الحيّ، ومن المدرِّسين ومسؤولي الفتوَّة، ثم من الضبَّاط والعسكريِّين... هنا، أنا بخير، أحصِّل رزقي ولا أحد يعتدي عليّ، بل إنَّ سكَّان العمارة كلّهم يحبُّونني ويقدِّرون عملي ويعاملونني بلطف. بعضهم يرسل لي شيئًا من طبيخه اليوميّ، ويعطيني بقشيشًا متى ساعدتُ في أمورٍ بسيطة، فجلبت غرضًا من

السوق، أو أصلحت عطلًا ما. ولا أغالي إن قلت إنَّ عمارتي، باعتراف الكلّ، هي من أحلى عمارات المنطقة وأكثرها نظافةً وأفضلها صيانةً على الإطلاق...

ياه، لقد نسيت العريسَيْن! انحنَيْت وسحبت من تحت الفراش علبة حليبٍ حديديَّةً أودعتها كيس نيلون أضع فيه أوراقي وأغراضي الثمينة. تلبيسة سنٍّ ذهبيَّةٌ أعطاني إيَّاها أخي الكبير حسن، قبل سفري، وقال إنَّه شراها من أحد نبَّاشي القبور، موصيًا إيَّاي أن لا أبيعها إلَّا عند الضرورة، هويَّتي وصورةٌ عتيقةٌ التقطها لنا غارابيت، المصوِّر الأرمنيُّ الجوَّال الذي كان يجول على القرى البعيدة التي نسيها الله، ويعرض خدماته لقاء ما يُعطى ممَّا تعطيه الأرض لنا أو الحيوان: بيض، جلود خرفان، جبن، كشك، إلخ. في الصورة أقف صغيرًا مذعورًا إلى جانب والدتي ممسكًا بطرف جلبابها، فيما يتحلَّق من حولها إخوتي وأخواتي بنظراتهم العبوسة في وجه الشمس وثيابهم الرثَّة. لست أذكر ما الذي دفع أبي القاسي يومها لأن يقبل بتصويرنا في ذلك النهار المشمس الربيعيّ، هو الذي يقف وراءنا جميعًا مثل رأس هرمٍ لن يلبث أن تنهار حجارته فوق رؤوسنا. الصورة التُقطت ونُسيت، رمتها أمِّي في صندوقها، إلى أن جئت أنا فنبشتها وحملتها معي إلى بيروت.

سحبت ورقة التوكيل من علبة الحليب وأعدتها مكانها. تناولت المكنسة والمجرود وكيسًا للنفايات، وطلعت إلى التاسع حيث أريت الورقة للعريسَيْن، فتحادثا بلغةٍ أجنبيَّة، وحكت هي ثم حكى هو، وتبيَّنت من كلامهما كلمة «أفوكا» وعرفت أنَّها تعني

المحامي، وليس ثمرة الأفوكا التي، منذ اكتشفتها، تولَّعت بأكلها مع المربَّى. هكذا صرت أتحيَّن إقفال محلِّ الخضار القريب الذي يرمي ثمارها حين تنضج كثيرًا ويغمقُّ لونها، لآخذها وآكل ما سَلِمَ منها من أجزاء، فهي مرتفعة الثمن ولا تدخل في قائمة احتياجاتي. قال العريس: دقائق ويصل الأهل، فهززت رأسي موافقًا وقلت إنَّه يجب أن أُعلم أصحاب الشقَّة المسافرين، إذا قرَّرتما استئجارها لأنَّ القرار النهائيَّ يعود لهما. وما هي إلَّا لحظات، حتى دخل الشقَّة رجلٌ وامرأةٌ أشيبا الشعر ولم أدرِ أهل أيٍّ من العريسَيْن هما، لكنِّي قدَّرت أنَّهما والدا العروس التي بدت لي، برغم مظهرها الأشقر الناعم، أقوى من اللزوم وصاحبة القرار.

تركت العائلة تجول على الغرف، وخرجت إلى الشرفة مع المكنسة. يجب أن أجمع الأتربة المجتمعة فيها كي لا تُسدَّ البالوعة فيحتاج تنظيفها عددًا كبيرًا من دلاء الماء تُفرغ الخزَّان. بدأت الكنس باتِّجاه الهواء كي لا يُعيد إليَّ ما جمعته، وكان يأتي من الزاوية حيث قرَّرت الستّ مي وضع القطَّة وعفشها. المسكينة، حين جئتها في الصباح التالي، بعد أن حكت عن تلك الزائرة الخفيَّة التي لم أجد لها أثرًا، شريتُ مناقيش بالصعتر من الفرن الذي كانت تفضِّل، مع باقة نعناعٍ وطماطم وخيارٍ كما تحبُّ أكلها، وقرعتُ عليها الباب. فتحت وبدت متعبة، وللمرَّة الأولى رحَّبت بي وأدخلتني وهي تمسكني من ذراعي. دخلتُ المطبخ، وغسلت الخضار والنعناع ووضعتها في صحن، ثم جلبت صينيَّةً قسمت عليها المناقيش. تريدين معها شايًا؟ سألتُها، فهزَّت رأسها نفيًا، ودعتني أن أجلس معها لتناول الفطور. جلستُ وكانت

تتفرَّج عليَّ أكثر ممَّا كانت تأكل، وأنا أذكِّرها أنَّ المنقوشة ستبرد وأنَّ عليها أن تكمل نصفها على الأقلّ. نظرت إليَّ لحينٍ كأنَّها تحتاج وقتًا لاستيعاب ما أقول، ثم راحت تقضم قضماتٍ صغيرةً وهي شبه غارقةٍ في أفكارها. فجأةً نظرت إليَّ وسألتني: كم الساعة الآن؟ فقلت لها هي التاسعة، فقامت ملهوفةً باتِّجاه غرف النوم، ثم غابت.

انتظرت. وانتظرت. وناديتها أكثر من مرَّة. وحين لم ألقَ جوابًا خفت، فقمت وتقدَّمت باتِّجاه غرف النوم من حيث فاحت رائحةٌ غريبة. أعطيتُ صوتي كي لا أُجفلها بظهوري، ثم طرقت الباب المفتوح الذي يفصل تلك الغرف، من دون أن ألقى جوابًا، إلى أن تقدَّمت خطوتَيْن وضربات قلبي تتسارع خشية أن أجدها ملقيَّةً في الأرض، لا سمح الله. ورأيتها إلى يساري، جالسةً في غرفة الجلوس، بقرب الباب، وهي تُحدِّق في نقطةٍ ثابتةٍ تبيَّن لي أنَّها شاشة التلفزيون المطفأة السوداء، العاكسة لصورتها، وهي تملِّس على ظهر القطَّة التي وضعتْها في حضنها. حين لمحتني، ابتسمت، وقالت:

ـ أهلًا يوسف، ادخل.

فدخلت وجلست على طرف المقعد إلى يمينها، وأنا أبتسم ابتسامةً صفراء، إذ كنت على يقينٍ أنَّها ليست على طبيعتها، وأنَّ ثمَّة ما جرى لها وجعلها غير ما هي عليه. هبَّت فجأةً الرائحةُ نفَّاذةً صادرةً عن القطَّة الجامدة بين يدَيْها، فوقفتُ واقتربتُ لأتحقَّق ممَّا هجستُ به، فإذا بها جثَّةٌ هامدةٌ بدأت تنتفخ، ومعناه أنَّها نفقت على الأقلِّ منذ يومَيْن. هل تعي أنَّها تحمل جثَّة؟

تساءلت، وارتعش بدني من الموقف، فوقفت وانحنيت على الستّ مي وملَّستُ على ظهر القطَّة، فابتسمت بلطفٍ وقالت متأسِّفة: أتصدِّق، لم أجد لها اسمًا بعد! فأجبتها سنفعل، إنَّما الآن، سآخذها منك لأنَّها جائعة، فما اعترضتْ، فسحبتُها من بين يدَيْها، ثم تناولت منشفةً ملقاةً على الأرض ولففتها بها وخرجت.

خلال نزولي في المصعد، فكَّرتُ في ما عليَّ فعله سريعًا، إذ لا يمكن تركها وحيدةً في الشقَّة بعد الآن. هل أتَّصل بولدَيْها، أم بالدكتور داود؟ أصلًا هما سيتَّصلان بالأخير أو يطلبان منِّي أن أفعل، لذا ارتأيت أن أتَّصل به أوَّلًا لعلَّه يتصرَّف بعجلةٍ ويصف لها دواءٍ تحتاجه، وله هو أن يشرح للتوأمَيْن حالتها وينصحهما بما ينبغي فعله. أو لعلَّهما يأتيان هذه المرَّة للاهتمام أخيرًا بوالدتهما.

ـ آلو دَكتور، الستّ مي ليست بخير، ليتك تكشف عليها.

ـ أهلًا يوسف، سأخابرها فورًا.

ـ لا دَكتور، يجب أن تأتي بسرعة، الستّ مي بدأت تضيِّع وأخشى أن تؤذي نفسها.

ـ أفّ، معقول؟! أنا خارج البلد، يا يوسف وسأعود بعد أيَّام. هل يمكن أن تهتمَّ بها إلى أن أحضر؟

ـ طبعًا... ولكن، هل أخبر ولدَيْها؟

ـ لا، الأفضل أن تنتظرني، ربَّما كان عارضًا ولا لزوم لإقلاقهما.

أقفلت الخطَّ مع الطبيب، بعد أن سألني إن كنت قد لاحظت

عليها ثقلًا في اللسان أو في الكلام، فقلت لا، وشعرت بالراحة لأنَّ ثمَّة من يشاركني قلقي الآن، وخاصَّةً لأنَّه قال إنَّ ما بها قد يكون عارضًا، أي أنَّه حالةٌ مؤقَّتةٌ ولن تدوم، وهو طبيب، ومن قد يكون أفهم من طبيبٍ بمريضه؟

تخلَّصت من جثَّة القطَّة بأن رميتها في مستوعب النفايات، وكان حزني عليها سريعًا ـ فهي على الأقلِّ نعمت بسقفٍ وطعام وشراب، في حين يتمُّ التخلُّص من سواها بالشنق، بالتعذيب، أو بسمِّ اللانيت ـ فالستّ مي بقيت تشغل فكري، وقلت إنِّي سأبقى أتفقَّدها من حينٍ لحين، لكنَّ طلبات سكَّان البناية تكاثرت عليَّ وشغلتني طوال النهار. عند انتهاء دوامي في السابعة مساء، ضغطت زرَّ الإنترفون، لكنَّ جوابًا منها لم يأتني، فقلت ربَّما تستريح. ثم لعب الفأر في صدري، فقلت أستحمُّ سريعًا وأطلع إليها لأتأكَّد من حالها، ثم أنزل لأعدَّ عشائي.

وصلتُ التاسع، وبعد أنْ رننتُ الجرس عدَّة مرَّات، أتبعتُه بقرعٍ على الباب. ألصقت أذني في الباب، لا حسّ، لا صوت، فقرَّرت أن أستخدم نسخة المفتاح خاصَّتي، ودخلت وأنا أعلن عن وجودي بصوتٍ عال، فبلغني صوتُها من الشرفة إلى حيث خرجتُ ووجدتها منحنيةً فوق أصص النبات تبحث عن شيءٍ ما، ثم سمعتها تنادي القطَّة: بسبس، قبل أن تلتفت إليَّ وتقول متبسِّمة:

ـ اللعينة، لا أدري أين اختفت... يوسف، صدِّق أو لا تصدِّق، لقد وجدت لها اسمًا!

ـ حقًّا؟ وما هو؟

ـ فْريدا!

فَريدة!؟ ربُّ العالمين وحده يعرف من تكون هذه، ثم تنبَّهت إلى أنَّ الستّ مي ضائعةٌ تمامًا، ولكنِّي تمسَّكتُ بما قاله الطبيب داود، «قد يكون عارضًا»، لا بدَّ أنَّه عارض، إذ كيف تفقد سيِّدةٌ مثلها عقلها بين ليلةٍ وضحاها؟ تقدَّمت وأخذت بذراعها بهدوء وقلت لها أن تأتي معي، وأنا سأبحث عن فريدة لاحقًا، فقبلتْ ودخلنا الصالون حيث جلست على الكنبة البيضاء الكبيرة، وأنا على كرسيٍّ قبالتها. صمتتْ للحظاتٍ وهي مخفضة النظرات، قبل أن ترفع عينَيْها نحوي وتسألني السؤال إيَّاه، وكأنَّها على موعدٍ حاسم وضروريّ: كم الساعة، يوسف؟ السابعة والنصف أجبتها، وتابعت: هل أنت جائعة؟ أأحضر لك شيئًا للأكل؟ أجابت بالنفي، وكانت تعابير وجهها تنمُّ عن توتُّرٍ واضح.

ـ أخاف أن تظهر تلك المرأة.

ـ لا يوجد أحدٌ هنا سوانا، ستّ مي.

ـ بلى بلى، هي هنا، تختفي في النهار وتظهر في الليل. هي قالت إنَّها غادرت، لكنِّي لا أصدِّقها.

ـ وماذا تريد؟

ـ لقد أخبرتني أسرارًا مخيفة... أنا لا أحبُّها.

ـ ومن تكون؟

ـ أنا لا أعرف من تكون، لكنَّها أخبرتني كلَّ شيءٍ عن حياتها، وقالت إنَّها نادمةٌ لأنَّها تبعت رجلًا شرِّيرًا أذلَّها وعذَّبها... حتى إنَّها حاولت قتله.

ـ أفّ!

ـ أجل! لكنَّه نجا، وهي أدخلوها مصحَّة المجانين.

كانت تقول هذا همسًا، وهي تفتح عينَيْها على اتِّساعهما وتهزَّ رأسها منفعلة. ثم تابعت أنَّها لا تعرف من هي، مع أنَّ وجهها أليف. قد يكون السبب أنَّها كانت ممثِّلةً كما أخبرتها... ثم، وكأنَّها فطنت إلى أمرٍ مهمّ، قامت متعجِّلةً وهي تقول: انتظرني هنا، انتظر، سأعود..

والحال أنَّ رأسي كان منشطرًا اثنَيْن، نصفٌ تدفعه الحشريَّة إلى معرفة المزيد، بينما يمنعه النصف الثاني الذي يشعر بالأسى لحالها من طرح أسئلةٍ ستزيد من ضياعها. في آخر أيَّامها، خرَّفت جدَّتي أمُّ صالح ونسيتنا كلَّنا. كنَّا نحن الصغار نضحك، فينظر إلينا والدي نظرةً تجمد لها الدماء في عروقنا، ويبدو حانقًا وحزينًا في آن، كيف أنَّها نسيته وهو المفضَّل لديها، بِكرها وسندها كما كانت تناديه. حين كنت أؤمر بالبقاء معها عند خروج الجميع إلى الحقل، كنت أجلس أتأمَّلها منحنيةً على ثوبها الموشَّى بنقشاتٍ صغيرةٍ تسعى إلى تنقيتها، كما كانت تفعل بحبوب العدس والقمح، أو أرقب يدَيْها العظميَّتَيْن تخيطان أو ترتقان فتوقًا ما، فيما هي نائمةٌ مغمضة العينَيْن.

الستّ مي بدت لي في حالةٍ تشبه حالة جدَّتي في بدايتها، تسأل باستمرارٍ عن الوقت، وتبدو وكأنَّها تنقِّي وجوهًا من ماضيها مثلما كانت تفعل جدَّتي بزؤانها الوهميّ. أنا لست متعلِّمًا كفاية، أعرف، لكن ما أراه لا يحتاج عِلمًا، وظنِّي أنَّ تشخيص الطبيب

داود ليس في محلِّه، وإن كنت في عمقي أتمنَّى أن يكون مصيبًا. سيِّدةٌ تعيش وحيدةً بعيدةً عن ولدَيْها وقد تقدَّم بها العمر ونشف دماغها، هذا كلُّ ما في الأمر. إنَّه حُكم الطبيعة وحُكم ربِّ العالمين! لكنَّ ما يقهرني هو المصير الذي ستؤول إليه. هل سيأتي ولداها ويصطحبانها إلى أميركا حيث يعيشان؟ منطقيًّا، هذا ما ينبغي أن يكون، فهما في وضعٍ مادِّيٍّ جيِّدٍ على ما لاحظت، وهي في النهاية والدتهما وليس لها سواهما. أقول ذلك وأنا أشعر في قرارة قلبي أنَّهما لن يأتيا، وسيكلِّفاني أو يعهدان إلى الطبيب داود أن يفعل ما يريانه مناسبًا لهما، وليس لها.

مسكينةٌ الستّ مي، عيبٌ أن تنتهي هذه النهاية. ينقبض قلبي عندما أتخيَّلها وحيدةً في مأوى للعجَّز، مركونةً في زاويةٍ ما، لا يزورها ولا يهتمُّ بها أحد. إن نقلوك إلى مأوى أو مصحّ، أقسم لك ستّ مي، على قبر جدَّتي المرحومة، أنِّي سأزورك كلَّ أسبوع، حتى ولو توقَّف ولداك عن إرسال المال. لا أريد منهما شيئًا، فليدحشا مالهما في ط... أستغفر الله!

بعد أن طلبتْ أن أنتظرها، عادت بصندوقٍ مكتوبٍ عليه اسمها بخطٍّ عريض، جلست ورفعت غطاءه في حضنها، وراحت تقلِّب محتوياته وتنبش فيها وكأنَّها تبحث عن شيءٍ بعَيْنه. كمٌّ من الأوراق والصور تراكم إلى جانبها على الكنبة وقد انزلق بعضه إلى الأرض. صورٌ بالأسود والأبيض، ورسائل وقصاصات صحفٍ وبطاقات معايدة، وبطاقات دخولٍ إلى مسارح بتواريخ قديمةٍ جدًّا تعود إلى الستينيَّات. اقتربت وركعت أرضًا ورحت ألملم ما سقط وأعيده إلى الصندوق، فترجع هي من دون أن تنتبه

إلى ما أفعل، تنبش فيه وتخرجه من الصندوق من جديد. إلى أن أمسكت بصورةٍ وصرخت وهي تمدُّها نحوي وتضرب عليها بإصبعها:

ـ هذه هي! يوسف، المرأة التي حدَّثتك عنها!

أخذتُ الصورة من يدها وقلبتها. بالأبيض والأسود، شابَّةٌ ترتدي ثوبًا بسيطًا أشبه بكيس، تقف بلا زينة، مثنيَّة الساق أمام حفرةٍ مستديرةٍ واسعةٍ تحتلُّ وسط الخشبة، وكأنَّها تستعدُّ للنزول فيها. خلف الحفرة الواسعة توجد لوحة إشارةٍ مثل إشارات السير مكتوبٌ عليها بلونٍ غامق: انتبه، حفرة! وجه الشابَّة غائم الملامح، لكن ثمَّة كحلٌ كثيرٌ حول عينَيْها يجعلهما بارزتَيْن مثل ثقبَيْن أسودَيْن. قلبتُ الصورة على قفاها، وقد كنتُ لاحظت وجود كتابةٍ عليها حين ناولتني إيَّاها الستّ مي، وقرأت:

تؤخذ البطاقة من فايل الورد صفحة ١٨٢

مسرحيَّة «انتبه حفرة!»

على مسرح البيكاديللي

(1 تشرين الثاني ـ 1 كانون الأوَّل 1965)

بطولة: مي نجَّار

تأليف وإخراج: جهاد سليمان

وبحلقت مصدومًا في الصورة، ثم في وجه الستّ مي، ثم في الصورة من جديد. ولكن... الصورة تقول إنَّها أنتِ، ستّ مي! قلت متعثِّرًا بكلماتي بصوتٍ راجفٍ متقطِّع، فنظرت إليَّ مستغربة، ونفت مستنكرة، قبل أن تضيف:

ـ لا يوسف، إنَّها الزائرة التي حدَّثتُك عنها.

ـ ولكنَّ اسمك مدوَّنٌ هنا، انظري.

فصرخت بي أن أكفَّ عن قول ترَّهات، وتابعتْ وكأن لنفسها:

ـ عرفتُ أنَّ وجهها أليف، لا بدَّ وأنِّي شاهدتها في مسرحيَّةٍ ما. بلى، أنا كنتُ أحبُّ ارتياد المسارح وكنت أحضر معظم العروض.

كانت منفعلةً جدًّا والعرق يتصبَّب منها، فصمتُّ مصدومًا، خائفًا عليها، لا أدري ما أقول. لا بأس، يومان ويعود الطبيب ويكشف عليها، فكَّرت، قبل أن أقف وأستأذنها بالانصراف. لكنَّها وقفت بدورها، وأمسكت بيديَّ مرعوبةً ورجتني أن أبقى معها لأنَّها خائفةٌ جدًّا وثمَّة من سيأتي ليلًا لتعذيبها، ثم تمدَّدت في مكانها على الكنبة وقالت إنَّها متعبةٌ وستنام. نظرتُ إلى الساعة، التاسعة والنصف مساء، وكانت معدتي تقرصني من الجوع. قلت آكل حبَّة فواكه وأنتظر أن تغفو، فإذا رأيتُ نومها طبيعيًّا، فتحتُ الباب على مهلٍ وغادرت. أبقيت نور الزاوية مضاء، وأطفأت ثريَّا السقف، ثم دخلت المطبخ وأكلت تفَّاحة، وعدت لأتمدَّد أرضًا لأنَّ ظهري كان يؤلمني، وأنا أعالجه دومًا باتِّخاذ هذه الوضعيَّة. وما هي إلَّا دقائق، حتى غلبني النومُ أنا أيضًا، فغفوت على سجَّادة الصالون وشاهدتُ جدَّتي في الحلم وفي حضنها طعامٌ تأكله فتوسِّخ نفسها، وأنا أفكِّر كيف تتركها أمِّي تفعل ذلك وماذا سيقول الجيران عنَّا، إنَّنا لا نملك أطباقًا أو إنَّنا

نهمل كبيرة عائلتنا ولا نعتني بها كما يجب؟ ثم فجأةً بدأت جدران البيت تتفكّك وتنهار، وأنا أركض من زاويةٍ إلى أخرى كي أوقظ الجميع فيهربوا، لكنَّهم لا يستيقظون.

لستُ أدري إن كنت أنا من أيقظتها بصراخي في حلمي، فصَحَتْ وكان الليل قد تقدَّم، ونظرت إليَّ والرعب بادٍ على وجهها، وسألت وهي تمدُّ ذراعَيْها أمامها وتحرِّكهما في كلِّ الاتِّجاهات: أين أنا؟ من أنت؟ قبل أن تبدأ بالصراخ بأعلى صوتها: حرامي! حرامي! ارتعبتُ بدوري ورحت أحاول تهدئتها: أنا يوسف، ستّ مي، يوسف الناطور... أنت طلبت منِّي البقاء معك، ألا تذكرين؟ إلَّا أنَّها ابتعدت عنِّي واستمرَّت تصرخ حتى أيقظ صراخُها الجيران، فسارعوا من الطوابق القريبة وراحوا يخبطون الباب بأيديهم وأقدامهم، فانصاع، فدخلوا ووجدوني مزروعًا في وسط الصالون، والستّ مي تنتقل من مكانٍ إلى آخر وهي تطلق صوتها على آخره. نظروا إليَّ مستغربين وجودي في هذه الساعة المتأخِّرة، ثم ربطوا الأمور ببعضها، فتقدَّم جارُ الطابق الخامس نحوي وأمسك بخوانيقي، وقال مهدِّدًا:

ـ شو جاي تسرقها؟ ولك بتعيشوا بيناتنا سنين، بس بتضلّوا بلا أصل وما إلكم أمان!

تجمَّعوا من حولي، وقبل أن تمتدَّ الأيادي لمعاقبتي، تدخَّلت المحامية تفصل بيننا وتمنع أن يتعرَّضوا لي، وساعدها بعضُ الحاضرين من سكَّان العمارة القدماء الذين كانوا يعرفونني حقَّ معرفةٍ ويشهدون بأمانتي، فأخذتني جانبًا وسألتني بهدوءٍ وحزم:

ـ ماذا تفعل هنا يا يوسف والساعة تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل؟

فشرحت لها بالتفصيل الذي صار، وحين استدارتْ وسألتْ الستّ ميّ أمام الجميع إن كان ما أقوله صحيحًا، أجابتها بالإيجاب، وكانت لحسن حظّي قد استعادت وعيها، قبل أن تستفهم مستاءةً عن سبب اجتماع كلِّ هؤلاء الناس في شقَّتها ليلًا. غادرنا جميعًا بعد أن اعتذر من تهجَّموا عليّ، فهذه أيَّامٌ سوداء وكثرة الحوادث والسرقات والجرائم تجعل الواحد يُشكِّك حتى في نفسه. حاصله، مضت الليلة بسلام، ونزلت إلى غرفتي الضيِّقة، لكنَّ غصَّةً بقيت عالقةٌ في بلعومي: الآن، بات الجميع يعرفون أنَّ الخرف طرق باب الستّ مي!

أتممت شطف الشرفة، وحين دخلت، كان أحد أفراد العائلة يصوِّر أقسام الشقَّة بكاميرا هاتفه، بينما كان يتحدَّث بصوتٍ عالٍ عن موقعها وسعرها، وأنَّه من الصعب إيجاد مثلها بهذه المواصفات. شعرت بالتعب من أصواتهم وحضورهم وقد غالوا في زيارة الشقَّة، فقرَّرتُ أن أستعجلهم ذلك أنَّهم عطَّلوني بما يكفي وما زال أمامي عملٌ كثير. مدَّ الرجل الكبير يده إلى جيبه وأخرج ورقة 20 دولار وضعها في يدي وهو يصافحني قائلًا:

ـ شكرًا لك، عطَّلناك معنا، نحن نريد الشقَّة، قل هذا رجاءً لأصحابها، ونحن مستعدُّون لكلِّ مطلوبٍ وحتى للدفع مسبقًا كلَّ ستَّة أشهر.

ثم أعطاني بطاقةً عليها اسمه ورقمه، قائلًا إنَّه يمتلك مكتب محاماة وإنَّ العروس ابنته.

رافقتهم إلى الباب، واعدًا أن أعود إليهم بجوابٍ في مهلةٍ أقصاها يومان، وعندما أطبقوا باب المصعد وراءهم، عدت إلى الشقَّة ووقفت حائرًا في مدخلها. هل أشطفها كلَّها بالماء، أم أكنسها فقط؟ وبما أنِّي لم أجلب معي دلوًا، قرَّرت أن أستخدم أصَّ زهورٍ كبيرًا فارغًا أملأه ماء. كانت الستّ مي تحبُّ زهورها ونباتاتها وتعتني بها أكثر ممَّا كانت تهتمُّ بالقطَّة، ولا أعرف إن كانت بداية خرفها قد تزامنت وبداية مرض القطَّة. ثم تذكَّرت المرَّة التي طلبتني فيها ليلًا لأنَّها سمعت أصواتًا في الشقَّة، وخلصت إلى أنَّ ضياعَها كان قد بدأ بطيئًا، منذ تلك الأيَّام ربَّما.

رميت كمِّيَّةً محترمةً من المياه وبدأت الشطف بالمكنسة. يا حرام، كم كانت شقَّتها جميلةً وأثاثها مرتَّبٌ وأنيق. رؤيتها اليوم فارغةً ومتَّسخةً تُشعرني بالأسى، فكلُّنا سنعبر ذات يوم وسيُمحى أثرنا كما أمحو أنا بصمات الأصابع عن زجاج المرآة في المدخل، أو في المصعد. قبل أن يأتوا لإفراغ الشقَّة من كلِّ ما فيها، خابرني التوأمان وقالا إنَّهما كلَّفا شركةً لفعل ذلك. حاولت أن أسأل عن مصير أغراض ستّ مي الشخصيَّة، فأجابا: لا تهتمَّ يوسف، لقد اتَّفقنا والشركة على شراء كلِّ العفش بسعرٍ إجماليٍّ معقولٍ جدًّا. صحيحٌ أنَّ الطبيب داود كان قد جاء مرَّةً برفقة شابٍّ غريب، أراه كلَّ الأثاث واللوحات وسواها، فيما كان الثاني يصوِّر ويدوِّن ويكتب ملاحظات. وبعد انصرافه، دخل الطبيب غرفة الستّ مي، فأخرج بعض الأغراض التي وضعها في حقيبةٍ صغيرة، ثم أخذ كلَّ ثمينٍ من ذهبٍ ومجوهراتٍ قال إنَّه سيحتفظ بها بانتظار قرار التوأمَيْن. سألته يومها إن كانا سيأتيان لزيارة

والدتهما، فنظر إليَّ وكأنَّه لم يفهم سؤالي، ثم عدَّل نظَّارتَيْه على أنفه وهو يقلب شفتَيْه بما معناه: لا فكرة لديّ.

بعد تبرئتي من تهمة السرقة، اعتاد الجيران أن يجدوني طالعًا إلى شقَّة الستّ مي، نازلًا منها، حتى إنَّهم صاروا يسألونني عن صحَّتها ويعرضون عليَّ المساعدة، كما لو كنت أنا وليَّ أمرها والمسؤول عنها. وهي، في المرَّات القليلة حين كانت تستعيد وعيها وتلحظ وجودي في الشقَّة، كانت تبتسم لي برضى، وتُعيد سؤالي عن فريدة التي تسمع مواءها ولا تراها. حتى شاميلي، ما عادت تكتفي بالمجيء يوم السبت فقط، بل جعلت تأتي أكثر من مرَّةٍ في الأسبوع، وإن كانت لا تطيل البقاء بسبب التزاماتها الأخرى، فتُدخلها إلى الحمَّام لأنَّ الستّ مي صارت توسِّخ نفسها كالأطفال، فتنظِّفها وتبدِّل ثيابها وتجلب لها معها أشياء تحبُّ أكلها مثل حلوى «راس العبد» التي كانت المفضَّلة لديها، وإن غيَّروا اسمها فصار «الطربوش»، فهي بقيت على شكلها. تتأنَّى الستّ مي في تذوُّقه، تكسر غلاف الشوكولا الرقيق الجامد بأسنانها، تبتسم للصوت الذي يصدره، ثم تُدخل لسانها إلى الرغوة السكَّريَّة البيضاء الكامنة في داخله، منتهيةً إلى قاعدته البسكوتيَّة. تأتيها شاميلي بعلبٍ صغيرةٍ تحوي عدَّة «طرابيش»، ثم تُخفيها عنها كي لا تلتهمها دفعةً واحدة. نجلس عن يمينها ويسارها في بعض الأحيان، بعد أن تُنهي شاميلي مهمَّتها، ثم تمسك بيدها ونتحادث أنا وإيَّاها ببعض الأمور، كأنَّنا قريبَيْن جالسَيْن مع جدَّتنا. أخبرتني شاميلي ذات مرَّةٍ أنَّها تنوي السفر وأنَّها قلقةٌ على الستّ مي، وطلبت أن أُخبر ولدَيْها منذ الآن كي

يجدا لها بديلة، وأوصتني أن أعتني بها في غيابها. شبه صرخت:

ـ تعودين إلى سيرلانكا؟

ـ لا يوسف، ربَّما أُسافر إلى السعوديَّة. الوضع هنا صار صعبًا جدًّا.

ـ صحيح أنَّ المعاشات لديهم أفضل، لكنَّك لن تطيقي الحياة هناك.

خفضت شاميلي عينَيْها، وبدا لي أنِّي لو تابعتُ، لانهارت بالبكاء، فسكتُّ وقلت ربَّما تغيِّر رأيها، وألَّا شيء أكيدًا بعد، وما زال هناك وقت. وما عدت عرفت عنها شيئًا. غابت ذات سبت، والسبت الذي تلاه، ولم تظهر في بحر الأسبوع ولم تنذر بأنَّها ستغيب، وظننتُ أنَّها ربَّما فعلت بشكلٍ غير مباشر، عندما أعلمتني نيَّتها السفر. ثم بعد شهور، سمعتُ من بوَّابٍ في المنطقة حيث كانت تعيش، أنَّهم وجدوا جثَّة سيرلانكيَّةٍ توفِّيت بسكتةٍ قلبيَّة، بعد أيَّام من وفاتها، وهو لا يريد أن يلقى المصير نفسه. الجيران تحدَّثوا عن رفيقةٍ لها جاءت تتفقَّد أحوالها. لا أدري لِمَ ألهمني قلبي مباشرةً أنَّها هي، بل أنِّي كنتُ متأكِّدًا أنَّ تلك السريلانكيَّة الصامتة الهادئة، الميِّتة وحيدةً في غرفتها، هي شاميلي. هكذا يموت الغرباء. وشاميلي الطيِّبة ما كانت لتغيب هكذا عن الستّ مي.

بعد ذاك، ولمدَّةٍ معقولة، بدا لي أنَّ الستّ مي، ثبتت على حالها، وأنَّ وضعها ليس بتلك الخطورة، خاصَّةً وأنَّ الطبيب داود الذي عادها بعد إيابه، أكثر من مرَّة، ارتأى أن تبقى في بيتها،

فوجد لها ممرِّضةً تأتيها كلَّ صباح، فتعطيها بعض الأدوية، وتقوم وإيَّاها ببعض التمارين التي تحفظ ما تبقَّى من ذاكرتها، ولا تغادر قبل أن أكون قد طلعتُ أنا إليها. في تلك المرحلة بدت مرتاحة، هادئة، وإن كنت أراها في معظم الأوقات شاردة، سارحةً في فضاءٍ وزمنٍ آخرَيْن. المهمُّ أنَّها كانت تأكل وتنام، وتتجاوب مع دواء الطبيب داود ومع الممرِّضة.

لكن ذات مرَّة، وكنتُ قد تأخَّرت في الصعود إليها لأنَّ المصعد كان معطَّلًا ما اضطرَّني إلى طلب شركة الصيانة بشكلٍ عاجل، والبقاء معهم حتى الانتهاء من إصلاحه، كبست زرَّ الجرس أكثر من مرَّة، معطيًا صوتي ومعتذرًا عن تأخُّري، فما أجابت. أعدت الكرَّة بأن قرعت بيدي هذي المرَّة ثلاث مرَّاتٍ متتابعة، كما سبق واتَّفقنا لتعرف أنَّ الطارق هو أنا فتفتح، فصرختْ من وراء الباب أنَّها أصبحت شبه جاهزة، وما هي إلَّا دقائق حتى تخرج إليّ. ثم أضافت:

ـ هه، طمِّني، هل امتلأت الصالة؟

ألقيت رأسي على خشب الباب وأغمضتُ عينيّ، مدركًا أنَّ حالة الستّ مي تدهورت، وأنَّ عليَّ أن أتَّصل بالطبيب داود على الفور. جلستُ على الممسحة أمام الباب، وكنت أسمعها تُردِّد بصوتٍ عالٍ جملًا لم أفقه منها شيئًا، بعضها بالفصحى، وأخرى بالعامِّيَّة. سحبت هاتفي من جيبي، وأرسلت رسالةً صوتيَّة:

ـ دَكتور، تعال فورًا!

كان هذا اتِّفاقنا أو بالأحرى، تعليمات الطبيب، أن أتَّصل به فورًا ما إن أشعر أنَّ وضعها غريب. لم يطل الوقت حتى وصلتني رسالةٌ منه:

ـ يوسف، حضِّر نسختك من مفتاح الشقَّة! أنا قادمٌ مع آخرين!

كان المفتاح بحوزتي، كما دومًا، لكنِّي، وبرغم ردِّ فعل الطبيب الذي أنبأني بخطورة الموقف، رفضت استخدامَه. لم أجرؤ، أو لم أكن أريد أن أقتحم على الستّ مي فسحتها الأخيرة من الحرِّيَّة، ولست أدري لِمَ ذكَّرتني بالطيور التي كان أخي ينصب لها الفخاخ ويفرح باصطيادها، فأقوم أنا ليلًا بإطلاقها سرًّا من أقفاصها. هذه المرَّة، كنتُ أنا مكان أخي.

سمعت صفَّارة الصليب الأحمر تقترب من العمارة، ثم تنطفئ. لقد وصلوا! وقفتُ وابتلعت لعابي وأعدت الكرَّة: ثلاث دقَّاتٍ على الباب، ففتحت وقالت بصوتٍ خافت:

ـ أنا جاهزة! لدينا حضورٌ هذه الليلة؟

ـ الصالة مليانة ستّ مي!

وجدتني أُجيبها لا أدري كيف، فابتسمتْ وضمَّت يدَيْها، ثم أغلقت عينَيْها وتنفَّست عميقًا، قبل أن تستدير وتغيب عن ناظريَّ في الشقَّة المعتمة. بقيت واقفًا في الباب أنتظر وصول الطبيب داود الذي خرج من باب المصعد، يتبعه شابَّان بثيابٍ بيض.

اعترضت طريق الثلاثة وقلت وصوتي يرتجف:

ـ ستخيفونها. ابقوا هنا وسأدخل أنا إليها وأُخرجها.

أوشك الطبيب داود أن يعترض حين أزاح الشابَّيْن من أمامه، ليدخل، لكنَّ ثبوتي في وجهه وعينيَّ المسمَّرتَيْن فيه وهما ترمشان بسرعة، أثنته عن ذلك، فهزَّ رأسه موافقًا وقال: حسنًا يوسف، ننتظرك هنا.

دخلت أتلمَّس طريقي في العتمة على ضوء شاشة هاتفي، وسمعت حركةً صادرةً عن غرفة نومها، فذهبت إليها وأنا أناديها على مهل. ورأيتها واقفة أمام مرآة الخزانة الطويلة وظهرها لي، وحين سمعتني استدارت برأسٍ مرفوعٍ وحركةٍ شبه راقصة، وقالت: نعم؟ نظرت إليها مشدوهًا وكانت أشبه بشجرة الميلاد، بماكياجٍ قويٍّ وألوانٍ تُزيِّن عينَيْها وخدَّيْها وفمها، وزينةٍ من عقودٍ وأساور، وقبَّعةٍ وثيابٍ مزركشةٍ فوق بعضها البعض، وريشٍ طويلٍ يُزيِّن عنقها. مدَّت يدها نحوي، فتقدَّمتُ منها، فأخذت ذراعي ومشت معي. لكنَّها حين رأت من في المدخل توقَّفت، وهمَّت بالتراجع، ثم نظرت نحوي وابتسمت، وقالت بصوتٍ كسر قلبي:

ـ من أنت؟

ـ أنا يوسف.

ـ أتعلم؟ كائنًا من كنتَ، «فأنا لطالما اعتمدتُ على لطف الغرباء»[1]

---

(1) جملة بلانش الأخيرة، بطلة مسرحيّة «عربة اسمها الرغبة» لتنيسي ويليامز.

نزلنا في المصعد، وتبعنا الطبيب ومعاوناه. كان عددٌ من الجيران قد تجمَّعوا على الشرفات وأمام مدخل العمارة. صعد الطبيب داود في سيَّارة الإسعاف ومدَّ لها ذراعه كي تستند إليها، فانصاعت، ثم استدارت وانحنت، قبل أن ترفع يدها ملوِّحةً للجيران ومن تجمَّع في باحة المدخل.

كانت تقف على خشبة مسرحٍ ما، وتؤدِّي دورَها الأخير!

انتهت

2024 /11 /4 ـ 2022 /10 /17

telegram @yasmeenbook